موسوعة

أخلاق القرآن

الجزء الأول

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص . ب ٦٥٨٥

الطبعـة الاولى

١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد كلُّ الحمد لله تبارك وتعالى ، هو ولي النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . والصلاة والسلام على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان الى يوم الدين .

وأستفتح بالذي هو خير :

« رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قبس من كتاب الله

« إنَّ الَّذِين هُم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُم بآياتِ رَبِّهِم يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِم لا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وَهُم لَهَا سَابِقُونَ ، وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بالحَقِّ وَهُم لا يُظْلَمُونَ » .

« سورة المؤمنون »

مُقدّمة المؤلف

إن كثيراً من كُتّابنا المعاصرين الذين يكتبون في الموضوعات الأخلاقية يوردون أكثر من تعريف للأخلاق، وينقلون هذه التعريفات عن باحثين غربيين، كقول بعضهم : الأخلاق هي مجموعة عناصر الشخصية كالفكر والعاطفة والغريزة ، وقول الثاني : الأخلاق طبيعة الإرادة . وقول الثالث : الخُلُق ميل نفسي يتحكم في الغرائز . وقول الرابع : الأخلاق تنظيم الغرائز . وقول الخامس : الأخلاق تنسيق الميول الطبيعية والعواطف وترتيبها ... إلخ .

ولكن ينبغي لنا ونحن نبدأ دراسة « أخلاق القرآن » أن نعود إلى لغة القرآن – وهي اللغة العربية – نستنبئها في يسر وسهولة عن معنى الأخلاق . إن اللغة تقول : الخُلُق هو السجية والطبع . ويقول الغزالي : إن الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سُمّيت تلك الهيئة خُلُقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خُلُقاً سيئاً .

ويقول ابن الأثير : حقيقة الخُلُق – لصورة الإنسان الباطنة – وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها – بمنزلة الخَلْق ، لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة ، والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصور الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصور الظاهرة .

وهناك فرق بين الخُلُق والتخلق ، فالأخلاق سجايا وطبائع ، ولكن التخلق تكلف من الإنسان يحاول به أن يظهر من أخلاقه خلاف ما يُبطن .

ومن السلف من يعد الدين هو الأخلاق الكريمة ، ويعد الأخلاق الكريمة هي الدين ، ولذلك تعرّض ابن عباس لتفسير قوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » فقال إن المعنى : « لعلى دين عظيم ، لا دين أحبّ إليّ ، ولا أرضى عندي منه ، وهو دين الإسلام » !.

ولذلك يقول ابن القيم : « الدين كلّه خُلُق ، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين » .

ولقد أقبل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصار من بين يديه فقال : يا رسول الله ، ما الدين ؟.

فأجاب الرسول : حسن الخُلُق .

فأتاه الرجل من قبل يمينه وقال : يا رسول الله ، ما الدين ؟.

فأجابه الرسول ثانية : حسن الخلق .

ثم أتاه الرجل من قبل شماله وسأله : يا رسول الله ، ما الدين ؟.

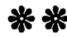
فأجابه الرسول مرة ثالثة : حسن الخلق .

ثم جاءه الرجل من ورائه وسأله : يا رسول الله ، ما الدين ؟.

فالتفت إليه الرسول وقال له : أما تفقه ؟ هو ألا تغضب .

ولعل هذا هو السبب في أن يقول ابن عباس : « لكل بنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلق » .

وهذا يتفق وما يراه علماء الأخلاق من أن الأخلاق ترجع إلى قيم ثلاث ، هي الجمال والخير والحق ، وأن الدين هو القوّام على هذه القيم ، الداعي إليها ، الحارس لها .



والقرآن الكريم هو أساس الإسلام وينبوعه الأول ، وإذا كان القرآن

المجيد كتابَ دين وتشريـع ، وكتاب عقائد وعبادات ومعاملات ، وكتاب عبر وعظات ، فإنه في الوقت نفسه كتابُ أخلاق ، ولقد تحدث القرآن عن مكارم الأخلاق ومحامد الخصال حديثه الموجز المبين ، فصار رائداً لكل مؤمن راغب في التحلي بالفضائل ، والتزين بمحاسن الطباع ، ولعل هذا مما يشير إليـه قول الحق تبارك وتعالى في سورة الإسراء : « إن هـذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . وقوله في سورة الشورى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم،صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى في مكارم الأخلاق ، لأن الله صنعه على عينه ، حتى قال صلوات الله وسلامه عليـه : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، فإن هذا الكمال الأخلاقي قد تحقق للرسول لأنه كان خير من اهتدى بهدي القرآن ، وتحلى بأخلاق القرآن ؛ ولقـد سأل هشامُ بن حكيم السيدة عائشة رضي الله عنها ، عن خُلق رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فأجابت بقولها : كان خُلقه القرآن ،أي كان متمسكاً بآدابه وأوامره ونواهيه ، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف .

وكان هذا الجواب المختصر الجليل سبباً في أن يقول هشام : لقد هممتُ أن أقوم ولا أسأل شيئاً .

ولقد تعرض كتاب الله تعالى لأصول الأخلاق التي يريد الله لعباده أن يتحلوا بها ، وأن يستجيبوا لروحها ، ولذلك هدَفَ حديث القرآن عن الأخلاق إلى غاية سامية جليلة ، هي أن يكون المسلم المؤمن المتخلـق بمكارم الأخلاق صالحاً لتلقي الإشراقات الروحية ، والفيوضات الإلهية التي تجعـله يسيطر بروحه على بدنه ، ويسمو بنفسه فوق حسه ، ويستجيب لعقله أكثر مما يستجيب لعاطفته ، ويُحسن الوفاق بين لبه وقلبه ، فإذا هو سليم الفؤاد ، حكيم المقـال ، رشيد الفعال ، لديه من الحصانة ما يجعله يتأبى على الخطيئة والإثم ، ولديـه من نور

البصيرة ما يجعله موطن الرحمة الربانية في دنياه ، والنعمة الباقيـــة في أخراه ، ولعل هذا نفهمــــه من قول الله جل جلاله : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .



وما دام القرآن المجيد هو كتاب الإيجاز والإعجاز فليس من شأنه أن يتحدث الحديث التفصيلي عن كل صغيرة وكبيرة في الأخلاق ، وإنمـا هو يضع أمام المؤمن علامات الطريق وإشارات التوفيق ، ويـترك لنظره وتدبره حسن الاستنباط وواسع الإدراك ، ومن هنا جاءت في القرآن الكريم آيات قصيرات بألفاظها ، واسعات فسيحات بمفاهيمها ومضامينها ، مثل قوله تبارك وتعالى : « خذ العفو وأمُرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وقولـه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عـن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظـكم لعلـكم تذكرون » .

ومع ذلك خص القرآن الكريم طائفـةً من الأخلاق بتوسيـع في الحديث عنها ، وتأكيد في الحث عليها ، كما سنرى في فصول هذا الكتاب ، وبذلك جمع القرآن بين الإيجاز وسعة البيان ، وإن كان الإيجاز فيه أكثر وأغلب .

ولقد اهتدى علماء الأخلاق بهذا الهدي القرآني ، فمنهم من فصَّل الحديث عن كل خلق من مكارم الأخلاق ، بل قسَّم الخلق الواحد إلى عـدة أخلاق ، كما نشهد الغزالي يفعل ذلك في كتابه « إحياء علوم الدين » في كثير من الأحيان ، ومنهم من أجمل الحديث أحياناً عن الأخلاق ، فعاد بها إلى عدد قليـــل من أمهات الفضائل ، كما فعل ابن القيم مثلاً في كتابه « مدارج السالكين » حـين نراه يقول :

« وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليهـا : الصبر والعفة والشجاعة والعدل . فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى ، والحلم والأناة والرفق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير ،وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة .

والشجاعة تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشيم ، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ؛ وتحمله على كظم الغيظ والحلم ، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وهو حقيقة الشجاعة ، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه .

والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس ، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة » .



وإذا كان القرآن المجيد قد حدثنا عن الاخلاق هذا الحديث الموجَز المركّز المعجز ، فإن السنة النبوية المطهرة قد أقبلت من وراء القرآن تبيّن وتفسر وتؤكد ، وتفسح مجال الحديث عن أخلاق الإسلام الكريمة ، ولا عجب في ذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : « بُعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .

ولقد كان من دعاء النبي في افتتاح الصلاة قوله : « اللهم اهدني لاحسن الاخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيّئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت » . وهذا الدعاء يرينا مبلغ حرص نبي الاخلاق على التمسك بالمثل الاعلى والكمال الاسنى في الفضائل والمكارم .

وهو الذي قال : « أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً » . وقال : « ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق » . وقال : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع

السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن وراء القرآن والسنة أقبل أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، وفي طليعتهم صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، فأدركوا ما للأخلاق في ميزان القرآن والحديث من قيمة وقدر ، فعُنُوا بالحديث عنها والكلام فيها ، وهذا هو الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه يقول مثلاً : «سعة الاخلاق كيمياء الارزاق» ويقول : « التقى رئيس الاخلاق » .

وأقبل أئمة وعلماء أوسعوا دائرة الحديث عن الاخلاق والنظر في دقائقها والكتابة عنها ، وكلهم من القرآن مقتبس ، ومن الرسول ملتمس ، على اختلاف في الأذواق والطرائق ؛ وهذا مثلاً ابن القيم يقول :

« مدار حسن الخُلُق مع الحق ومع الخَلْق على حرفين ذكرهما عبدالقادر الكيلاني فقال : كن مع الحق بلا خَلْق ، ومع الخَلْق بلا نفس . فتأمل ، ما أجلّ هاتين الكلمتين مع اختصارهما ، وما أجمعها لقواعد السلوك ولكل خلق جميل .

وفسادُ الخُلُق إنما ينشأ من توسط الخَلْق بينك وبين الله تعالى ، وتوسط النفس بينك وبين خَلْقه ، فمتى عزلتَ الخَلْق حال كونك مع الله تعالى ، وعزلتَ النفسَ حال كونك مع الخَلْق ، فقد فزتَ بكل ما أشار إليه القوم ، وشمروا إليه ، وحاموا حوله ، والله المستعان » .

ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا حينما يدعو إلى تجريد الاتجاه إلى الله تعالى فيقول : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » ، وحينما يدعو إلى الحذر من وسوسة النفس ، فيقول : « وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم » .



في ضوء ما تقدم شرعتُ القلم وتحدثت عن « أخلاق القرآن » في الفصول التالية من هذا الكتاب ، فتناولت هذه الاخلاق خُلقاً خُلقاً ، وسرت على

منهج آمل أن يكون مقبولاً ، وأن يكون محققاً لما ابتغيت من ربط أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام بمائدة القرآن الكريم .

وهذا المنهج يبدأ في الغالب بالتعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي لكل خلق من أخلاق القرآن الكريم التي تناولتها ، والتي أسأل الله وهو ولي النعم أن ييسر لي متابعة تناولها ، حتى أبلغ ما يشاء الله لي من فضله .

ثم أنتقل إلى استعراض حديث القرآن المجيد عن كل خلق ، وحاولتُ أن أستوعب مع كل خلق الآيات التي تحدثت عنه أو ذكرته . ثم أستعين في شرح كل خلق بما ورد عنه في السنة النبوية ، أو السيرة العطرة ، أو في كتب أعلام الإسلام الذين تحدثوا عن النواحي الاخلاقية ، وفي طليعتهم الإمامان الغزالي وابن القيم .

ثم أتعرض لما ذكره أهل العناية بالتهذيب الروحي – كأعلام الصوفية البصراء – حول هذه الاخلاق من كلمات حكيمة ، ثم أستعين بالكلمات المأثورة في الأدب الاسلامي العربي التي قيلت في أخلاق القرآن التي تحدثت عنها.

وحين كتبت هذه الفصول كنت أتذكر جيداً أن الله جل جلاله قد ألهم الانسان أن يحيا حياة اجتماعية ، فيرتبط بمجموعة من بني جنسه – قلّت أم كثرت – وهذه الحياة المشتركة تستلزم أن تنهض على أصول وقواعد من الاخلاق والآداب التي يجب أن يلتزمها الجميع ، حتى يتحقق فيهم ولهم العدلُ والتوازن ، فتسير الحياة الاجتماعية بينهم على طريقها المستقيم ، وليس هناك صراط كصراط القرآن المجيد الذي يهدي إلى كل خير ، ويعصم من كل شر ، فلا بد إذن من الجلوس إلى مائدة الكتاب الالهي العزيز ، نستمد منها ونأخذ عنها كل غذاء ، وكل دواء ، وكل ضياء : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

ولو صدق الانسان النية في جلساته إلى كتاب الله ، وعزم على تفهم أخلاقه والاستمساك بها ، لأعانه الله على الخير ، وهداه إلى طريق البر ، وليس ذلك بعسير ، فإن القرآن الكريم يقرر في المجال الاخلاقي أن طبيعة الانسان في أصلها

طيبة وصالحة للادراك والتمييز والاهتداء ، وها هوذا يقول في سورة الروم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

ولقد قرر القرآن والسنة هذه الحقيقة قبل « ديكارت » و « روسو » و « كانت » بقرون وقرون .

وما دام الانسان يمتاز على الاحياء الاخرى بالمرونة والقدرة الواسعة على « التكيُّف » فلعل أول واجباته في مجالنا هذا هو أن « يكيّف » نفسه أخلاقياً ، ليكون على الدوام متحلياً بمكارم الأخلاق ، وليستجيب لتوجيه القرآن العميق حين يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . ويقول : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ويقول : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

فلنقبل على مائدة القرآن ، لنأخذ عنها حديث أخلاق القرآن .

وعلى الله قصد السبيل .

أبو حازم
أحمد الشرباصي

العفـــة

العفة ـ كما عرّفها الأصفهاني في مفردات القرآن ـ هي حصولُ حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة عليها، والعفة والعفاف بمعنى واحد، وأصل مادة « العفة » يدل على أمرين : أحدهما الكفُّ عن القبيح، ولذلك قيل : إن العفة هي الكف عمـــا لا ينبغي، والآخر قلة الشيء، وذلك مأخوذ من العُفـّة والعُفافة ـ بضم العين فيهما ـ وهي بقية اللبن في الضرع ؛ أو البقية من الشيء . وتطلق العفة أيضاً على الابتعاد عمـــا لا يحل ولا يَجْمُل، ولذلك قيل : عفَّ الرجل عن الحرام، والعفيفة هي المرأة الخـّيرة، والتي تصون عرضَها وشرفها.

والتعفف هو الاقتصار على أخذ الشيء القليل، وهو أيضاً طلب العفاف، والمتعفف هو الذي يحاول الاتصاف بالعفة عن طريق الممارسة وقوة الإرادة . وكذلك يقال للشخص التارك للسؤال إنه متعفف، والاستعفافُ كالتعفف .

وقد وردت مادة « العفة » في أربعة مواطن من القرآن الكريم، الأول في سورة النساء في قوله تعالى :

« ومن كان غنياً فليستعفف » .

والثاني والثالث في سورة النور في قوله :

« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً » .

وقوله :

« وأن يستعففن خير لهن » .

والرابع في سورة البقرة في قوله :

« يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » .

ومن أهم ما يتعفف عنه الإنسان الفاضل شهوةُ الفرج إذا كانت خارجة عن نطاق ما أحلّه الله عز وجل ، لأن الاستجابة لهذه الشهوة فيها من الآفات ما يُهلك الدينَ والدنيا ، إذا لم يضبطها صاحبها بضوابط الدين والعقل ، والمحمود في هذه الشهوة كما يقول حجة الإسلام الغزالي هو « أن تكون معتدلة ، ومطيعةً للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها » ولقد جرى العرف على استعمال كلمة « العفة » فيما يشير إلى صيانة الإنسان شهوَته الجنسية عن الحرام والرذيلة، وهذا العرف يدل على أن العفة هنا ذاتُ مكانة جليلة ، حتى كأنها كل العفة .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العفة في قوله :

« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » .

أي فليلجأ إلى العفة أولئك الذين لا يجــدون وسائل القدرة على الزواج ، حتى يهبهم الله تعالى من فضله ورزقه ما يقدرون به على تبعات الزواج ولوازمه، وطلبُ العفة هنا يكون بضبط النفس وحفظِ الحواس عن الاستجابة للشهوات، وعدم الخوض فيما يثير هذه الشهوات من أحاديث أو عوامل أخرى ، وأن يعالج الإنسان نفسَه بمثل الصوم ، أو العبادة ، أو العمل .

وعــاد القرآن الكريم إلى الحديث عن هذا اللون من العفة ، فقال في صفة المؤمنين : « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو مــا ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وأعطانا كتاب الله عز وجل أروعَ صورة للعفة الجنسية في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ، حيث يقول عنهما :

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون » .

وحيث قال عنه :

« قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن

أصبُ إليهن[1] وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم » .

وجاء أدب النبوة الممتع فقص علينا قصة أصحاب الصخرة التي سدت عليهم باب الغار ، فجعل كلٌ منهم يدعو بعمل صالح ، حتى يزيل الله عنهم الكربَ وينقذهم ، وقال الثاني منهم في دعــائه : اللهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحبّ الناس إلي ، فراودُتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى ألمت بها سنة من السنين – أي شدة من الشدائد – فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً ، على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلتْ ، حتى إذا قدرت عليها ، قالت : اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه . فتحرجتُ من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي من أحبّ الناس إليّ ، وتركت الذهبَ الذي أعطيتها ، اللهم إن كنتُ فعلته ابتغاءَ وجهك ، ففرّج عنا ما نحن فيه ..» . الحديث رواه البخاري .

وكذلك روى أبو بكر بن عبدالله المزني ان قصّاباً هام بفتاة لبعض جيرانه ، وبادلته الفتاة حباً بحب ، ولكنها كانت عفيفة شريفة ، فتبعها ذاتَ يوم وهي على خلوة من الطريق ، وراودها عن نفسها ، فقالت له : لا تفعل فإني أشد حباً لك منك لي ، ولكني أخاف الله . فارتدع وقال : أنت تخافينه وأنا لا أخافه؟. ثم رجع تائباً ، فاستجاب الله دعاءه .

ومما رواه السلف أن شاباً عابداً كان بالكوفة ، فتعرضت له امرأة في الطريق ، وقالت له : يا فتى اسمع مني كلماتٍ أكلمك بها . فقال لها : هــذا موقفُ تهمة ، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً ، فقالت له : والله ما وقفتُ موقفي هذا جهالةً مني بأمرك ، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني ، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي معرفتي أن القليل من هــذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشرَ العُبّاد على مثال القوارير ، أدنى شيء يعيبها ، وجملة ما أقوله لك : إن جوارحي كلها مشغولة بك ، فاللهَ اللهَ في أمري وأمرك .

---

(١) أصب اليهن : أمل الى أجابتهن .

ومضى الشاب في طريقه ثم كتب إليها يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبدُ حلمَ ، فإذا عاد الى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب ، فَمَن ذا يطيق غضبه ؟ فإن كان ما ذكرتِ باطلاً فإني أذكّرك يوما تكون السماء فيه كالمُهْل[1] ، وتصير الجبال كالعِهْن ، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم ، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي ، فكيف بإصلاح غيري ؟. وإن كان ما ذكرتِه حقاً فأنا أدلك على طبيب هدى ، يداوي الكلوم[2] المرضة والأوجاع المُرْمضة ، ذلك هو الله رب العالمين ، فاقصديه بصدق المسألة ، فإني مشغول عنك بقوله تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة[3] إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » فأين المهرب من هذه الآية ؟ » .

وبعد أيام تعرضت له فأراد الرجوع من الطريق فقالت له: يا فتى، لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى ، ثم بكت وقالت : اسأل الله الذي بيده مفاتيحُ قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك ، وامنن علي بموعظة أحملها عنك ، وأوصني بوصية أعمل بها. فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكّرك قول الله تعالى : « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » .

وطالبَ القرآنُ المؤمنين بالتعفف في النظر بغض البصر ، فقال في سورة النور : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن

---

(١) المهل : الفضة المذابة ، أو دردى الزيت . والعهن : الصوف المصبوغ . وتجثو : تركع وتخشع .

(٢) الكلوم : جمع كلم – بفتح فسكون – وهو الجرح .

(٣) يوم الآزفة : يوم القيامة . وكاظمين : يمسكون غمهم وكربهم .

فروجهن » .

وكما طالب القرآن بالعفة في النظر طالبَ بالتعفف عن التبرج وإبداء الزينة المثيرة أو العورة التي يجب سترها ، فقال في سورة النور : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم » . أي أن العجائز اللاتي يغلب عليهن البقاء في البيوت والقعود فيها ، ولا يطمعن في الزواج لكبر سنهن ، ويأسهن من تطلع الرجال إليهن ، لا حرج عليهن في وضع بعض ثيابهن الخارجية ، مع الابتعاد عن التبرج وكشف العورات ، ومهما يكن الأمر فالاستعفاف بالاحتياط والتستر خيرٌ لهن ، فقد يساء استغلالُ وضعهن بعض ثيابهن ، والله مطلع على خفايا النوايا ، وخبايا الصدور ، لأنه سميع عليم .

وقد أكد القرآن هذا المعنى حين قال في سورة النور عن النساء : « ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة[1] من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

وفي سورة الأحزاب يقول الله تعالى :

« ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

وأشار القرآن الكريم الى العفة في شأن المال ، والأساس فيها أن لا يأخذ الإنسان إلا ما كان حقاً حلالا له ، وأن يصون يدَه عن أن تتناول شيئاً من مصدر حرام أو فيه شبهة ، لأن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به .

وفي سورة النساء جاء قول الله تعالى :

---

(١) أصحاب الرغبة والحاجة الى النساء .

« ومن كان غنياً فليستعفف » .

وقد ورد هذا النص في مقام الحديث عن اليتيم ورعاية ماله ، ومعناه أن من كان منكم غنياً متولياً لأمر يتيم ، فليعف عن الأكل من مال اليتيم ، وليطالب نفسه بذلك ، ويحملها على العفة في هذا المجال .

ويشير القرآن الى التعفف عن سؤال الغير عند الاحتياج فيقول في سورة البقرة : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض[1] يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

أي اجعلوا ما تنفقونه وتتصدقون به للفقراء الذين حوصروا في الجهاد ، ولا يتمكنون من التكسب ، ويراهم من يجهل حالهم ، فلا يعرف أنهم محتاجون لأنهم يُعفون أنفسهم عن ذل السؤال ، ولكن لو دققتَ النظر في أمرهم لعرفت دلائلَ تدل على احتياجهم ، وهم لا يلحون في السؤال ، فهم أولى من غيرهم بالإعطاء .

ولقد رمز القرآن الكريم إلى العفة في القول ، بترك الألفاظ النابية ، والابتعاد عن أحاديث المجون والفجور ، حين قال عن عباد الله الأخيار :

« وهُدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد » .

وحين قال :

« اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » .

وهكذا أراد الله تبارك وتعالى من عباده أن يتحلّوْا بالعفة في كل مجال من مجالات الحياة ، فيعفوا في مجال الشهوة ، ويعفوا عن الحرام ، ويعفوا عن النظر الجامح ، ويعفوا عن التبرج الفاضح ، ويعفوا عن القول الجارح ، ويعفوا عن كل ما لا يجمل ولا يليق .

ولقد جاء في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام : « مَنْ يستعفف يعفه الله »

---

(١) أي سيرا فيها للاكتساب .

أي من طلب العفة وحاولها أعطاه الله إياها ، ولقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « اللهم إني أسألك العفافَ والغنى » .

وقد تردد ذكرُ العفة والتعفف في تراثنا الأدبي ، فقال عمرو بن الأهتم :

انا بنو منقر قوم ذوو حسب فينا سراةُ بني سعد وناديها
جرثومة أُنفٌ يعتفُّ مُقْترها[1] عن الخبيث ، ويعطي الخير مثريها

والشاهد في قوله : « جرثومة أنف يعتف مقترها » أي أن قبيلته قبيلة أصيلة ، يأنف أبناؤها من العمل القبيح ، وفقيرها يعف عما لا يليق به .

وكذلك يقول بشار بن بشر :

وإني لعفٌّ عن فكاهة جارتي وإني لمشنوءٌ إليّ اغتيابُها
إذا غاب عنها بعلُها لم أكن لها زؤوراً ، ولم تأنس إليّ كلابُها
ولم أكُ طلاّباً أحاديثَ سرِّها ولا عالماً من أي حَوكٍ ثيابُها

هذا ، وإذا كانت العفة خُلُقاً من أخلاق القرآن ، وصفة من صفات أهل الإيمان ، فما أجدرَ أتباع محمد عليه الصلاة والسلام بأن يحرصوا عليها ، ويتصفوا بها ، ليكونوا صادقين في اتّباعهم رسولهم الذي وصفته عائشةُ رضي الله عنها بقولها « كان خُلُقُه القرآن » .

---

(١) الجرثومة : الاصل . والانف ـ بضم الهمزة والنون ـ : السادة المترفعون . ويعتف : يتعفف . والمقتر : البخيل

المراقبة

مادة « المراقبة » في لغة العرب تدل على الانصراف إلى مراعاة شيء ، وكذلك تدل على ملاحظة الرقيب ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال عنه إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبَه ، فالمراقبة فيها معنى المراعاة والحفظ ، وفيها كذلك معنى الانتظار ، يقال : رقب فلانٌ الموعدَ ، أي انتظره . وفي القرآن آيات تشير إلى هذا المعنى ، ففي سورة القمر : « إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » أي انتظر وتوقع ما يحصل لهم ، وفي سورة القصص « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب » أي يترصد الأخبار ، أو يتوقع المكروه ؛ وفي السورة نفسها : « فخرج منها خائفاً يترقب » أي يتوقع لحوقَ الطالبين به . وفي سورة الدخان : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » . وفيها أيضاً : « فارتقب إنهم مرتقبون » . وفي سورة هود : « وارتقبوا إني معكم رقيب » .

ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى معنى الحفظِ والمراعاة في مادة « المراقبة » قوله تعالى في سورة التوبة : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة » أي ان يظفروا بكم لا يحفظوكم ولا يراعوا قرابةً ولا عهداً . وكذلك جاء في السورة نفسها : « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون » .

ومن أسماء الله تعالى « الرقيب » لأنه رقيب لعباده ؛ حفيظ عليهم ويعلم

أحوالهم ، ويَعُدُّ أنفاسَهم ، كما قال القشيري في كتابه « التحبير في التذكير ».
ويقول ابن الأثير إن الله هو الرقيب لأنه الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ، وقد جاء وصفُ الله تعالى باسم الرقيب في أكثر من آية ، ففي سورة المائدة على لسان عيسى : « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ». وفي سورة النساء : « إن الله كان عليكم رقيباً » . وفي سورة الأحزاب : « وكان الله على كل شيء رقيباً » .

والمراقبة بالمعنى الأخلاقي هي ملاحظة الإنسان نفسَه في أعمالها وأقوالها ، وتحركاتها وخطراتها ، ليقيمَها على الصراط السويّ ، لأن إهمال ملاحظةِ النفس يؤدي بها الى الطغيان والفساد . ويرى الصوفية أن المراقبة هي حالةٌ للقلب يُثمرها نوع من المعرفة ، وهذه الحالة تُثمر أعمالا في الجوارح وفي القلب ، والمعرفة هنا هي العلم بأن الله محيط بكل شيء ، وأنه عليم بكل شيء ، وأنه مطلع على الضمائر ، رقيب على السرائر ، قائمٌ على كل نفس بما كسبت . ومتى سيطرت تلك المعرفة على القلب جعلته مراعياً لله جل جلاله ، ملاحظاً إياه ، منصرفاً إليه . ولذلك يقول ابن القيم : « المراقبة دوام علمِ العبد باطلاع الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه ، فاستدامتُه لهذا العلم واليقين هي المراقبة ، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب ، ناظر إليه ، سامع لقوله ، وهو مطلع على عمله كلّ وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين » . ويقول القشيري عن المراقبة في مفهوم الصوفية : « فالمراقبة عند أهل هذه الطائفة أن يصير الغالبُ على العبد ذكره بقلبه أن الله مطلع عليه على الدوام ، فيخاف سطواتِ عقوبته في كل نَفَس ، ويهابه في كل وقت » .

ومن هذا نفهم أن فضيلة « المراقبة » صفة تنبع من أعماق القلب ، وتنبثق من طوايا النفس ، وترتبط بالباطن اكثر مما ترتبط بالظاهر ، فهي قائمة على الشعور الحيّ العميق بجلال الله وسلطانه ، ولقد قال عبد الله بن المبارك لرجل: راقب الله تعالى ؛ فسأله عن معنى ذلك ، فقال له : كن أبداً كأنك ترى الله . والمرء لا يرى الله بباصرة ولا بجارحة ولا بحاسة ، وإنما يرى جلالَه بقلبه

وشعوره ووجدانه .

وفي كتاب الله المجيد آياتٌ تشير إلى هذه المراقبة ، وتدعو إليها وتأمر بها وإن لم تصرح بمادتها ، فيقول القرآن الكريم : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » .. ويقول : « وهو معكم أينما كنتم » . ويقول « ألم يعلم بأن الله يرى » . ويقول « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » ويقول : «إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ .

والمراقبة لله تعالى تنشأ عن خشية جلاله ، وعميقِ الشعور بسلطانه ، ولذلك سئل بعض العارفين عن معنى قوله عز من قائل : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه » ، فأجاب : « معناه : ذلك لمن راقب ربّه عز وجل ، وحاسب نفسَه وتزود لمعاده » . وقال محمد بن علي الترمذي : « اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمُه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه » .

وإنما يتحلى بفضيلة المراقبة خيارُ العباد من العقلاء ، وصفوةُ الناس من الأتقياء ، وأرباب البصائر الذين يعلمون — كما يعبّر الغزالي — أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون في الحساب ، ويطالَبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » أولئك الذين تحققوا — كما قال أيضاً — أنه لا يُنجيهم من هذه الأخطار الا لزومُ المحاسبة ، وصدقُ المراقبة ، ومطالبةُ النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسَه قبل أن يحاسبه غيرُه خفَّ يوم القيامة حسابُه وحضر له عند السؤال جوابُه ، وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في ساحات القيامة وَقَفَاته ، وقادته إلى العقاب سيئاته .

وصفة المراقبة لا تتجلى في صاحبها بقوتها ومكانتها في يوم وليلة ، بل هي تنبثق وتنمو ، وتزهر وتعلو ، وتشرف وتسمو ، بطول المجاهدة وتكرار

المحاولة ، وقوة العزيمة في حمل النفس على ما ينبغي لها ويليق بها من تطهير وتصفية وتعلية ؛ ولذلك يقرر بعضُ المربين الإسلاميين أن أول المراقبة هو علم القلب بقُرب الله سبحانه ، والقرآن الكريم يقول : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . وهذا القرب يستوجب اشتغال العبد بِمَنْ قرب منه وأحاط به وهيمن عليه ، وإذا كان هناك أناس من الأقارب أو الأباعد ، يدنون من الإنسان أو يتصلون به ، فهؤلاء لا يعلمون إلا الظاهرَ من أمره ، ولا يستطيعون أن يستبطنوا في طواياه وحناياه ، فللناس الظواهر ، والله يتولى السرائر ، وكذلك كان من هدى الصوفية في تقويم سلوك الإنسان ، وربطه بحبل المراقبة ، أن يقولوا له مثلا : إذا جلستَ للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعُهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله رقيب على باطنك .

ومما يقوي جانب المراقبة في صدر الإنسان ويدعم كيانها أن يترطب لسانه على قدر طاقته بذكر أسماء الله الحسنى التي تحيي فيه عناصر هذه المراقبة ، كهذه الأسماء الكريمة : « الرقيب ، الحفيظ ، العليم ، السميع ، البصير » ، وأن يطيل التفكير فيها والتدبر لها ، والتأثر بها ، والاستجابة لوحياتها وتوجيهاتها ، فمن عَقل معاني هذه الأسماء وتعبّد بمقتضاها ، بسقت في صدره شجرةُ المراقبة .

كما تقتضي المراقبة أموراً منها :

١ — الاقبال على الله تعالى حساً ونفساً .

٢ — الدوام على هذا الاقبال حتى لا يكون هناك انقطاعٌ يتخلله ، او فترة تعرض له

٣ — أن يكون عمادُ الاقبال هو حضور القلب ويقظته المستمرة .

٤ — تعظيم الخالق تعظيما منبعثا من الشعور بجلاله وكماله وجماله .

٥ — امتلاء القلب بهذا التعظيم حتى لا يلتفت الانسان إلى سواه .

وكذلك تقتضي المراقبة من صاحبها أنه إذا هَمّ بأن يعمل عملا يتأكد أولا من الدافع الذي يدفعه الى هذا العمل : أيعمله لوجه الله ، أم يعمله لشهوته وهواه؟

ثم يتأكد من وجه أدائه ، أو حالة أدائه ، أيؤديه عن علم ، أم يؤديه بجهل أو ظن ، ثم يتأكد أيضاً من توافرِ الاخلاص في أدائه ، وأنه لا يريد به المراءاة للعباد ، ولذلك روى أبو نعيم في كتابه « الحلية » أن الرسول صـــلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات » . وكذلك قال : « ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ، ولايرائي بشيء من عمله ، وإذا عرض له أمران أحدُهما للدنيا والآخر للآخرة آثرَ الآخرة على الدنيا » .

والمراقبة السويّة قد تبلغ عند المؤمن رتبةً تجعلـه يتذكر على الدوام أن الله تعالى مراقبٌ له ، فيراقب المؤمنُ مراقبةَ الله له ، حتى يتجرد من الشهوات فتتابع إرادتهُ إرادةَ ربه في كل صغيرة وكبيرة ، فلا يكون منه اعتراض على شيء ممـا شرعه الله أو دعا إليه أو أمرَ به ، ولا يكون منه في الدين رأيٌ أو خاطر يستحسن شيئاً حراماً ، أو يستقبح شيئاً شرعه الله عز وجـل ، فهو لا يحكـّم شهوته ولا عقله ولا مصلحته ولا تأويله فيما شرع الله ، بـل يتلقى كل ذلك بالرضى والقبول ، ومن هنا قال ابن عطاء الله : أفضلُ الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقـال ذو النون : علامة المراقبة إيثارُ ما أنزل الله ، وتعظيمُ ما عظـّم الله ، وتصغير ما صغـّر الله .

ومتى تحققت عند الانسان فضيلةُ المراقبة فقد حرص على أداء حقـوق الله وحقوق العباد وحقوق الأشياء كلـّها بإتقان وإحسان .

وما أحوج مجتمعاتِنا إلى وجود هذه الفضيلة بين الأفراد والجماعات ، لأن انعدام وازعِ المراقبة في نفس الانسان يجعله شبيها بالحيـــوان ، يرتع ليتمتع ، ويجمع لينتفع ، ويسطو على حقوق غيره ، وينتهك حرماتِ سواه ، ويسيء استخدامَ حقوق نفسه ، وبذلك تفشو الرذائل ، وتضمر الفضائل ، ويتعامل الناس بشرعة الغاب دونَ ارعواءٍ أو حساب . ولو وُجدت فضيلة المراقبة عند الانسان لجعلته أميناً على الأعراض لا يدنو منها ، ولو كان السبيل إليها ميسّرة

مهيأة ، بل يعتصم بنور إيمانه وبرهان ربه ووازع دينه ، ويقول : « إن معي ربي سيهدين » . أو يقول : « معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنـــه لا يفلح الظالمون » .

والمراقبة هي التي تجعل الانسان أميناً على الأموال بين يديه ، فقد يستطيع أن يسرق منها أو يختلس ، ولكن صوتاً من الأعماق ينهـــاه ، لأنه يرى على الدوام نورَ مولاه . والمراقبة هي التي تجعل الإنسان يؤدي عمله على خير مـــا يكون الأداء ، لأنه لا يرائي في عمله كبيراً أو رئيساً ، ولكنه يراقب ربّه ، ويتذكر قول نبيه : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يُتقنه » .

وما دمنا قد عرفنا من قبل أن المراقبة تنمو وتعلو بطول المجاهدة ، وما دامت عزائم الناس تختلف ، فمن الطبيعي أن تتفاوت درجاتُ أهل المراقبة ، فمنهم سابق مبرِّز ، ومنهم معتدل متوسط ، ومنهم باديءٌ يسعى نحو غايته ، ولقد تحدث حجة الاسلام الغزالي عن درجات المراقبة ، فجعلهـــا درجتين ، والدرجة الأولى في تصويره وتعبيره هي درجة الصديقين ، وهي كما يعبّر — درجة التعظيم والاجلال ، أي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ، وخاضعاً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا ، وهذه مراقبة مقصورة على القلب ، وأما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمطبوعة عليها ، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على طريق الرشاد والسداد ، ولا عجب فالقلب هنا هو القائد وهو الراعي ، فإذا صار مستغرقاً بالمعبود جل جلاله صـــارت الجوارح منقادة له ، جارية على الطاعة والاستقامة بلا تكلف .

وصاحب هذه الدرجة من المراقبة هو الذي يصير همُّه هماً واحداً ، ويكفيه الله سائرَ الهمـــوم ، وقد يغفل عن الخَلْق فلا يحس بهم ، ولا يرى منهم ، ولا يسمع لهم .

والدرجة الثانية هي درجة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غَلَبَ على قلوبهم يقينُ اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظةُ الجلال

بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال ، متسعةً للتلفت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو من المراقبة ، وإن غلب عليهم الحيـــاءُ من الله تعالى ، فلا يُقدمون ولا يُحجمون إلا بعد التثبت والتدبر ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فإنهم يرون الله في الدنيا مطّلعاً عليهم ، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة .

ومن فضل الله العميم على صاحب فضيلة المراقبة أنه إذا صَدَق في مراقبة الله جل جلاله في باطنه وخواطره ، عصمه الله من الاثم والانحراف في جوارحه وظاهره ، ولذلك أجمع الصوفيـــة – كما يذكر ابن القيم – على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سببٌ لحفظها في حركات الظواهر ، فمن راقَب الله في سرّه حفظه في حركاته وعلانيته . وهذا الحفظ الالهي يجعل العبد المؤمن في حـــال الرضى والأمن والاطمئنان ، فالمراقبة لا تستلزم الخوف الفـــازع ، أو الرعب الهالع ، بل إن المراقب الصادق يجد لذة روحية ونفسية في بلوغه هــذه المرتبة السامية ، التي تجعله مستغنياً بالله عن سواه ، راضياً به عما عداه ، ولذلك قال أحد الصوفية : « إذا كان سيدي قريباً مني فلا أبالي بغيره » .

ومن أعظم ثمرات المراقبة أنها تجعل المؤمن مشتغلاً بحاضره ليملأه بأفضل ما تُملأ به الأوقات ، ولقد جاء في الأثر الاسلامي الكريم أن المؤمن ابن وقته ، أي يشغل نفسَه بما هو فيه ، لا يتحسر على ما فات ، ولا ينشغل بمستقبل لم يتحقق بعد ، بل ينتهز ما بين يديه من وقت ، فيتفرغ له ، ويحصر جهدَه فيه ، فإن قدر الله تعالى له مزيداً من الوقت تابع خطواته على طريق الاتقان المستمر وإن لم يُتَح له وقت لقي الله ربّه وهو على خير ، وما أروع عبارة « الاحياء » حين تقول في ذلك :

« الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيهـا على العبد ، كيفما انقضت : في مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد ، لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري ما يقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيهـــا

نفسه ، ويراقب فيها ربه ، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هـذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقّه منها كما استوفى مـن الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابنَ وقته ، كأنه في آخر أنفاسه ، فلعله آخر أنفاسه وهـو لا يدري ، وإذا أمكن ان يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموتُ وهو على تلك الحالة .

نسأل الله جلّ جلاله أن يعصمنا بعصمته ، وأن يربطنا بحبل طاعته ، وأن يكتب لنا نعمةَ مراقبته .

العـــزة

« العزة » كلمة فيها معنى القوة والشدة والغَلَبة ، والعزيز : هو الغـالب لسواه ، ولذلك عرّف القدماء العزة بأنها صفة مانعة للانسان من أن يغلبه غيرُه ، وكلمة « العزة » مأخوذة من قول العرب : أرض عَزَاز ، أي صلبة ، ويقال : عزّ فلان ، إذا برىء وسلم من الذل والهوان ، والمادة كلها توحي بمعاني القوة والشدة والارتفاع والامتناع ، فيقال : عزّني فلان ، أي غلبني ، ومنه قول القرآن الكريم : « وعزّني في الخطاب » . ويقال : عز على نفسي غيابُك ، أي صعب ، ومنه قول القرآن « عزيز عليه ما عنتم »، ويقال : عزّ الوفاءُ بين الناس ، أي قلّ وجوده ، ومنـــه قول القرآن : « وانه لكتاب عزيز » أي يصعب مناله ولا يوجد مثاله .

ومن أوصاف الله تعالى وأسمائه : « العزيز » أي الغـالب القوي ، الذي لا يغلبه شيء ، وهو أيضاً « المعز » الذي يهب العزةَ لمن يشاء من عباده ، وقـد تكرر وصفُ الله تعالى بوصف « العزيز » في القرآن ما يقرب من تسعين مرة .

وقد أشار كتاب الله المجيد إلى أن العزة خُلُق من أخلاق المؤمنين التي يجب أن يتحلوا بها ، ويحرصوا عليها ، فقال : « ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » ، وقال عن عبـاده الأخيار : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » .. وقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحمـاء بينهم » . والشدة على الكافرين تستلزم العزة وقال : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . وهذا يقتضي أن يكونوا أعزاء .

وهذه الآية الأخيرة تُفْهمنا أن كتاب الله جل جلاله يعلّم المؤمنين « إباءَ الضيم » ، وهو خُلُق يفيد معنى الاستمساك بالعزة والقوة ، والثورة على المذلة والهوان ، وإذا كنا قد عرفنا أن القرآن قد كرر وصفَ ذات الله القدسية بصفة « العزيز » ما يقرب من تسعين مرة ، فكأنه أراد بذلك — وهو أعلم بمراده — أن يملأ أسماعَ المؤمنين بحديث العزة والقوة ، فإذا ما سيطر عليهم اليقينُ بعزة ربهم استشعروا القوةَ في أنفسهم ، واعتزوا بمن له الكبرياء وحده في السموات والأرض ، وتأبوا على الهوان حين يأتيهم من أي مخلوق ، وفزعوا إلى واهب القُوَى والقُدَر ، يرجونه أن يُعزهم بعزته ، وكأن الله عز وجل قد أراد أن يؤكد هذا المعنى في نفوس عباده حين جعل كلمة « الله أكبر » تتردد كلّ يوم في أذان الصلاة مرات ومرات ، ثم يرددونها في صلواتهم كلّ يوم مرات ومرات ، فتشعرهم بأن الكبرياء لله جل علاه ، وأن عباده يلزمهم أن يلتمسوا العزةَ من لدنه ، وأن يستوهبوا القوة من حماه : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » . « قل الله مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » .

ولقد أراد القرآن المجيد أن يَهْدي المؤمنين إلى الطريق الذي يصون لهم العزة ، ويحصنهم ضد الرضا بالهوان ، أو السكوت على الضيم ، فأمرهم بالإعداد والاستعداد لحفظ الكرامة والذود عن العزة ، فقال لهم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » لأن القوة تجعل صاحبَها في موطن الهيبة والاقتدار ، فلا يسهل الاعتداءُ عليه من غيره من الضعفاء .

وعلّمهم القرآن الإقدامَ والاحتمال والثبات في مواطن اليأس ، موقنين أن الله معهم ، فقال لهم :

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم ،إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون،وترجون

من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً » .

وفي موطن آخر يقول لهم : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » .

وليست هذه دعوةً إلى بغي أو طغيان ، وإنما يعوّد القرآن أتباعَه أن يكونوا أولاً على حيطة وحذر ، فيقووا أنفسهم بكل وسائل التقوية والتحصين ، حتى يكونوا أصحابَ رهبة في نفوس أعدائهم ، وإلاّ تطاولوا عليهم وعصفوا بهم ، ومن هنا قال :

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » . ويقول : « وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » . ويقول : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » .

وإذا شاءت الأقدار يوماً أن يلتقي المؤمنون في معركة مع الكافرين ، فالواجب حينئذ على كل مؤمن أن يظل عزيزاً قوياً ، وأن يثبت على مبادئه وعقائده ، لا يخيفه الألمُ ولا التعب ، بل يبذل جهدَه وطاقته ، مستخدماً كلّ ما أعده قبل ذلك من سلاح وعتاد ، واثقاً أنه مربوط الأسباب بالله القوي القادر ؛ وإذا شاء الله تعالى له لوناً من ألوان الاختبار والابتلاء ، تحمله راضياً صابراً ، محتفظاً بعزته وكرامته وشهامته ، موقناً بأن احتمال الألم خيرٌ ألفَ مرة من التخاذل والاستسلام : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والإسلام – مع هذا – يدعو أتباعه إلى السلام العادل المنصف ، الذي لا ينطوي على ضيم أو ذل ، ويدعوهم أن يغفروا الهفوةَ إذا كانت عن غير تعمد أو كانت لا تبلغ مبلغَ الإهانة ، أو لا تخدش العزةَ والكرامة ، أما إذا كانت الخطيئة بغياً فعلاجُها الرد عليها بما يغسل العار ، ويدفع الضيم ، ويصون الكرامة ، ولذلك يقول التنزيل المجيد :

« والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن

عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم » . ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « يعجبني من الرجل إذا سِيمَ خطةَ خسفٍ أن يقول : لا بملء فيه » .

ولم يكتف القرآن العزيز بتحريض المؤمنين على إباء الضيم وإيثار العزة تحريضاً يقوم على الأمر الصريح أو التوجيه المباشر ، بل عمد إلى ضرب الأمثال من الأمم السابقة التي استجابت لدعوات الحق ، وتابعت رسلَ الله جل جلاله ، واستشعرت العزةَ ، وتمردت على المذلة ، فكان جزاؤها كريماً ، وثوابها عظيماً ، حيث خاضت المعارك من أجل عقيدتها ، ومبدئها ، ولم تَهِنْ أو تضعف ، بل صبرت وصابرت ، وكافحت وناضلت ، حتى ظفرت وانتصرت ، وذلك فضل الله القوي الذي يحب الأقوياء الشرفاء ، العزيز الذي ينصر من استمسك بالعز والإباء ، يقول القرآن :

« وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير [١] ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبِّتْ أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثوابَ الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » .

* * *

وفي نور النبوة الرائع ما يهدي أتباع محمد عليه الصلاة والسلام إلى منهج الشرف وطريق الكرامة وصراط العزة ، فإن هذا الهدي النبوي الكريم يعلِّم الإنسان أن لا يرضى الدنيةَ في دينه ولا في دنياه ، بل يحفظ لنفسه حقَّها ويذود عن هذا الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن مات دونَهُ فهو شهيد ،

---

(١) الربيون والربانيون : المنسوبون إلى الله لإيمانهم وحكمتهم .

وإن فاز وانتصر عاش عيشةَ الأحرار ، وباء أعداؤُه بالسعير وبئس القرار .

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله، أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذَ مالي (أي اغتصاباً) . قال الرسول : لا تعطه . قال الرجل : أرأيتَ إن قاتلني ؟ . قال الرسول : قاتله . فقال الرجل : أرأيت إن قتلني ؟ . قال الرسول : فأنت شهيد . فقال الرجل : أرأيتَ إن قتلتُه ؟ . قال الرسول : هو في النار .

ولقد تردد في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام صوتُ الدعاء إلى العزة وإباء الضيم ، فقال : « مَنْ تضعضعَ لغنيٍّ لينال مما في يده أسخطَ الله » .. وفي رواية : « من جلس إلى غني فتضعضع له لدنيا تصيبه ذهب ثلثا دينه ، ودخل النار » .. وقال : اطلبوا الحوائجَ بعزة الأنفس ، فإن الأمور تجري بالمقادير » وقال : « إن الله يحب معاليَ الأمور ويكره سَفْسافَها » . وقال « من أعطى الذلةَ من نفسه طائعاً غير مُكْرَه فليس منا » .

والعزة ليست تكبراً أو تفاخراً ، وليست بغياً أو عدواناً ، وليست هضماً لحق أو ظلماً لإنسان ، وإنما هي الحفاظ على الكرامة ، والصيانة لما يجب أن يصان ، ولذلك لا تتعارض العزة مع الرحمة ، بل لعل خير الأعزاء هو مَنْ يكون خيرَ الرحماء ، وهذا يذكّرنا بأن القرآن الكريم قد كرر قولَهُ عن رب العزة : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » تسع مرات في سورة الشعراء ، ثم ذكر في كل مِنْ سورة يس والسجدة ، والدخان وصفَيْ : « العزيز الرحيم » مرة .

ثم إن أغلب المواطن التي جاء فيها وصفُ الله باسم « العزيز » قد اقترن فيها هذا الاسم باسم « الحكيم » . والحكيم هو الذي يوجد الأشياءَ على غاية الإحكام والضبط ، فلا خلل ولا عيب .

وكما تكون العزة خُلُقاً كريماً ووصفاً حميداً ، إذا قامت على الحق والعدل ، واستمدها صاحبُها من حِمَى ربه لا من سواه : « أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » ... تكون العزة الكاذبة أو الضالة خلقاً ذميماً حين تقوم على البغي والفساد ، ومن ذلك النوع قول الله تعالى : « بل الذين كفروا في عزة

وشقاق » ، فعزة الكافرين تعزز كاذب ، ولذلك جاء في الحديث : « كلُّ عز ليس بالله فهو ذل » . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن بعض الضالين : « أخذتـه العزة بالإثم » والعزة هنا مستعارة للحمية الجاهلية والأنفة الذميمة ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً » أي يحاولون التمنع بهم من العذاب : وهيهات ، وهيهات .

ورضوان الله على أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب حين أراد أن يوطد في نفس أبي ذر الغفاري قواعدَ العزة ، عندمـا أرغمه بعضُ حكام عصره على على شدة تعرض لها فقال : « يا أبا ذر ، إنك غضبتَ لله فارجُ مَنْ غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتَهم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتَهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابحُ غداً ، والأكثرُ حُسَّداً ، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رَتْقاً [1] ، ثم اتقى اللهَ لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبُّوك ، ولو قرضت [2] منها لأمِنُوك » . أي لو ذللتَ ونلت من متاع الدنيا لما خافوك .

إن العزة ميراث المؤمن ، فليحرص كلُّ مؤمن على ميراثه .

---

(١) أي مضمومة ملتحمة .

(٢) أخذت منها ونلت .

العـــدل

العدل هو القصد في الأمور ، وهو الإنصاف والمساواة بين النـــاس ، وهو الحكم بالاستواء ، وهو تحري المساواة والمـــماثلة بين الخصمين ، بأن لا يرجح أحدهما على الآخر بشيء قط ، بـل يكونان سواء ، حتى يصــل كلّ ذي حق حقـُه . . وقد رُوي : بالعدل قامت السموات والأرض ، أي أنه لو كان ركن من الأركان الأربعة في العـالم زائداً على الآخر ، أو ناقصـــاً عنه ، على مقتضى الحكمة ، لم يكن العالم منتظماً . وُتطلق كلمــة « العدل » على العادل من الناس المرضيّ المستوي الطريقة .

والعدالة أو المعـــادلة لفظ يقتضي معنى المساواة ، والعدل نقيض الظلم والجور ، والعدل له مرادف هو القسط .

وقد تكررت مادة « العدل » بمشتقاتها ما يقرب من ثلاثين مرة في القرآن الكريم ، وقد يشير هـــذا التكرار – ولو من ناحية المظهر على الأقل إلى عناية التنزيل المجيد بالحديث عن العدل ، والعجيبُ في أمر هذا الحديث أنـه استعرض مواطنَ عديدة ينبغي أن يتحقق العدل فيها ، أو تحقق فيهـا العدلُ الكامل بالفعل ، وفي طليعة هذه المواطن ، وفوق هاماتها كلها ، نجد القرآن الكريم يحدثنا عن عدل الله جل جلاله ، فينفي أولاً عن ذاته العلية صفةَ الظلم . . كأن يقول « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . . ويصف ذاتـــه القدسية بالعــدل والقسط ، كأن يقول : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة

وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

فالله جل جلاله – كما تخبرنا هذه الآية هو الذي يقوم بتحقيق العدل في الدين ، وفي الكون ، فيأمر بعلم ويقضي بحكمة ، وشريعته تحقق العدالة بين مطالب البدن ومطالب الروح ، وهو الذي يأمر بالعدل والتوسط دون إفراط أو تفريط .

و « العدل » نفسه اسم من أسماء الله تعالى ، فهو الذي لا يميل به هوى فيجور في الحكم ، ولفظ « العدل » في الأصل مصدر سُمِّيَ به فوُضِعَ موضعَ وصف « العادل » ، ولفظ « العدل » أبلغ في الدلالة على صفة العدالة من لفظ « العادل » .

والرسول – صلى الله عليه وسلم – مأمور بالعدل كما يحدثنا القرآن الكريم في قوله : « فلذلك فادع ، واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لاعدل بينكم » .

ويقول الله تعالى آمراً رسولَه بالعدل في الحكم لغير المسلمين : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » . وهذه الآية خطاب من الله جل جلاله للرسول – عليه الصلاة والسلام – في شأن حكمه بين غير المسلمين من أهل الكتاب ، فهم – وإن كانوا غير مسلمين – يجب أن يكون حكمه بينهم بالعدل .

والقرآن الكريم يأمر بالعدل في الحكم والفصلِ في القضايا والخصومات بين الناس فيقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا » ..

ويقول في آية أخرى : « إن الله يأمر بالعدل » . وهذا العدل يشمل أولَ ما يشمل المساواةَ والعدالة عند الفصل في الحقوق بين الناس .

ويقرر الإمام الشافعي هنا أن القاضي ينبغي له أن يسويَ بين الخصمين في خمسة أشياء : في الدخول عليه ، والجلوس بين يديه ، والاقبال عليهما ، والاستماع منهما ، والحكم عليهما ، ولا ينبغي أن يلقن واحداً منهما حجته ، ولا أن يلقن

شاهداً شهادَته ، ولا يلقن المدعيَ الدعوى ، ولا يلقن المدعى عليه الإنكارَ أو الإقرار ... إلخ . وفي تاريخ الاسلام مواقفُ رائعة لدقة العدالة في الحكم .

ويأمر كتاب الله المجيد بالعدل في الكلام والمنطق ، فيقول : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . أي يجب عليكم أن تعدلوا في قولكم ، فتكونوا صادقين إذا نطقتم بشهادة أو حكم على أحد ، ولا يجوز أن تحيدوا عن طريق الحق والعدل متأثرين بعامل القرابة ، فالله قد حرم الميلَ في النطق بالشهادة ، ولو كان هذا لمحاباة أحد القرباء .

ويتصل بهذا الوجه من وجوه العدل التي دعا إليها القرآن وحث عليها ، قولُ الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ..

أي أقيموا العدل على أتمّ الوجوه وأكملِ الحالات ، لأن « القوّامَ » هو المبالغ في القيام بالشيء ، وتحروا الحقّ في قولكم وشهادتكم ، حتى لو كانت الشهادة على أنفسكم أو على أقاربكم ، فلا تحابوا الغنيّ طمعاً فيه ، ولا الفقيرَ عطفاً عليه ، فالله أولى من الجميع ، فأخلصوا الشهادةَ ، ولا تتبعوا أهواءكم كراهيةً منكم للتمسك بالعدل ، فسواء عليكم أشهدتم بالحق أم كتمتم الشهادةَ فان الله تعالى مطلع على أحوالكم ، عليم بدقائق أموركم .

ويأمر القرآن الكريم بالعدل في الكتابة فيقول في آية المداينة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل » .. أي ليكتب كتابَ المداينة أو البيع كاتبٌ متصف بالقسط والإنصاف ، فهو لا يزيد ولا ينقص في صفة أو مقدار ، ولا يكتب شيئاً يضر بأحد المتعاقدين إلا بإذنه ، فإن الكتابة هنا أمانة يجب أن يرعاها صاحبُها ، وأن يتقيَ اللهَ فيها .

ويدعو كتاب الله – جل جلاله – إلى العدل في الشهادة ، فيقول القرآن عن النساء المطلقات وهن في العدة :

« فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . أي إذا شارف النساءُ المطلقات آخر عدتهن فراجعوهن إن أردتم العودةَ إلى الحياة الزوجية بحسن عشرة وجميل معاملة ، أو اقطعوا الحياةَ الزوجية قطعاً نهائياً ، إن أردتم الانفصال،مع الوفاء بالحقوق والابتعاد عن الأضرار ، وأشهدوا شاهدين عادلين على الرجعة ، أو على الفراق ، حتى لا تكون هناك ريبةٌ أو تنازع ، وليكن الشهود مُتقين لا يُدخلون على الشهادة أيَّ عوج أو انحراف ،بل عليهم أن يجعلوها عادلةً مستقيمة خالصة لوجه الله تعالى :

وكذلك أمر القرآنُ بالعدل في الشهادة على الوصية ، وذلك في قوله : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم [1] في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذن لمن الآثمين » .

وأوجب كتاب الله المجيد العدلَ حين الإصلاح بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ، فقال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

والقرآن يوجب علينا العدلَ حتى مع من نبغضهم ونكرههم ، وهذه مثالية كريمة في تطبيق العدل،وفي ذلك يقول القرآن: «ولا يَجرِمَنَّكُمْ شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

أي لا يحملنكم بغضُكم قوماً أو عداوتكم لهم على الجور عليهم ، أو الظلم

---

(١) سرتم وارتحلتم وسافرتم .

لهم ، فلا يجوز أن تمنعوهم حقاً من حقوقهم ، أو تكتموا شيئاً مما لهم ، فالعدل واجب عليكم نحوهم في كل الأوقات وسائر الأحوال ، إذ هو أقربُ إلى تحقيق تقوى الله تعالى والبعد عن عقابه .

ويأمر القرآن كذلك بالعدل في تقدير الجزاء المطلوب شرعاً في حالة اعتداء الحاج على الصيد وهو مُحْرِمٌ ،وذلك حيث يقول: «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم[1]، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم [2] يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » .

فالمحرم بالحج يحرم عليه أن يقتل صيداً يُؤكلُ لحمُه ، فإذا فعل ذلك متعمداً كان عليه أن يدفع جزاءً مقابلاً لما فعل ،وهو أن يقدّم ذبيحةً تماثل هذا الصيد في القيمة أو الهيئة ،والذي يقدّر ذلك شخصان يكونان عادلين في حكمهما وتقديرهما.

والقرآن يشير إلى أن العدل قد يكون في بعض الأحيان شاقاً مرهقاً، يحتاج إلى قوة إرادة وشدة عزيمة ، وذلك كالعدل بين الزوجات إذا تعددن ، لأن العواطف والمشاعر والانفعالات المختلفة تتدخل هنا ، وهي عُرضة للجموح والتقلب والتأثير ، ولذلك يقول القرآن الكريم عن تعدد الزوجات : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . ثم يعود في موطن آخر فيقول : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ..

وهذه إشارة إلى ما عليه طبيعة الناس من الاستعداد للجور والظلم في هذا المجال ، لأن المرء لا يستطيع مثلاً أن يسوّيَ بين الزوجتين في المحبة ..

وقد ينوي الرجل العدلَ بين الزوجتين ويحاول ذلك ، ولكن يتعذر عليه بلوغُه ، لتأثر الإنسان بوجدانه وميله القلبي ، وهو لا يملك السيطرة على قلبه ، فالعدل الكامل هنا لا يتحقق ، فلا أقلَّ من التأبي على الجور الواضح والميل الشديد ، حتى لا تتركوا الزوجةَ التي لا تميلون إليها كأنها غير متزوجة وغير

---

(١) محرمون بالحج .

(٢) البهائم .

مطلقة ، ولذلك قال الفقهاء إن العدل المأمور به هنا هو العدل في النفقة والقسمة وما يستطيعه الإنسان .

وهكذا نرى القرآن الكريم قد دعا إلى الاستمساك بالعدل في شتى مناحي الحياة ، وأعلمنا أولا أن العدل هو صفةُ الله جل جلاله ، وهو مهمة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ثم أمرنا بالعدل في الحكم والعمل والقول والكتابة والشهادة والإصلاح بين المتنازعين وتقدير الجزاء ، ومع الزوجة ومع الذين توجد بيننا وبينهم عداوة ، وبهذا تكون دعوةُ الاسلام إلى العدل دعوةً شاملة واسعة النطاق .

ولأن العدل يحتاج إلى دقة ويقظة وتقدير عبّر القرآن الكريم عن العدل بكلمة « الميزان » ، فقال الله – تبارك وتعالى – : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » وقال « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

وقد جاء في « تفسير المنار » العبارةُ التالية تعليقاً على هذه الآية الكريمة : «خير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان هدايةُ القرآن، ويليهم من يصدهم العدل الذي يقيمه السلطان ، وشرُّهم من لا علاج له إلا السيف والسِّنان ، وهذا هو المراد بالحديد ، فقِوامُ صلاح العالم بالايمان بالكتاب الذي يحرّم الظلم وسائر المفاسد ، فيتجنبها المؤمن خوفا من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما ؛ وبالعدل في الأحكام الذي يردع الناسَ عن الظلم بعقاب السلطان .

ويؤيد قاعدَة إقامة العدل ما ورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه ، فقد ذُكر الظلم في مئات من آيات القرآن أسوأ الذكر ، وقُرِنَ في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، وأن الجزاء عليه فيهما أثر لازم له لزومَ المعلول للعلة ، والمسبب للسبب ، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم : « ولا يظلم ربك أحداً » ، ومن أثره وعاقبته في الدنيا أنه مُهْلك الأمم ومخرّب العمران ، قال تعالى :

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .. أما ما كان من

شأنه ولا من سنته في نظام الاجتماع أن يهلك الأمم بظلم منه لهم ، أو بشرك يقع منهم وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم ، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم ، كما قال : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » ، وقال في الاحكام « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »

وإذا كان القرآن الكريم قد استعمل كلمة « الميزان » بمعنى العدل ، فإنه قد كرر الدعوة إلى العدل في الوزن الحسي المعروف فقال : « وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » . وقال: « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» . وقال : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » . وقال « فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ». وقال : « ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط » . وقال : « ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير ».

وحذّر القرآن الكريم من الظلم في الكيل والوزن فقال : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » ؟ ..وفي هذا اليوم الخطير يضرب الله المثل الأعلى للعدل حيث يقول : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » .

ولا شك أن ضبط الكيل والوزن مظهر جليل من مظاهر العدل تصان به الحقوق بين العباد .

* * *

ولقد عبّر القرآن الكريم عن العدل بثلاث كلمات هي : العدل ، والقسط والميزان ؛ وقد استعرضنا مواطن لاستعمال مادة « الوزن » بمعنى العدل في القرآن الكريم ، وأما القسط فهو النصيب الذي يُعطى بالعدل والحق ، وقد جاء في القرآن قوله تعالى : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » . وقوله : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، وقوله : « قل أمر ربي بالقسط » .وقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » .

ومن مادة « القسط جاءت كلمة « القسطاس » بمعنى الميزان ، وفي الميزان معنى العدل كما عرفنا ، وقد يعبّر بكلمة القسطاس عن العدالة ، كما يعبّر عنها بكلمة الميزان ، ولذلك قال القرآن الكريم : « وزنوا بالقسطاس المستقيم » .

وضد العدل هو الظلم ، والظلم في الأصل هو وضع الشيء في غير موضعه المختص به ، إمّا بنقصان منه ، أو بزيادة عليه ، وإما بعدول عن وقته أومكانه ، والظلم أيضاً هو مجاوزة الحق والعدل ، سواء أكانت المجاوزة قليلةً أو كثيرة فارتكابُ الذنب الصغير يسمّى ظلماً ، وارتكاب الكبيرة من الكبائر يسمّى ظلماً كذلك ، وقد قسم بعضُ الحكماء الظلمَ إلى ثلاثة أنواع ، فهناك – كما يروي الأصفهاني – ظلم يقع من الانسان فيما بينه وبين ربه عز وجل ، وأعظمُ الظلم الذي يقع من الانسان هنا هو الكفر ؛ ولذلك قال القرآن الكريم : «إن الشرك لظلم عظيم » وهناك ظلم بين الانسان والناس ، وهو الإساءة اليهم ، أو الاعتداء عليهم ، أو هضم حق من حقوقهم ، وفي القرآن المجيد : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس » .

وهناك ظلم بين الانسان ونفسه ، وهو دفعُها إلى ارتكاب الإثم ، والقرآن يقول : « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » . والظلم يأتي بمعنى الميل والجور عن الصراط المعتدل المستقيم ، كما جاء في الحديث : «لَزِمُوا الطريق فلم يظلموه » أي لم يعدلوا عنه ، ويقال : أخذ فلان في الطريق فما ظلم يميناً ولا شمالا ، أي لم يمل . وفي لفظ الظلم اشتراكٌ مع لفظ الظلام ، والظلام سببُ حيرة وضلال ، وهذا يذكّرنا بقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة » .

ولقد تكرر ذكر الظلم في القرآن عشرات المرات في مواطن التحذير منه والتهديد لأهله ، والأمر بالابتعاد عنه ، فيقول : « ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به » ويقول : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . وقد نفى الله تبارك وتعالى الظلمَ عن ذاته فقال سبحانه : « وما كان الله

ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

* * *

وربما تخيل بعض الناس أن تحقيق العدل أمرٌ ميسور خفيف ، وهذا بعيد عن الحقيقة والواقع ، والسيد محمد رشيد رضا يقرر أن العدل من المعاني الدقيقة التي يشتبه الحدُّ الأوسط منها بما يقاربه من طرَفَيْ الإفراط والتفريط ، ولا يسهل الوقوف على حدّه والإحاطة بجزئياته ، ولا سيما الجزئيات المتعلقة بوجدانات النفس ، كالحب والكُره ، وما يترتب عليهما من الأعمال ، وهذا هو سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام . كان يبذل غايةَ جهده ليحقق العدلَ اللائق به بين زوجاته ، في كل ما يتعلق بأمور المعيشة والحياة ، ولكنه كان بَعدَ ذلك يناجي ربَّه عز وجل ويقول له : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فاغفر ما تملك ولا أملك » . وهو يقصد بذلك ميلَ القلب الذي لا يستطيع المرءُ أن يتحكم فيه ، لأن الانسان لا يستطيع أن يتحكم في حبه أو بغضه ، ولذلك كان من دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللهم يا مقلّب القلوب ، ثبّتْ قلبي على دينك » . وجاء في الحديث : « القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء » . وهذا يذكّرنا بقول الله تعالى في سورة الأنفال : « وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألّف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

* * *

والعدل كما يكون في الأمور المادية التي يسهل ضبطُها وتحديدها ، يكون في الأمور العقلية والمعنوية التي يدقُّ وزنها ، ويحتاج ضبطُها إلى معاناة ومشقة ؛ وهذا مثلاً الإمام الرازي يقول إن من العدل المطلوب عدلَ العلماء مع العوام ، بأن لا يحملوهم على التعصب الباطل ، بل يرشدونهم إلى الأعمال التي تنفعهم في

دنياهم وأُخراهم ؛ وهذا العدل المعنوي الذي يشير إليه يتطلب من العلماء أن يتعرفوا إلى الحاجات العقلية والنفسية والدينية التي يحتاج إليها هؤلاء العوام ، ليستقيم أمرهم ويعتدل حالهم ، فلا يقدّموا إليهم إلا ما يزيدهم توفيقاً ورشداً في أمور دينهم ودنياهم .

ويرى الإمام الغزالي أن قوة العدل الحقيقي هي ضبط الشهوة والغضب ، وإخضاعها تحت إشارة العقل والشرع ، وهو يرى أن العدل حالة للنفس ، وقوةٌ بها تسوس الغضبَ والشهوة ، وتحملها على مقتضى الحكمة ، وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها .

وكلما علت منزلة الانسان بين قومه ، أو اتسعت تبعتُه نحوهم ، أو انفسحت اختصاصاته معهم ، زادت مطالبتُهم له عقلاً وشرعاً بالحرص على العدل والاستمساك بالقسطاس ، ولعل هذا بعضُ السر في إخبار الرسول لنا بأن الإمام العادل أحدُ سبعةٍ يُظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله ، وإخباره أن ذا السلطان المقسط العادل أحدُ ثلاثة هم أهل الجنة .

والعدل نوعان : نوع يقتضي العقل حسنه دائماً ، وهو الإحسان إلى مَنْ أحسن إليك ، لأن الله تعالى يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ويقرب من معنى هذا قوله: «وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردوها» وكذلك كفّ الاذى عمن كف أذاه عنك : « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ونوع آخر يبيحه الشرع ، لأنه عدل يقتضيه التقابل والتماثل ، كالقصاص في قوله تعالى :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ». وقوله: « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . وقوله : « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » . وقوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون » .

فالاعتداء على المعتدي ، ومقابلةُ المسيء بالإساءة من قبيل العدل ، وبهذا

المعنى يقال إن العدل هو المساواة في المكافأة والمجازاة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وكأن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه كان يستحضر في ذهنه هذه المعانيَ حين قال في أول خلافته : « إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً ، بيَّنَ فيه الخيرَ والشر ، فخذوا نهجَ الخير تهتدوا ، واصدفوا عن سمت تقصدوا (أي أعرضوا عن الميل إلى جهة الشر تستقيموا) الفرائضَ الفرائضَ ، أدُّوها إلى الله تؤدِّكم إلى الجنة ، إن الله حرَّم حراماً غير مجهول ، وأحلَّ حلالاً غير مدخول (غير معيب) ، وفضل حرمةَ المسلم على الحُرَم كلِّها ، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين ومعاقدها (أي مواضعها من الذمم) فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، إلا بالحق ، ولا يحق أذى المسلم إلا بما يجب ، بادروا أمرَ العامة وخاصةَ أحدكم وهو الموت ، فإن الحساب أمامكم ، وإن الساعة تحدوكم من خلفكم ، تخفَّفُوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بأولكم آخركم . اتقوا الله في عباده وبلاده ، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم ، وأطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخيرَ فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه » .

ولقد تعرض الإمام الشيخ محمد عبده لقول الإمام علي: « بادروا أمرَ العامة وخاصة أحدكم وهو الموت » ، فعلق عليه بقوله : « أي عاجلوا أمرَ العامة بالإصلاح ، لئلا يغلبكم الفساد فتهلكوا ، فإذا انقضى عملكُم في شؤون العامة فبادروا الموتَ بالعمل الصالح ، كيلا يأخذكم على غفلة ، فلا تكونوا منه على أهبة ، وفي تقديم الإمام أمر العامة على أمر الخاصة دليل على أن الأول أهم ، ولا يتم الثاني إلا به ، وهذا ما تضافرت عليه الأدلة الشرعية ، وإن غفل عنه الناس في أزماننا هذه » .

ويعود الإمام علي رضي الله عنه ليقول لأحد الولاة : « أما بعد ، فإن الوالي إذا اختلف هواه (أي جرى مع شهواته) منعه ذلك كثيراً من العدل ، فليكن أمرُ الناس عندك في الحق سواء ، فانه ليس في الجور عوضٌ من العدل ، فاجتنبْ ما تُنكر أمثالَه (أي ما لا تستحسن صدورَ مثله من غيرك) ،

وابتذل نفسك فيما افترض الله عليك ، راجياً ثوابه ، ومتخوفاً عقابه .

واعلم أن الدنيا دار بلية ، لم يفرغ صاحبها فيها قطُّ ساعةً إلا كانت فرغته عليه حسرةً يوم القيامة (لخلو هذا الفراغ من عمل طيب) وإنه لن يغنيك عن الحق شيء أبداً ، ومن الحق عليك حفظُ نفسك ، والاحتسابُ على الرعية بجهدك (أي التطوع بالجهد لخدمة الأمة) فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضلُ من الذي يصل بك » .

ويعود ليقول للاشتر النخعي وقد ولاّه على مصر : « أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ، ومَنْ لك هوى فيه من رعيتك ، فإنك إن لا تفعل تظلم ، ومن ظلم عبادَ الله كان الله خصمَه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحضَ حجتَه (أبْطلها) وكان لله حرباً حتى ينزع أو يتوب . وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمةِ الله وتعجيلِ نقمته من إقامة على ظلم ، فإن الله يسمع دعوةَ المضطهَدين ، وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أحبُّ الأمور إليك أوسطَها في الحق ، وأعمَّها في العدل ، وأجمعَها لرضا الرعية » .

هذا ولقد ضرب السلف الصالح من هذه الأمة المؤمنة أروعَ الأمثال في العدل ، وناهيك بما كان من الفاروق عمر بن الخطاب ، وخامسِ الراشدين الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز وأضرابهما الذين علّموا الدنيا كيف يكون الحكم بالعدل ، والوزنُ بالقسط ، والقضاءُ بإنصاف ، مهتدين في ذلك كلّه بالنور الذي يهدي للتي هي أقوم ، والذي يدعو إلى العدل ويأمر به ، ويجعل سبب الفوز فيه وعماد التقوى عليه : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

العفـــو

« العفو » كلمة يدل أصلُ معناها على المحو والطمس ، يقال : « عفت الريحُ الأثر إذا محته وطمسته ، وعفا الشيء امّحى ولم يبق له أثر ، والعفو اصطلاحاً هو محوُ الذنوب ، وكل من استحق عقوبةً فتركتَـه فقد عفوتَ عنه .. ويقال: عفا الله عنك ، أي محا الله عنك ؛ فعفوُ الله هو محوه الذنوبَ عن العبد . وقيل إن العفو معناه الترك ، فعفو الله إذاً هو تركُـه العقوبةَ على الذنب ، وفي الدعاء المأثور: « أسألك العفوَ والعـافية » أي أسألك ترك العقوبة وتحقيقَ السلامة ، لأن العافية هي الصحة ، وهي أن تسلم من الأسقام والبلايا .

و « العَفُـوّ » — بضم الفاء وتشديد الواو — هو الكثير العفو ، فالكلمـة صيغةُ مبالغة على وزن فَـعُول ، وهي اسم من أسمـاء الله — عز وجـل — التي تكرر ذكرُها في القرآن الكريم . و « المعافاة » مفاعلةٌ من العفو ، بأن يعفو الإنسان عن الناس ، ويعفو الناس عنه . وقيل هي أن يعافيَك الله من الناس ، ويعافيهم منك ، أي يغنيك عنهم ، ويغنيهم عنك ، ويصرف أذاهم عنـك ، وأذاك عنهم .

وحقيقة العفو أن يُخطيء معـــك إنسان ، وتكون قادراً على معاقبته ومؤاخذته ، ولكنك تُعرْض وتصفح ، ولذلك قيل : العفو عنـــد المقدرة . وقيل : لا يظهر العفو إلا مع الاقتدار . وقيل : ما قُـرِنَ شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى قدرة .

والعفو خلق من أخلاق القرآن الكريم التي كرر ذكرَها ، ورفع قدرَها ،

ولعل مما يبيّن هذا القدرَ الرفيع للعفو أن القرآن المجيد جعله صفةً من صفات الله – عز وجل – وأشار إلى ذلك في طائفة من الآيات ، ففي سورة البقرة يقول الله تعالى :

« ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » . وفيها أيضاً يقول : « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم » . وفي سورة آل عمران : «ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين». وفيها أيضاً : ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » . وفي سورة النساء : « فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم » . وفي سورة التوبة : « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » . وفيها أيضاً : «عفا الله عنك لم أذنت لهم » . وفي سورة الشورى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وفيها : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » . وفيها : « أو يوبقهن [1] بما كسبوا ويعف عن كثير » .. إلخ .

وهكذا نجد أن كتاب الله تبارك وتعالى قد نسب صفةَ « العفو » إلى رب العزة والجلال أكثرَ من عشر مرات ، ونرى أن الله تعالى يعفو وفي الوقت نفسه يهدد بالمؤاخذة مَنْ يعود أو يُصِرّ ، وهو يعفو عن طائفة تستحق العفو ، ويعاقب مَنْ لا يستحق العفو ، وهو يحث على الاتجاه إلى الأسباب التي تجعل الإنسانَ مستحقاً لعفو ربه . ونجد أكثر من هذا وهو أن القرآن الكريم يصف الله – عز وجل – بأنه « العَفُوُّ » في مواطن ، فيقول في سورة النساء : « إن الله كان عفواً غفوراً » . وفيها أيضاً : « وكان الله عفواً غفورا » وفيها كذلك : « فإن الله كان عفواً غفورا » .. وفي سورة الحج : « إن الله لعفو غفور » . وفي سورة المجادلة : « وإن الله لعفو غفور » .

وما دام العفو صفةً من صفات الله التي تؤكدها آياتُ القرآن ، فإنه مما يزكّي الإنسانَ ، ويسمو بقدره عند الله وعند الناس أن يتخلق بهذا الخلق

---

(١) يوبقهن : يهلكهن .

الكريم النبيل ، ولذلك دعا القرآن إلى العفو وحث عليه ، ونوّه به في أساليب مختلفة ، فنراه مثلاً في سورة البقرة يقول : «وأن تعفوا أقرب للتقوى» فيذكّر بأن العفو يكون معواناً على تحقيق التقوى عند الإنسان ، وعلى تجنب الحيف والظلم .

ويقول في سورة الشورى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » .

فليس هناك مانع من مقابلة السيئة بجزائها ، ومواجهة التطاول بمثله ،ولكن العفو المؤدي إلى الإصلاح والخير أجملُ وأكمل ، وثواب هذا العفو النبيل لا يضيع عند الله الذي يقول : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

ويقول في سورة التغابن : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .

ويقول في سورة النساء : إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديرا » .

وهذا تأكيدٌ للحث على التجمل بالعفو ، وتذكير بأن ثوابه إذا أحسن صاحبه التحلي به ، ولم يخرج فيه عن مواطنه — لا يضيع عند الله عز وجل .

والقرآن الكريم يحرّض الناس على الترقي في درجات الصفح والعفو والغفران والتسامح مع الناس فيقول في سورة آل عمران :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . .

وكظم الغيظ هو كتم الغضب وعدمُ العمل بمقتضاه ، والعفو هو ترك العقوبة ، والإحسان هو التفضل بالخير .

* * *

ولقد روى الإمام الغزالي أن ميمون بن مهران جاءته جارية له بطعام ساخن، فوقع إناء الطعام من يدها، فأصاب سيدَها شيء منـــه، فقال لها غاضباً: أحرقتِني. فأجابته: يا معلّمَ الخير ومؤدب الناس، ارجع إلى مـــا قال الله تعالى. فقال: وما قال الله تعالى؟: قالت: لقد قال «والكاظمين الغيظ». فقال كظمتُ غيظي. قالت: «والعافين عن الناس». قال: قد عفوت عنك قالت: زد فإن الله تعالى يقول: «والله يحب المحسنين». قال: أنتِ حرةٌ لوجه الله تعالى.

وإذا كان الرسول الأعظم محمد — صلى الله عليه وسلم — هو المثـل الأعلى لكل مسلم، فان أخلاقه كذلك هي القدوة السامية التي لا تشبهها قدوةٌ في مكارم الأخلاق وفضائل الشيم. ولقد سئلت السيدة عائشة — رضي الله عنها — عن أخلاقــه، فأجابت: كان خلقُه القرآن. والقرآن يطلب إلى الرسول الكريم أن يستمسك بخلق العفو، فيقول له في سورة آل عمران:

«فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر». ويقول في سورة المائدة: «فاعف عنهـم واصفح إن الله يحب المحسنين». ويقول في سورة الأعراف: «خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين».

وإذا كان بعض المفسرين قد فسر قولَه تعالى: «خذ العفو»، بقوله: اقبل السهلَ الميسورَ منهم، فان كثيراً من المفسرين قد قالوا إن معنى ذلـــك هو تعاطي العفوِ عن الناس، أي اعف عمن يليق به العفوُ منهم.

ولقد ضرب رسول الله — عليـــه صلوات الله وسلامه — أروعَ المُثل في الحلم والصفح، حتى رووا أنه كان أحلمَ الناس وأرغبَهم في العفو مع القدرة، ولقد جاء في سيرته العاطرة أنه كان يقسم للناس ذات يوم، فقال رجل مـــن أهل البـــادية فيه فظاظة: يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدل، فما أراك تعدل، فأجاب النبي: ويحك، فمَنْ يعدل عليك بعدي؟. وانصرف الرجل، فقال الرسول في عفو رائع: رُدُّوه عليَّ رويدا.

وقسم النبي ذات يوم قسمةً ، فقال رجل ، هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله. ولما سمع النبي ذلك قال : رحم الله أخي موسى ، فقد أوذي بأكثر من ذلك فصَبر .

وجاءه أعرابي يطلب منه شيئاً فأعطاه ، ثم قال له : أأحسنتُ إليك يا أعرابي ؟ قال : لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون ، وهموا بالرجل ، فقال لهم النبي : كُفُّوا عنه . ثم دخل النبي بيته ، ودعا بالأعرابي فأعطاه عطاءً آخر حتى رضي ، ثم قال له النبي : أأحسنت إليك ؟ . قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ..

فقال له النبي : إنك قلتَ ما قلت وفي نفس أصحابي شيءٌ من ذلك ، فان أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديّ ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . ففعل الرجل ، وهنا قال النبي لأصحابه : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس (أي جروا وراءها) فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة : خَلُّوا بيني وبين ناقتي ، فاني أرفقُ بها وأعلم ، فتوجه لها صاحبُ الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض (أي حشيشها) فردَّها هَوْناً هونا ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلَها واستوى عليها ؛ وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

وفي تاريخ عفو الرسول موقف لا يُنسى ولا يبلى ، فذلك يوم فتح الله عليه مكة ، وانتصر على أعدائه الذين آذوه واضطهدوه وأخرجوه ، فانه قال لهم ما تظنون أني فاعل بكم ؟ . فأجابوا : خيراً ، أخٌ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ولم يكتف القرآن الكريم بتعطير سيرة العفو فيه ، ولا بطلبه من الرسول ليكون قدوة ، بل طلبه أيضاً من العباد. فقال تعالى في سورة النور : «وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » .

هذا ولقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في العفو : « ما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزا » . وتابع ابنُ عباس خطواتِ الرسول فقال : « ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله عزا » . ومن القول المنسوب إلى معاوية : « إني لأستحيي من ربي أن يكون ذنبٌ أعظمَ من عفوي، أو جهل أكبرَ من حلمي، أو عورة لا أداريها بستري » . .

إن العفو خلق من أخلاق القرآن ، فليحرص عليه أبناء القرآن ، ليستحقوا عفوَ الرحمن .

الصـــدق

الصدق في الاستعمال الشائع هو الإخبار بالحق الذي يعلمه الانسان ولا يعلم غيره ، ومادة « الصدق » في لغة العرب — وهي لغة القرآن الكريم — تدل على قوة في الشيء ، سواء أكان الشيء قولاً أم غيره ، وسُمّيَ الصدق القولي صدقاً لقوته في نفسه ، ولأن الكذب لا قوة له ، والأصل في هذا قول العرب : رمح صَدْقٌ أي صلب .

وقد عرّفوا الصدق بأنه مطابقة القول الضميرَ والشيءَ المخبرَ عنه معا ، ودون ذلك لا يكون القول صدقاً تاماً ، فلو قال المنافق : محمد رسول الله ، كان ذلك صدقاً في الحقيقة لمطابقته الواقع ، ولكنه في الوقت نفسه كذبٌ بالنسبة إلى هذا المنافق ، لأنه يخالف ما في ضميره ؛ ولذلك قال القرآن الكريم يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . فهم قد قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، وهذا صدق من جهة الواقع ، ولكنهم كاذبون ، وليس كذبُهم من جهة النطق باللسان ، بل من جهة ما تُضمره قلوبُهم الخبيثة عليهم اللعنة .

وقد ذكر الإمام الأصفهاني أن الصدق والكذب أصلهما في القول ، ماضياً كان أو مستقبلاً ، وعداً كان أو غيره ، ولا يكونان بالقصد الأول إلا في القول ، ولا يكونان في القول إلا في الخَبَرِ دون غيره من أنواع الكلام ، وقد يكونان

- عَرضاً وتبعاً لا أصالةً - في غير الخبر من أنواع الكلام ، كالاستفهام والأمر والدعاء ، مثل قول القائل : أمحمد في الدار ؟ فإن ذلك يتضمن إخباراً بأن السائل جاهل بحال محمد ، وكذلك إذا قال : ساعِدْني ؛ فإن ذلك يتضمن أنه محتاج إلى المساعدة ... وهكذا .

وقد يعبَّرُ عن كل فعل فاضل بالصدق ، سواء أكان هذا الفعل ظاهراً أم باطناً ، فيضاف إلى الصدق ذلك الفعلُ الذي يوصف به ، وعلى هذا جاء في القرآن المجيد قوله تعالى في سورة الإسراء : « وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا » . وقوله في سورة الشعراء : «واجعل لي لسان صدق[1] في الآخرين » . وقوله في سورة الأحقاف « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ». وقوله في سورة يونس : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق[2] عند ربهم » وقوله في سورة القمر : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وإذا كان الصدق هو إلزام اللسان الاخبارَ عن الأشياء بما هي عليه ، فإن « التصديق » هو تحقيق صحة هذا الاخبار وتقبُّله من سامعه ، وقد وردت مادة « التصديق » في جملة آيات منها قوله في سورة الزمر : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » . وقوله في سورة الصافات : « قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ». وقوله في سورة التحريم : «وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » . وقوله في سورة المعارج : « والذين يصدقون بيوم الدين » .

ومن مادة « الصدق » جاءت « الصداقة » والصداقة هي صدق الاعتقاد في المودة ، والصديق هو من يَصْدُق في مودته لصديقه ، فلا يرائي فيها ولا ينافق

---

(١) أي ذكرا حسنا باقيا .
(٢) قدم صدق : سابقة فضيلة .

ولا يخـادع ، وقد قالوا إن هـذا المعنى مختص بالانسان ، لا يكون في غيره من المخلوقات ، وقد وردت كلمة « الصّدِيق » في القرآن الكريم مرتين ، مرة في سورة النور عند قوله : « أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم » ، ومرة في قوله على لسان الكافرين : « فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم » .

ومن مادة « الصدق » جاءت كلمة « الصّدَقة » ، وهي ما يُخرجه الانسان من ماله على وجه التقرب إلى الله ، كالزكاة ، يتحرى به الصدقَ في فعله ،ويجعله جزءاً من البرهان على صـدقه في إيمانه واستجـابته لربه ، وقـد تكرر ذِكرُ « الصّدَقة » في القرآن مراتٍ كثيرة ، ويقال لمُخْرج الصدقة « المتصدق » أو « المُصَّدّق » بقلب التاء صاداً وإدغامها في الصاد ، ومن ذلك قول القرآن في سورة يوسف : « وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » . وقوله في سورة الحديد : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضـاعف لهم ولهم أجر كريم » .

وهكذا نرى أن العلاقة بين الصدق والتصديق والصداقة والصدقة والتصدق هـي الانتماء إلى الحق والثبوت واللزوم والقوة ، ومن هنـا قيل لمهر المرأة : « صَدَاق » لقوة ثبوته ، ولأنه حق لازم .

* * *

ولجلال مكانة « الصدق » وعلوّ شأنه ذكَرَ القرآن الكريم اتصـاف الله تبارك وتعالى بصفة الصدق في مواطن كثيرة كقوله في سورة آل عمران : «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا[1] » . وقوله في سورة الفتح : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » . وقوله في سورة النساء : « ومن أصدق من الله حديثا» وقوله أيضاً فيها : « ومن أصـدق من الله قيلا » وقوله في سورة الأحزاب :

---

(١) حنيفا : مائلا عن كل ضلال وباطل

« قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » ... إلخ .

وكذلك نجد القرآن يصف رسلَ الله تعالى عليهم أفضل الصلاة والسلام بالصدق ، فيقول في سورة يس : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » . ويقول في سورة مريم : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا » . ويقول في سورة الأحزاب :« وصدق الله ورسوله » . ومن المجمع عليه أن الرسول لا بد له من الاتصاف بصفة الصدق .

وإذا كان خُلُقُ رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام هو التطبيق العملي لآداب القرآن ، كما أخبرت السيدة عائشة رضي الله عنها ، وإذا كان الحق جل جلاله يقول عنه : « وإنك لعلى خلق عظيم » فمن الطبيعي أن يكون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوةً وأُسوة ومثلا في الصدق ، وأن يظهر خُلُقُ الصدق فيه منذ نشأته تطبيقاً لقول الله سبحانه: « الله أعلم حيث يجعل رسالته». ولذلك نعتَه قومهُ قبل بعثته بنعت « الصادق الأمين » . ولقد قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها عند بدء الرسالة : « إنك لتصدق الحديث » . وقال له قومه : « ما جربنا عليك كذبا » .

وحينما تواطأ المشركون المعاندون على أن يتهموا رسولَ الله عليه الصلاة والسلام بالسحر عارَضهم أحدُهم ، وكان شديد العداوة للرسول ، وهو النضر بن الحارث ، وقال لهم : « قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً ، فكان أرضاكم فيكم ، وكان أصدَقكم حديثا ،وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشيبَ وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، والله ما هو بساحر » .

وهكذا شهد له أعداؤه ، كما شهد له أولياؤه بالصدق ، ويا لها من شهادة ،

فالصدق من أعظم الأخلاق الكريمة ، والقرآن قد قرر أن الرسول صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم ، والقرآن ينوه بالصدق ويرفع شأنه ، فلا عجب في أن يستمسك الرسول بالصدق في كل أحواله ، حتى في مزاحه ، لأن خلقه القرآن ، كما قالت الصديقة بنت الصديق رضوان الله عليهما .

ويقرر القرآن المجيد بعد هذا أن الصدق هو صفة الأخيار من عباد الله الصالحين المصلحين ، الطائعين المستقيمين ، فيقول في سورة البقرة : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ، ويقول في سورة الزمر : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » . وقال في سورة الحجرات : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . وقال في سورة الحشر : « وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » . وقال في سورة آل عمران يمدح المؤمنين : « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » .

وإذا قال الانسان الصدقَ سُمّيَ صادقاً ، وما يزال الانسان يصدق ثم يصدق ثم يصدق حتى يصير صدّيقاً و « الصّدّيق » هو الملازم للصدق لا يتركه إلى غيره ، وقد وردت في تعريف الصّدّيق عدةُ أقوال . فقيل : هو من كثر منه الصدق ، وقيل : هو من لا يكذب أبداً ، وقيل : هو من لا يتأتى منه الكذبُ لتعوّدِه الصدق ، وقيل : هو من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله ، وإذا كان المفسرون قد قالوا إن الصديقين قوم دونَ الأنبياء في الفضيلة فذلك لا يمنع أن يتصف الأنبياء والرسل بصفة « الصّدّيقية » الملائمة لعصمتهم ومنزلتهم الزائدة عن صديقية غيرهم ممن ليسوا برسلٍ ولا أنبياء ، ولقد وصف القرآن الكريم خليلَ الرحمن وأبا الأنبياء إبراهيم بهذه الصفة ، فقال في سورة مريم : « واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا » . ووصف إدريس بمثل هذا فقال في سورة مريم أيضاً : « واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا » ، وجاء في القرآن وصفُ يوسف بالصديقية في قوله : « يوسف أيها الصديق » . وجاء وصف مريم بهذه الصفة في سورة المائدة : « وأمه صديقة » .

وجاء وصف الأخيار من عباد الله بوصف الصّدّيقية ، ففي سورة النساء :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » . وفي سورة الحديد : « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » .

وهذا كله يدلنا على ما أعطى القرآن الكريم فضيلةَ « الصدق » من منزلة ومكانة .

* * *

وقد أفاض الامام ابن تيمية في الحديث عن الصدق ومعانيه ومراميه عند الصوفية ، وذلك في كتابه الجليل « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » ، وقد جاء خلالَ حديثه أن الصدق هو : « الذي تنشأ منه جميع منازل السالكين ، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين ، وبه تميز أهلُ النفاق من أهل الإيمان ، وسكانُ الجِنان من أهل النيران ، وهو سيف الله في أرضه ، الذي ما وضع على شيء إلا قطعه ، ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرَعه ، من صال به لم تُرَدّ صولتُه ، ومن نطق به علت على الخصم كلمتُه ، فهو رُوح الأعمال ، ومحكُّ الأحوال ، والحامل على اقتحام الأهوال ، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال . وهو أساس بناء الدين ، وعمود قسطاس اليقين ، ودرجته تاليةٌ لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين ، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مَددٌ متصل ومعين » .

وقد أمر الله تبارك وتعالى أهلَ الايمان بالصدق عقبَ أمره لهم بالتقوى ، فقال في سورة التوبة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين». وكأن هذا الأمر يتطلب تحقيقَ شيئين ، أولهما أن يكون المرء صادقاً ، والآخر أن يكون في صفّ الصادقين ، يوافقهم ويلازمهم ويؤيدهم

ويدافع عنهم .

ولذلك عاد القرآن الكريم في موطن آخر فطالب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بأن يبحث ويتبين حتى يعرف الصادقين ، ليحفظ لهم كرامتهم وشأنهم ويتبين الكاذبين حتى يؤاخذهم بكذبهم ويحذرهم ، فذلك حيث يقول له في سورة التوبة : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

* * *

وما دام الصدق صفةٌ لازمة للرسول ، وكان فضيلةً تحلّى بها منذ صباه ، وضرب فيها القدوةَ المثلى لمن عداه ، فمن الطبيعي أن يدعو اليه ، وأن يحث عليه ، ولذلك جاءت في السنة النبوية المطهرة تلك الكلمات الجوامع مع التذكير بالصدق والأمر به ، فقال عليه صلوات الله وسلامه : « الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » . وقال : « عليكم بالصدق » . وقال : « تحروا الصدقَ وإن رأيتم فيه الهلكة ، فإن فيه النجاة » . وحينما سئل : أيكون المؤمن كذابا ؟. أجاب : لا . وعدّ شهادة الزور – وهي لون صارخ من الكذب – فاحشة من أكبر الكبائر .

وكذلك أخبرنا أن الصدق سبب الخير ومفتاح البركة ، فقال « ما أمْلَقَ تاجر صدوق » ، أي ما افتقر ، وقال « البيّعان – أي البائع والمشتري – بالخيار ما لم يفترقا ، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما مُحِقَتْ بركةُ بيعِهما » .

والصدق كما يكون أصلا في القول والحديث ، يكون في أفعال الجوارح إذا كانت على وجهها من الحق والاستقامة والاخلاص ، فهناك صدق في الطاعة إذا عمرها اليقينُ والاحسان ، وهناك صدق في القتال ، إذا توافر فيه خلوصُ النية لله عز وجل ، وهناك الصدق في أداء الواجب ، إذا لم يقصّر الانسان في تبعة من

تبعاته ، أو حق من حقوقه ؛ وهناك صدق الظاهر من حال الانسان بحيث يكون موافقاً باطنه، ولذلك نستطيع أن نقول إن الصدق كما يكون في الأقوال يكون في الأعمال والأحوال ، فالصدق في الأقوال هو - كما قال ابن القيم - استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها ، واستواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد ، والصدق في الأحوال هو استواء أعمال القلب والجوارح على الاخلاص، واستفراغ الوسع ، وبذلُ الطاقة ، وأعلى مراتب الصدق هي مرتبةُ الانقياد الكامل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع كمال الاخلاص كله لله تعالى الذي أرسله بدينه ودعوته .

وعلى هذا يكون الصدق صدقَ قول ، أو صدقَ نية ، أو صدقَ عزم ، أو صدقَ وفاء بالعزم ، أو صدقَ عمل ، أو صدق تحقيق لمقامات الدين كلّها ،وفي ضوء هذا نستطيع أن نفهم الصدقَ الوارد في قول الله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » . فهذا صدق في الوفاء بالعهد ، مثل ما فعل الشهيدُ أنس بن النضر رضي الله عنه ، الذي عاهد ربه على الثبات في الجهاد حتى نال الشهادة ، وفي جسمه بضع وثمانون ، ما بين طعنة وضربة ورمية ، ومثل الشهيد مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي جاهد ثابتاً صادقاً حتى نال الشهادة .

ولقد روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الايمان ، لقي العدوّ فصدَقَ الله حتى قُتل ، فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم هكذا - ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته- ورجل جيد الايمان ، إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطّلْح ، أتاه سهم غرْبٌ فقتله ، فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك في الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف على نفسه ، لقي العدوّ فصدق الله

حتى قُتل ، فذلك في الدرجة الرابعة[1] » .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيتُ في المنام كأن فلكين نزلا من السماء فقالا لي : ما الصدق ؟قلت :الوفاء بالعهد. فقالا لي: صدقت » . ثم عرجا إلىالسماء .

وأعلى درجات الصدق هي درجة الصدق في العبادة ومقامات الدين ، بأدائها والتزامها ، وذلك لأن العبادة تشمل الأقوال والأعمال والأحوال ، ولأن العبادة هي أشرف ما يؤديه الانسان في الحياة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى شرف الصدق في العبادة حين قال في سورة الحجرات : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . وحين قال في سورة البقرة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر منآمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

* * *

ومن دلائل تجلّي الصدق في غير الأقوال أن القرآن الكريم قد ذكر الصدق مضافاً إليه عدةُ أشياء ، فجاء فيه : مدخل الصدق ، ومخرج الصدق ، ومقعد الصدق ، ولسان الصدق ، وقدم الصدق . والصدق المراد في هذه الأشياء لا يكاد يبعد عن معنى الحق الثابت المتصل بالله الذي لا يضيع أجرَ من أحسن عملا . فالقرآن الكريم يقول : « وقل رب أدخلني مدخل صدق » أي اجعل دخولي في أي مكان حقاً ثابتاً لله ولمرضاته . ويقول : « وأخرجني مخرج صدق » أي اجعل خروجي حقاً ثابتاً لله ولمرضاته ، ولذلك كان بعض

(١) انظر كتابي « الفداء في الاسلام » صفحة ٦٨ . وسهم غرب : أي لا يعرف مصدره .

الصالحين إذا خرج من داره يقول : « اللهم إني أعـــوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك » .

ويقول القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » أي ثناءً ثابتاً يصدق صاحبه ولا يكذب فيه ، وإنما يستحق إبراهيم ذلك بطاعته لربه ، وإخلاصه العملَ لوجهه تَعالى .

ويقول القرآن : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » أي أن لهم أعمالاً صالحة قدّموها بإخلاص ، يتقبلها الله ويثيب عليها لأن أهلها صدقوا فيها . ويقول : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » ومقعد الصدق هنا هو الجنة التي لا ريب في وَعْدِ المؤمنين بها ، وإنما استحقوها بصدقهم في طاعتهم ، وإخلاصهم في عبادتهم .

* * *

والواقع الذي لا شك فيه أن التزامَ الصدق أمر يحتـاج إلى إرادة صلبة ، وعزيمة قوية ، وإيمان وطيد ، واحتمال كريم لتبعات الصدق ، ولذلك قال بشر ابن الحارث « من عامل الله بالصـدق استوحش من الناس » . وسئل ذو النون : هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ . فأجاب قائلا :

قد بقينا من الذنوب حَيارى   نطلب الصدقَ ، ما إليه سبيلُ
فدعاوي الهوى تخف علينـــا   وخلافُ الهوى[1] علينـــا ثقيلُ

وكأن ذا النون يشير بذلك إلى الجهد الكبير الذي يجب أن يبذله مِنْ ذات نفسه مَنْ شاء أن يكون متحلياً بفضيلة الصدق ، وإلى أن أقوم طريق يوصل إلى الصدق هو أن يخالف الانسان هوى نفسه ، وأن يوافق الحقّ والعدل ، ومن هنا قال ابن القيم : « حمْلُ الصدق كحمل الجبـــال الرواسي ، لا يُطيقه إلا أصحـاب العزائم » . وقال الجنيد : « حقيقة الصدق أن تصدق في موطـن لا

(١) خلاف الهوى : مخالفة هوى النفس .

ينجيك منه إلا الكذب » .

والمؤمنون الحقيقيون هم الذين يحرصون على هذا الصدق ، لأنهم يتذكرون ثوابَه الجليل الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة المائدة : « قال الله هـذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضـي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » . ولأنهم يتذكرون مآلَ الكـذب والـكاذبين ، فالقرآن الكريم يقـول في سورة الزمر : « ويوم القيـامة ترى الذين كذبوا على الله وجـوههم مسودة أليس في جهنم مثوى[2] للمتكبرين ؟ » .

* * *

وفضيلة الصدق يقابلها رذيلةُ النفاق أيضاً ، ولعل هذا هو الذي جعل القرآن الكريم يقسم الناسَ إلى صادق ومنافق ، فيقول في سورة الأحزاب : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » .

ولذلك جاء على ألسنة العلماء أن الإيمان والكذب لا يتفقان ، لأن الايمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب ، فلا يجتمع كَذب وإيمان إلا وأحدُهما يحارب الآخر .

وحسبُ الكذب شناعةً وفظاعة أن يَعدّ القرآنُ الكريم الكذبَ على الله تعالى من الرسول صلى الله عليه وسلم — إن حدث ومـا هو بحادث — مسوّغاً لأشدّ العقوبات ، فيقول : « ولو تقول علينا بعض الأقـاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين[1] » . والوتين:

---

(٢) مثوى : مستقر .

(١) تقول : افترى واختلق . وباليمين : بالقوة . والوتين : عرق في الجسم اذا انقطع مات صاحبه ، قيل انه من القلب ، وقيل انه يسقي الكبد . وحاجزين : مانعين للهلاك أو العذاب .

نياط القلب أو نخاع الظهر .

ولكن الدين أباح تَرْكَ الصدق أو إتيانَ الكذب في مواطن محدودة معدودة ، فأباح ذلك في الحرب ، لأن الحرب خدعة ، كما قال الحديث الشريف، وفي الاصلاح بين المتخاصمين ، فقد قال الرسول : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين ، فقال خيرا أو أَنمَى خيرا » . وفي إرضاء الزوج لزوجته ، فقد جاء في الحديث : « لا يحل الكذب إلا في ثلاث : يحدّث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب في الحرب ، وفي الاصلاح بين الناس » .

قال بعض العلماء : وإنما جاز الكذبُ في هذه الأمور لأن الجيش حصن الأمة ، ولأن الشقاق رأسُ كل مصيبة ، ولأن النزاع بين الزوجين يعرّض الأسرة للضياع وهي أساس المجتمع .

هذا ، ولقد تكاثرت كلماتُ السلف في تصوير الصدق ووصفه ، فقيل : هو موافقة السر بالنطق . وقيل : هو استواء السر والعلانية ، وقيل : الصدقُ القولُ بالحق في مواطن التهلكة ، وقيل الصدق كلمةُ الحق عند مَنْ تخافه وترجوه. وقيل : الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحي من سرّه لو كُشف.

ورضي الله عن أبي سليمان الداراني حين قال : اجعل الصدق مطيتَك ، والحقّ سيفك ، والله تعالى غاية طلبتك .

الايثـــار

كلمة « الإيثار » مأخوذة من مادة « الأثَـر » ، وفيها معنى تقديم الشيء ، تقول : آثر فلان فلاناً أي اختاره وقدّمه ، وتقول : آثرت أن أقول الحق ، أي فضّلت أن أقوله ، وقدمته على غيره ، والشخص الأثير لدَيْك هو الذي تؤْثره بفضلك وتخصه بصلتك ، وقد تُستعار كلمة « الأثر » للفضل ، كما تستعار كلمة « الإيثار » للتفضل والتفضيل ، ومن ذلك قول القرآن الكريم عن يوسف عليه السلام : « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

والمآثر : ما يُرْوَى عن مكارم الإنسان . وضد الإيثار هو الأثَـرَة ، وهي استئثار الإنسان عن أخيه بما هو محتاج إليه ، وقيل هي استئثار صاحب الشيء به على غيره .

وقد أشار القرآن الكريم إلى خُلُق « الإيثار » حين قال في سورة الحشر : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون مَنْ هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خَصاصة [1] ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .. والمراد بالذين تبوأوا الدار هنا هم الأنصار ، والمراد بالدار « المدينة » ، أي أن الأنصار استوطنوا « المدينة » قبل المهاجرين ، واستقروا فيها وتمكنوا منها ، وأخلصوا الإيمان ولزموه فلم يفارقوه ، وهم يحبون إخوتهم

---

(١) خصاصة : فقر .

المهاجرين إليهم ، ولا يحسون في صدورهم أي غضاضة أو ألم مما هيأه الله تعالى للمهاجرين من فَيْء أو خير ، بل إن الأنصار يفضّلون المهاجرين على أنفسهم في الاستمتاع بالخير ، ولو كان الأنصار محتاجين إليه ، وكل مَنْ حفظه الله من البخل ، وصانه من الشح ، فقد أفلح وفاز .

ولقد نزل المهاجرون بعد الهجرة في دور الأنصار على الرحب والسعة ، وفي ظلال الحب والكرم والمواساة ، فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير دعا الأنصارَ وشكرهم على ما صنعوا مع إخوتهم المهاجرين ، من إنزالهم إياهم في منازلهم ، وإشراكهم في أموالهم ، ثم قال لهم : « إن شئتم قسمتُ للمهاجرين من دياركم وأموالكم ، وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئاً». فقال الأنصار بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ، ونؤثرهم بالغنيمة » فنزلت الآية .

ورُوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحببتم قسمتُ ما أفاء[2] الله [1] عليّ من بني النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهُم ، وخرجوا من دياركم » . فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل تقسمه بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار قائلة : رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » . وأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصارَ شيئاً ، إلا اثنين أو ثلاثة كان بهم فقر وحاجة . ونزلت الآية .

والإيثار فضيلة قرآنية أخلاقية نبيلة ، لا يتحلى بها إلا أصحابُ القلوب الكبيرة والهمم العالية والعزائم الثابتة ، لأن الإيثار يحتاج في تحقيقه إلى صبر واحتمال وبذل وكرم ، ولذلك قال القرطبي : « إن الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية ، رغبةً في الحظوظ الدينية ، وذلك ينشأ عن قوة

---

(١) ما أعطاه للرسول بلا قتال .

(٢) ~~ما أعطاه للرسول بلا قتال~~ .

اليقين ، وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة » .

والإيثار أسمَى مراتب البذل ، ولذلك قال حجة الإسلام الغزالي إن أرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن يجود الإنسان بالمال مع الحاجة إليه ، ولا يمكن لبخيل أو شحيح أن يعرف الطريقَ إلى الإيثار ، لأن المؤْثِر على نفسه يترك ما هو محتاج إليه ، والشحيح حريص على ما ليس بيده ، فإذا صار في يده ازداد حرصاً عليه ، وبخل به ، فالبخلُ ثمرة الشح ، والشح يأمر بالبخل ، فمن أين يأتي الإيثار إذن ؟ . وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « إياكم والشحَّ فإن الشح أهلك مَنْ كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

وقد يبلغ الإيثار بصاحبه أن يعطي كلَّ ما لديه ، ويبقى بلا شيء ، وهنا يقول العلماء : إنما يباح الإيثار بالكل لمن كان يُوثَق منه بالصبر الجميل على الفقر ، وأما من يخاف عدم الصبر ، ويخاف التعرضَ إلى السؤال إذا بذل ما عنده يكون مكروهاً بالنسبة إليه ، ويؤيد هذا ما رواه أهل التفسير من أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب ، وقال : هذه صدقة ، ويبدو أنه لم يكن يملك غيرها ، فأبَى النبي أخذَها منه ، وقال : « يأتي أحدُكم بجميع ما يملكه فيتصدق به ، ثم يقعد يتكفف الناس [1] » .

والإيثار كما يكون في بذل المال يكون في إيثار الطاعة لله على الاستجابة للشهوة ، وهذا يحتاج إلى مقاومة ومغالبة ، وقد جاء في الحديث : « أيما امرىء اشتهى شهوةً ، فرد شهوته ، وآثر على نفسه ، غفر له » .

وكذلك إيثار الآخرة على الدنيا ، والآجلة على العاجلة ، والقرآن الكريم يشير إلى مثل هذا الإيثار في مواطن ، فتراه يقول في سورة الأحزاب : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن

---

(١) يتكفف الناس : يسألهم المعونة والمساعدة .

وأسرحكن[1] سراحـــاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » . ويقول في سورة طه عن السحرة الذين ظهرت لهم دلائلُ الإيمان ، فآثروا اتباعَ طريق ربِّهم على طريق فرعون « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا، فاقضِ ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » .

وقد حذر القرآن الكريم عبادَ الرحمن وخوَّفهم إيثارَ الدنيـا على الآخرة فقال في سورة النازعات : « فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هي المأوى » . وقال في سورة الأعلى : « بل تؤثرون الحيـاة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى » . ورَوَى الترمذي أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قـــال : من أحبَّ دنيـاه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » .

ولذلك عدَّ البصراءُ من العلمـاء أسمى درجات الإيثار أن يؤثر الإنسان رضَى ربِّه على رضى مَنْ عداه ، فيفعل المرء ما فيه مرضاة خالقه ، حتى ولو غضب المخلوق، وهذه الدرجة من درجات الإيثار هي درجة الأنبياء والمرسلين، وإمامُهم فيها هو خاتمُهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ومن هنا قال الإمام ابن القيم : « إيثارُ رضا الله عز وجل على غيره هو أن يريده ويفعل مـا فيه مرضاته ، ولو أغضبَ الخلْق وهي درجة الأنبياء ، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، وأعلاها لأولي العزم منهم ، وأعلاها لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، فانه قاوم العالمَ كلَّه ، وتجرد للدعوة إلى الله ، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى ، وآثر رضا الله على رضا الخَلْق من كل وجه . ولم يأخذه في إيثار رضاه لومةُ لائم ، بل كان همُّه وعزمه وسعيه كله مقصوراً

---

(٢) أسرحكن : كناية عن تطليقهن .

على إيثار مرضاة الله ، وتبليغ رسالاته وإعلاء كلماته ، وجهاد أعدائه ، حتى ظهر دينُ الله على كل دين ، وقامت حجته على العالمين ، وتمت نعمته على المؤمنين ، فبلّغ الرسالةَ وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حقّ جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين [1] من ربه ، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال ، صلوات الله وسلامه عليه » .

* * *

ومن أكرم ألوان الإيثار ، إيثارُ التضحية بالنفس على استبقائها ، وبذلها بلا خوف دفاعاً عن عقيدة أو حرمة أو وطن ، وقد أشاد مسلم بن الوليد بمثل هذا الإيثار حين قال :

يجود بالنفس إنْ ضَنّ البخيل بها والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

وإذا كان الإسلام قد حث على « الإيثار » لأنه فضيلة ومكرمة فقد نفر من الأثرة والاستئثار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستكون بعدي أثَرة » أي يستأثر بعضكم على بعض ، والاستئثار هو تفرد الإنسان بالشيء دون غيره ، وكذلك قال للأنصار رضي الله عنهم : « إنكم ستلقون بعدي أثَرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » . أي يُستأثر عليكم فيُفَضَّل غيركم عليكم .

وهناك إيثار مذموم ، وهو أن يقدم إنسان شخصاً لأمرٍ وهناك مَنْ هو أصلح منه لذلك الأمر ، وقد رُوي عن يزيد بن أبي سفيان قال : قال أبو بكر رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام : يا يزيد ، إن لك قرابةً عسيت أن تُؤْثرهم بالإمارة ، وذلك أكبر ما أخاف عليك ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من وَلِيَ من أمور المسلمين شيئاً فأمَّرَ عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة

---

(١) اليقين : الموت .

الله ، ولا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » . والصرف التوبة ، والعدل الفدية .

* * *

ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في الإيثار ، ولذلك رَوَى الغزالي أن سهل بن عبد الله التستري قال : قال موسى عليه السلام لربه : يا رب، أرني بعضَ درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته. فقال : يا موسى، إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلةً من منازله جليلة عظيمة ، فضّلْتُه بها عليك وعلى جميع خَلْقي . فكشف له عن ملكوت السموات ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسَه من أنوارها وقُرْبها من الله تعالى ، فقال : يا رب ، بماذا بلغتَ به إلى هذه الكرامة . قال : بخُلُق اختصصته به من بينهم ، وهو الإيثار ، يا موسى، لا يأتيني أحدٌ منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته ، وبوأته من جنتي حيث يشاء .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما شبع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ولكننا كنا نُؤْثر على أنفسنا .

ومن حول الرسول كان الصحابة الذين ضربوا روائعَ الأمثلة في الإيثار ، فهذا مثلاً عمر بن الخطاب يروي لنا أن رجلاً أهدى إلى أحد الصحابة رأس شاة ، فقال المُهْدَى إليه : إن أخي فلاناً أحوج إليه مني ، فبعث به إليه ، فقال الثاني : إن أخي فلاناً أحوج إليه مني ، فبعث به إليه ، وظل رأس الشاة يتنقل بين سبعة بيوت ، ورجع إلى الأول .

وكان قيس بن سعد بن عبادة مريضاً، فتخلف عن عيادته جَمْعٌ من معارفه، فسأل عنهم ، فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين . فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة . ثم أمر منادياً ينادي : مَنْ كان لقيس عليه مالٌ فهو منه في حِلٍ .

وأخذ عمر بن الخطاب صرة فيها أربعمائة دينار ، وقال لغلامه : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ثم تلكأ ساعة في البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها ، فذهب الغلام وقال لأبي عبيدة : يقول لك أمير المؤمنين ، اجعل هذه في بعض حاجتك . فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالَيْ يا جارية ، اذهبي بهذه السبعة إلى فـــلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى نفدت ، وعاد الغلام وأخبر عمر فأعطاه مثلَها لمعاذ بن جبل ، وأمره بمعرفة ما يصنع فيها ، ففعل معاذ ما فعله أبو عبيدة ، لكن امرأته قالت : ونحن واللهِ مساكين فأعطنا ، ولم يبق في الصرة إلا ديناران فأعطاهما لها . ولما عرف عمر ذلـــك سُرّ سروراً كبيراً ، وقال : إنهم إخوة بعضُهم من بعض .

ولقد جاء الرسولَ ضيف لم يجد له ما يطعمه ، فقال لأصحابه : مَنْ يُضيف هذا الليلة ؟ . فقال رجل من الأنصار اسمه أبو طلحة [1] — أو أبو المتوكل — : أنا يا رسول الله . وذهب بـه إلى بيته ، وليس فيــه إلا قوت أطفاله ، فقال لزوجته : علّلي الأطفال بشيء ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي المصباحَ وأريه أنّا نأكل معه . وقعدوا وأكلَ الضيف وهما معه لا يأكلان ، فلما أصبح الصباح قال النبي للأنصاري : « قد عجب اللهُ عز وجل من صنيعكما بضيفكما » .

ولقد آثر الصحابةُ رسولَ الله بنفوسهم ، وهــذا أبو طلحة يحمي النبيّ بنفسه في غزوة أُحد ، فإذا تطلع الرسول ليرى القوم قال له أبو طلحة حريصاً على حياته : لا تُشرف يا رسول الله ، لا يصيبونك ، نَحْري دون نحرك .

وهذه عائشة رضي الله عنها سألها مسكين شيئاً وهي صـــائمة ، وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لخادمتها : أعطيه إياه . فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت : أعطيه إياه ، ففعلت ، وفي المساء أُهْدِي إليهم شاةٌ بكفنها . فقالت عائشة للفتاة : كُلِي من هــذا ، فهذا خير من قُرْصك . (وكان من عادة العرب أن يذبحوا الشاة ويسلخوها ويغطوها بعجين من القمح ، ثم يضعوها

(١) اقرأ قصة بطولته في كتابي « فدائيون في تاريخ الإسلام » ، ص ١١٦ .

في التنور ، فيشرب العجين دسم الشاة ، وذلك العجين يسمونه كفن الشاة) .

ومن إيثار عائشة أنه لما طُعن عمر بن الخطاب قال لابنه عبد الله : يا عبد الله بن عمر ، اذهب إلى أم المؤمنين عائشة فقل لها : يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام . ثم سلها أن أُدفنَ مع صاحبيَّ (يقصد النبيَّ وأبا بكر) . فقالت : كنتُ أريده لنفسي ، فلأوثرنه على نفسي ، فلما عاد عبد الله قال له أبوه : ما لديك ؟ . فأجاب : أذنتْ لك يا أمير المؤمنين .

وفي غزوة اليرموك انطلق حذيفة العدوي بشربة ماء يبحث بها عن ابن عم له ليسقيه ، وهو يقول : إن كان به رمقٌ سَقَيْتُهُ . فوجده جريحاً بين الحياة والموت ، فقال له : أسقيك ؟ . فأشار له برأسه أن نعم ، ثم رأى رجلاً بجواره يردّد : آه آه . فأشار إلى ابن عمه ليذهب بالشربة إلى ذلك الرجل ، وكان هشام بن العاص ، فلما هَمَّ هشام أن يشرب سمع ثالثاً يردد : آه آه . فأمر الساقي بأن يذهب إليه بالماء ، فلما بلغه الساقي وجده قد مات ، فعاد إلى هشام فوجده قد مات ، فعاد إلى ابن عمه فوجده قد مات .

وما أكثر الأمثلة الرائعة للإيثار في تاريخ السلف من أبناء الإسلام ، مما يُعَدُّ في نظر العامة من الناس كالرُّؤى أو الأحلام .

* * *

هذا ولقد اشترط بعضُ الصوفية في إيثارك الخلْقَ على نفسك ألا يُفْسد عليك ذلك دينَك ، أو يقطع طريقَ عبادتك وتقرُّبك من الله ، ويقول ابن خبيق الأنطاكي : « إن استطعت ألا يسبقك أحد إلى مولاك فافعل ، ولا تؤثر على مولاك شيئاً » . ولذلك كرهوا أن يُؤْثر الإنسان غيرَه بالجلوس في الصف الأول في الجماعات والجُمَع وما أشبه ذلك ، لأن الإيثار يكون في أمور الدنيا لا في الطاعات والقربات ، ولكن أبا حفص النيسابوري يقول : « الإيثار أن تقدم حظوظ الإخوان على حظك في أمر آخرتك ودنياك » . وقد يكون

من المواطن الصالحة لإيثار الضعيف بموطن الطاعة مواقف استلام الحجر الأسود، والصلاة عند مقام إبراهيم ، والأخذ من ماء زمزم ، فإن الملاحظ أن الزحام يشتد في مواسم الحج عند هذه المواطن ، فيستأثر القوي ويتمكن من الاستلام والصلاة والشرب ، على حين لا يتمكن ضعفاء أو نساء أو شيوخ عجزة من ذلك ، فقد يكون الأجمل بالمؤمن القوي أن تبدو منه فضيلة الإيثار في مثل هذه المواقف .

ألا إن الإيثار فضيلة سامية ، ومحمدة عالية ، يتحلى بها الأخيار الأبرار من الناس ، فإن استطعت السبيل إليها فلا تتقاعس ، وإن لم تستطع أن تكون من أهل الإيثار فلا أقل من أن تحارب في نفسك رذيلة الأثرة ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الرضـــى

الرضى خلاف السخط ، ويراد بالرضى في عُرْف العلماء والفقهاء تَقَبُّلُ ما يقضي به الله عز وجل من غير تردد ولا معارضة ، وهذه الصفة هي – كما يقول ابن القيم – باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العارفين ، وحياة المحبين، ونعيم العابدين ، وقُرة عيونِ المشتاقين .

وقد وردت مادة (الرضى) في آيات من كتاب الله جل جلاله ، فقال في سورة المائدة : « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » . وقال في سورة التوبة : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » . وقال في سورة المجادلة : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » . وقال في سورة البينة : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه » .

ونلاحظ أن كل آية من الآيات السابقة قد جاء فيها قوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » وذلك بشأن أصحاب الجنة ، وهم المؤمنون الصادقون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ومن المؤمنين بالله واليوم الآخر الذين كتب الله في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه . وإنما رضي الله تبارك وتعالى عنهم لأنهم تقيدوا بأحكامه ، وأطاعوا أمره ، فتفضل عليهم بإحسانه وبرّه ورضوا عنه ، أي حمدوا فضله وصنعه وإحسانه ، فهم يستريحون حين ينفذون أحكامه ويمتثلون أوامره ، فإذا كانوا يوم القيامة رضوا كلّ الرضى بما يرون من نعيم الله وإكرامه ، فشأنهم الرضى عن الله جل جلاله في الدنيا والآخرة ، يرضون في الدنيا بكل ما قدّر وأمر ، ويرضون في الآخرة بما أعطى . ولذلك قال الأصفهاني : « رضى العبدِ عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه ، ورضَى اللهِ عن العبد أن يراه مؤتمرا لأمره ، منهياً عن نهيه » .

ولا شك أن رضى الله عن الانسان هو غايةُ الغايات وأقصى الأماني ، ولذلك جاء في الحديث : « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول « أنا الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا محل إكرامي فماذا تريدون؟ — وفي رواية فسلوني — فيقولون : رضاك » . وفي حديث آخر أنه تبارك وتعالى يرضى عنهم ، فيكون رضاه أعظمَ هدية لهم ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « ورضوان من الله أكبر » .

ورضوان الله يستحقه العبدُ برضاه عن كل ما قدّر الله وما أمر ، ولذلك جاء في التنزيل المجيد : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » . وجاء في سورة الأحزاب : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » . ومعنى هذا أن الايمان الذي هو سببٌ لرضى الله لا يتحقق إلا برضى العبد بكل ما

يحبه من الله تعــالى ، وفي الحديث : « ذاق طعمَ الايمان مَنْ رضي بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » ، وفي رواية « من قال حــين يسمع النداء — نداء الأذان — رضيتُ بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمـد رسولا ، غَفَرتُ له ذنوبه » . وفي رواية أخرى : « من قال كلّ يوم : رضيتُ باللهربا ،وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، كان حقا على الله أن يُرْضيه يوم القيامة ».

والرضا بالله رَبّا يتضمن الطاعةَ له ، والخضوع لأمره ، والاتجــاه اليه ، والاعتــماد عليه ، والرضى بالاسلام دينا يتضمن الخضــوع لأوامــره والالتزام لأحــكامه ، والرضى بسيدنا محمد رسولا يتضمن الاهتــداءَ بهديه والاتباع لسنّته .

* * *

ولقد جــاءت في القرآن الكــريم آيات تشير إلى أن رضــى العبد إذا كان موصولَ الأسباب بحِمَى الله تعالى كان رضىً كريما محمودا ، فجــاء في سورة طه : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » . وجاء في سورة البقرة : « قد نرى تقلب وجهك[1] في السماء فلنولينك قبلة ترضــاها » وجاء في سورة الليل : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » .

والخطاب في هــذه الآيات موجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهــو خير مَنْ حقـّق في نفسه خُلُقَ الرضى ، وخــير من أنعم عليه ربُّه برضاه ورضوانه . ولا عجب فقد كان من الدعاء المألوف لرسول الله أن يقول :« اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

---

(١) كثرة تطلعك الى السماء راجياً ربك .

وكذلك جاءت في القرآن آيات كريمات تشير إلى أن تحقُّقَ الرضى عند الانسان إنما هو نعمة من الله ، وهبة من فضله يمن بها على الأخيار من عباده في الدنيا والآخرة . قال تعالى في سورة مريم على لسان زكريا بشأن ولده : « يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » . أي مرضيا عنه ، وإنما يكون مرضياً عنه عند الله إذا كان قد رَضِيَ بكلٍّ ما أمر به الله .. وجاء في سورة الحاقة عن المؤمن الفائز : « فهو في عيشة راضية » . وجاء في سورة الغاشية : « وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية » . وجاء في سورة القارعة : « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية » . وجاء في سورة الفجر : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

ويشير القرآن الكريم في أكثر من موطن إلى أن الرضى المحمود الجميل الطيب الاثر والثمر هو الرضى بما يأتي به اللهُ تعالى عز وجل ، والرضى بما يأمر به الله عز وجل ، والرضى بما عند الله عز وجل ، وأما ارتضاء غير هذا مما يخالف أمر الله وحكمه ، فهو رضىً مذمومٌ ومشؤوم ، ولذلك جاء في سورة التوبة على سبيل التعريض والمؤاخذة: « ياأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » . وجاء فيها أيضاً : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين[1] » . وجاء فيها كذلك : « إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف[2] وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » . ويوجه الله المنحرفين إلى

---

(١) الخالفين : المتخلفين عن الجهاد .

(٢) الخوالف : النساء اللواتي يتخلفن عن الجهاد .

طريق الرضى السليم فيقول: «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون» .

ولا عجب في ذلك فالرضى بالله هو الغنى ، ولذلك سئل أبو حازم الصوفي المدني : ما مَالُكَ ؟ فقال مالي الرضى عن الله والغنى عن الناس . ولقد نظر أحدُ الشعراء الى هذا المعنى حين قال :

للناس مال ، ولي مالان ، مالهما إذا تحارَس أهلُ المال أحراسُ
مالي الرضى بالذي أصبحتُ أملكه وماليَ اليأس مما يملك الناس

* * *

ولقد أكثر السلفُ وبخاصة الصوفية القولَ في تعريف الرضى ، فقال عنه ابن عطاء : الرضى سكونُ القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى به . وقال الجنيد : الرضى هو صحة العلم الواصل الى القلب ، فإذا باشر القلبُ حقيقة العلم أداه إلى الرضى . وقيل : إن الرضى هو نهاية التوكل . وقيل : الرضى ارتفاعُ الجزع في أي حال كان. وقيل : الرضى استقبال الأحكام بالفرح . وقيل : الرضى سكون القلب تحت مجاري الأحكام .

والرضى بالله يستلزم أن يكون الله عز وجل أحبّ شيء إلى العبد ، وأن تسبق محبته الى القلب كلَّ محبة ، وأن تقهر محبته كل محبة ، وأن تكون محبةُ غيره تابعةً لمحبته ، فيكون هو المحبوب بالأصل والذات ، وغيرُه محبوباً تبعاً لحبِّه كما يطاع تبعاً لطاعته ، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب .

ولكي يرضى الانسان بالله لا بد له من أن يعرف الله ، ولذلك قال الفضيل : « أحق الناس بالرضى عن الله أهلُ المعرفة بالله عز وجل » . وقال أحمد بن أبي الحواري : « مَنْ عرف الله آثر رضاه » .وهذا هو الإمام عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه « صيد الخاطر » يحدثنا عن أن الرضى بالله ثمرةٌ من ثمرات المعرفة فيقول : « إن الرضى من جملة ثمرات المعرفة ، فإذا عرفتَه رضيتَ بقضائه » ،

وقد يجري في ضمن القضاء مرارات يجد بعضَ طعمها الراضي ، أمـــا العارف فتقل عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة ، فلما ترقّى بالمعرفة إلى المحبة صارت مرارةُ الأقدار حلاوة .

وكذلك يكون الرضى ثمرةً من ثمرات المحبة لله عز وجل ، ومَنْ عرف الله أحبـــه ، ومحبة العبد لله حباً حقيقياً صادقاً من أعلى مقامـات المقرَّبين اليه ، وحجة الاسلام الإمام الغزالي يفسِّر ذلك بقوله : « الحب يورث الرضى بأفعال الحبيب ، ويكـون ذلك من وجهين ، أحدهمـا أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يُحس ، وتصيبه جراحةٌ وهو لا يدرك ألمَهَا ، ومثـــاله الرجل المحارب ، فإنه في حال غضبه – أو في حال خوفه – قد تصيبه جراحةٌ وهو لا يحس بها ، حتى إذا رأى الدمَ استدل به على الجراحة .

بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمـه ، ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه ، بل الذي يحتجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم، فإن كان مشغولَ القلب بمهم من مهماته ، فرغ المزيِّن والحجّام وهـو لا يشعر ، وكلُّ ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور ، مستوفىً به لم يدرك مـا عداه ، فكذلك العاشق المستغرق الهمِّ بمشاهدة معشوقه أو بحبه ، قد يصيبه مـــا كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمّه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصـابه من حبيبه ، وشُغـلُ القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل .

وإذا تُصُوِّر هذا في ألم يسيرٍ بسببِ حبٍ خفيف تُصُوِّر في الألم العظيم بالحب العظيم ، فإن الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حبُّ الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر ، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدرَكة بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمـــال ولا جلال ، فمن ينكشف له شـيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، فلا يحس بما يجري عليه » .

ثم يقول : وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمَه ، ولكن يكون راضيا ، بل راغباً فيه مريداً له ، أعني بعقله ، وإن كان كارها بطبعه ، كالذي يلتمس من الفصاد والفصد والحجامة ، فإنه يدرك ألمَ ذلك ، إلا أنه راضٍ به وراغب فيه ، ومتقلد من الفصادية مِنـَّةً بفعله ، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم « وكذلك كل مـن يسافر في طلـب الربح يدرك مشقة السفر ، ولكن حبّه لثمرة سفره طيّب عنده مشقةَ السفر وجعله راضياً بها ، ومهما أصابته بلية من الله ، وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته ورضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه » .

التواضع

كلمة « التواضع » مأخوذة من مادة « وضع » ، وهي تدل على خَفْض الشيء ، والتواضع في عُرف علماءِ الأخلاق هو لين الجانب ، والبعد عن الاغترار بالنفس ، فكأن المتواضع قد كلَّف نفسه أن يضعها دونَ منزلتها التي تستحقها ، وأن يهضمها حقَّها ، ويجنبها الاغترارَ بذاتها ، ولذلك قالوا إن التواضع هو اللين مع الخَلْق ، والخضوع للحقّ ، وخفض الجناح ؛ وقال مظفر القرميسيني الصوفي : « التواضع قبول الحق ممن كان ، وذلك بالخضوع له ، والانقياد إليه ، ولو كان من صغير أو جاهل » .

ولم ترد كلمة « التواضع » بلفظها في القرآن الكريم ، ولكن وردت كلماتٌ تشير إليها وتدل عليها ، مما يجيز أن نعد « التواضع » خُلقاً من أخلاق القرآن . فالله تبارك وتعالى يقول في سورة الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ». أي يمشون على الأرض هيِّنين ، أو يمشون مشياً هيناً ، لأن الهَوْن – بفتح فسكون – هو الرفق والسهولة ، والحديث يقول : أحبب حبيبَك هوناً ما [1] » . ويقول : « المؤمنون هيِّنون ليِّنون » . ويقال : هان الأمر على فلان ، أي سهل ، وفي القرآن الكريم : « هو علي هيِّن » . وفيه : « وهو أهون عليه » .

فقوله تعالى عن الأخيار من عباده : « يمشون على الأرض هَوْناً » أي يمشون

(١) هوناً ما : بدون إسراف أو مبالغة .

متواضعين بسكينة ولين ووقار ، وإذا كان الهَوْن – بفتح فسكون – هو اللين والرفق ، فإن الهُونَ – بضم الهاء – هو الهوان أو الذل ، وهذا من صفة غير المؤمنين ، والعلماء يذكرون أن الهوان على وجهين : الأول تذللُ الإنسان في نفسه باختياره فيما لا يعيبه ، وهذا من شأن المؤمنين ، والآخر أن يكون من جهةِ متسلّطٍ مستخفٍّ به ، وهذا من شأن الحقراء ، كما في قوله تعالى : « فاليومَ تجزون عذاب الهُون » .

ومن الآيات التي تشير إلى خلق التواضع قول الله تعالى في سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

والمراد بالذلة في الآية الكريمة الرحمةُ والشفقة واللين ، وليس المراد بها الهوان ، فالمؤمن كما قيل ذَلُول ، أي عَطوف على مستحق العطف ، وغير المؤمن ذليل ، أي صاحب هوان ، وفي الحديث : « المؤمن كالجمل الذَّلُول ، والمنافق والفاسق ذليل » .

والعزة على الكافرين يراد بها القُوة والغلبة ، ولذلك قال عطاء عن وصف المؤمنين في هذه الآية : « إنهم للمؤمنين كالوالد لولده ، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته » . والمقصود هنا طبعاً هم الكافرون المعتدون ، لا مجرد الذين خالفوا في الدين دونَ عدوان .

وكذلك جاء قوله تعالى في سورة الفتح : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . والمعنى قريب من معنى الآية السابقة ، وذَكَر القرآنُ الكريم بعضَ مظاهر التواضع ، فقال في سورة الإسراء : « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » . وقال في سورة لقمان : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . والمرح هو : الاختيال والبطر . وتصعير الخد

هو إمالته تعاظماً وتكبراً. والمختال هو المتباهي، والقصد في المشي هو الاعتدال فيه . والغض من الصوت هو نقصه وخفضه .

* * *

والتواضع ضده التكبر ، سواء أكان التكبر بالعلم، أم بالعبادة، أم بالنسب، أم بالجمال ، أم بالمال ، أم بالقوة ، أم بالشهرة ، أم بكثرة الأتباع ، أم بغير ذلك ؛ وإذا كان القرآن الكريم قد حمد التواضعَ ، ووعد بالخير أهلَه ، فإنه قد حمل حملةً صارمة على التكبر وأهله ، فقال في سورة الأعراف : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيلَ الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيلَ الغيِّ يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . وقال : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . وقال : « أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » وقال : « فلبئس مثوى المتكبرين » .

وكذلك حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على التكبر وأهلِه حملةً زاجرة مؤدِّبة ، فقال : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتَب في ديوان الجبّارين » . أي في قوائمهم وسجلهم ، والمراد أنه يكون منهم ويُحشَر معهم ، ويصيبه من العذاب الأليم ما يصيبهم . ويقول : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر » . وهذا على سبيل التهديد والوعيد ، ويقول «يقول الله عز وجل : العزة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني منهما شيئاً عذّبتُه [1] » . ولا يتحقق التواضع في نفس الإنسان إلا إذا أزهق دوافعَ الزهو والخيلاء والكبرياء في نفسه ، ولذلك قال أحمد بن عاطف الأنطاكي : « أنفعُ التواضع ما نَفَى عنك الكبر ، وأمات منك الغضب » وكأن المرادَ

(١) انظر كتابي « أدب الأحاديث القدسية » ، صفحة ٩١ .

بالغضب هنا الغضبُ لنفس الإنسان ظناً منه أو توهماً أنها تستحق أكثرَ مما تنال ، فيدعوه ذلك إلى الغرور والفجور .

وليس معنى هذا أن التواضع يفتح أمام الإنسان بابَ المذلة والهوان ، بل على العكس من ذلك يؤدي به التواضعُ إلى العز الحقيقي المحمودِ عند الله جل جلاله ، وعند العقلاء البصراءِ من الناس ، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري: « العز في التواضع ، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء في النار » . ولو تكبر الإنسان وتباهى ، ولو بطاعته وعبادته ، لما ذاق الطعمَ السليم للتواضع ، وهذا زياد النمري يقول : « الزاهد بغير تواضعٍ كالشجرة التي لا تثمر » . والكبر لا يقتصر على التطاول في المشية ، أو التبجح في الصوت ، بل الكبر الأخطر من ذلك هو – كما قال الحديث – بَطَر الحق وغَمْط الناس ، وبطر الحق هو رفضه وجحوده ، وغمط الناس هو احتقارهم والإستخفاف بهم .

والتواضع أقسامٌ وألوان ، وأساسُه التواضع أمام دين الله عز وجل ، بأن يتقبله الإنسان ويخضع له ، ولا يجادل فيه ، ولا يعترض عليه برأيه أو هواه ؛ ثم يلي ذلك التواضعُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا قول للانسان أمام هديه ، ولا هوى يخالف سنته ، بل تسليم ومتابعة واقتداء ، في أدب وحب واهتداء ؛ ثم يلي ذلك التواضعُ مع الخَلْق بأن يحفظ الإنسان حقَّ غيره ، حتى ولو كان عدواً أو مخالفاً في الدين ، وأن يقبل عذرَ المعتذر ، وأن يفيء إلى الحق مهما كانت الجهة التي جاءه منها ذلك الحق؛ ثم يلي ذلك تواضعُ الإنسان فيما بينه وبين نفسه ، فلا يرى في نفسه لنفسه ما يفتح عليها أبوابَ الاغترار والتكبر ، بل يردعها ويقمعها ، فلا تختال ولا تميل .

* * *

والتواضع خُلُق يرتفع في ميزان القرآن الكريم حتى يجعله حليةً للأنبياء والمرسلين ، عليهم صلواتُ الله وسلامه أجمعين ، وحينما وصف القرآن سيدنا

رسولَ الله بالرأفة والرحمة والحرص على خير الناس ، أراد أن يُشعرنا بأنه المثل الأعلى في التواضع . وهــا هو ذا رب العزة يخاطب نبيّ الرحمة في سورة آل عمران بقوله : «فبما رحمةٍ من الله لنتَ لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولـك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» . ويقــول له في سورة الشعراء : « واخفض جناحك [1] لمن اتبعك من المؤمنين » .

ولقد أقام الرسول بعمله وقوله وتصرفاته في حياته الدلائلَ بعد الدلائل على أنه كان المثلَ الأعلى للتواضع ، فهـذا النبي العظيم الذي وصفه القرآن الكريم بأنه رؤوف رحيم ، وبأنه الشاهـد والمبشّر والنذير ، والداعي إلى الله بأمره والسراجُ المنير ، وبأنــه رحمة الله للعالمين ، هذا النبي الخاتم الجامع كان يجيب دعوةَ العَبْد ، ويُصْغِي للأمة فلا ينصرف عنها حتى تنصرف ، ولا يتميز على أصحابه ، بل يشاركهم العملَ ما قلّ أو كثر ، وإذا دخل بيته كان في خدمة أهله ، فهو يحلب الشاة ، ويرقع الثوب ، ويخصف النعـل ، ويُميل الإناءَ للهرة لتشرب ، ويعلف الدابة ، ويعقل البعير ، ويطحن بالرحى ، ويشتري الشيءَ من السوق ويحمله ، ويأكل مع الخــادم ، ويجالس المساكين ، ويعنى بالأرملة واليتيم والفقير ... الخ .

ويُعْنى النبي صلوات الله وسلامه عليه بالدعوة إلى التواضع والحث عليــه ، فيقول : « إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ، ولا يبغي أحدٌ على أحد » . ويقول : « طوبَى لمن تواضع في غير مسكنة ، وأنفق مالاً جَمَعَه في غير معصية ، ورحم أهلَ الذل والمسكنة ، وخالطَ أهلَ الفقه والحكمة » . ويقول : « الشرف التواضع » . ويقول : « مــا زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً ، وما تواضع أحــد إلا رفعه » . ويقول : « أُخبركم بمن تَحْرم

(١) واخفض جناحك : كن رحيماً بهم عطوفاً عليهم .

النارُ عليه ؟ تحرم على كل قريب هيِّن ليِّن سهل » ، وهذه الصفات التي ذكرها هذا الحديث هي قواعد التواضع .

* * *

وكما حدثنا القرآن الكريم عن عظمة التواضع في شخصية رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، أشار إلى أن عبده وابن أمته عيسى ابنَ مريم عليه الصلاة والسلام كان متجملاً بفضيلة التواضع والخضوع لجلال الله تعالى ، فقال في سورة النساء : « لن يستنكف [1] المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

والواقع أن من حقق صفةَ العبودية لله تعالى ، وكان عبداً صادقاً من عباد ربه ، لا يمكن أن يكون متكبراً ، بل لا بد أن يكون متواضعاً، لأن عبوديته لربه تذكِّره على الدوام أن كلَّ الناس إخوةٌ له ، من ناحية أنهم كلهم عبيد الله ، ولا يمكن للأخ الكريم الخُلُق أن يتكبر على أخيه ، ولذلك يعجبني قولُ ابن القيم : « إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبداً ، فلا ترضى أنت به أخاً ؟ . فعدمُ رضاك به أخاً — وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده عبداً لنفسه — عين الكبر ، وأي قبيح أقبحُ من تكبر العبد على عبدٍ مثله لا يرضى بإخوته ، وسيدُه راضٍ بعبوديته » .

وكان عيسى عليه السلام يقول : «طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحاب المنابر يوم القيامة » . ومنْ قبله موسى عليه السلام يروي لنا أن مما أوحاه الله إليه : « إنما أتقبل صلاة مَنْ تواضع لعظمتي ، ولم يتعاظم على خَلْقي » .

---

(١) لن يستنكف : لن يترفع ولن يستكبر .

لكأن التواضع أمانة غالية مودعة لدى أنبياء الله ورسله ، فهم يحرسونها ويحرصون عليها لتبقى وتدوم .

* * *

ولقد تجلت شواهد التواضع من سلَف هذه الأمة بصورة رائعة باهرة ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه يلبس المرقَّع ، ويحمل الدقيقَ للمرأة العجوز ، وينفخ على النار لينضج الطعام للأطفال الفقراء ، ويطلي إبلَ الصدقة حتى تبرأ من مرضها ، ولقد دعا الناسَ ذات يوم إلى الاجتماع في المسجد ، ثم وقف يخطب ويقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله : « أيها النـــاس ، لقد رأيتُني أرعى الغنمَ على خـــالات لي من بني مخزوم ، فأقبض القبضةَ من التمر والزبيب فأظل بها يومي » .

ثم نزل ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، ما زدتَ على أن عِبْتَ نفسَك . فقال له عمر : ويحك يا ابن عوف ، إني خلوتُ بنفسي فحدثتني فقالت : أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضلُ منــك ؟ . فأردت أن أعرّفهـــا نفسَها .

وقال عروة : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، على عاتقه قِرْبة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لـــك هذا ، فقال : لما أتاني الوفود سامعينُ مطيعين ، دخلتْ نفسي نخوةٌ فأردت أن اكسرها .

وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي ، فقال متواضعاً : « لكنني خُلقت من نطفة قذرة ، ثم أعود جيفة منتنة ، ثم آتي الميزان ، فإن ثَـقُـلَ فأنا كريم ، وإن خفَّ فأنا لئيم » . وهذا هو الخليفة العادل خامس الراشدين عمر بن عبـــد العزيز يضرب الأمثلة الرائعة في التواضع وهو خليفة ، فثيابه تقدَّر باثني عشر درهماً ، وكان عنده بعض جلسائه ، فاحتاج السراج إلى إصلاح فقام إليه عمر فأصلحه ، فقال له مَنْ معه : كنا نكفيك ذلك . فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم

ضيفَه ، قمتُ وأنا عمر ، ورجعتُ وأنا عمر ، مـا نقص مني شيء . ولقـد اشترى ابنُه خاتماً غالياً ، فكتب إليه عمر يقول : « بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي هـذا فبع الخاتمَ ، وأشبعْ بثمنه ألفَ بطن ، واتخذ لك خاتماً بدرهمين ، واكتب عليه : رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

والتواضع إنما يصدق إذا كان عن قدرة ، أما إذا رغب الإنسان أو رَهِبَ أو خاف من شخص فذلّ له وانكسر معه ، فليس ذلك من التواضع في شيء ، ولذلك قال ابن السماك لهارون الرشيد : « إن تواضعك في شرفك أشرف لـك من شرفك » ، وإنما يصدق التواضع من الكبير مع الصغير ، ومن القوي مـع الضعيف ، ومن العالم مع الجاهل ، ومن الغني مع الفقير ، ولعل هـذا يذكّرنا بقول الإمام علي رضي الله عنه لبعض الصالحين في مقام له : « ما أحسن التواضعَ بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبةً منهم في ثواب الله ، وأحسنُ من ذلك تِيـهُ الفقراء على الأغنياء ثقةً منهم بالله عز وجل » .

وقد يظن بعض الناس أن التواضع معناه إهمالُ النظافة في البدن أو الثياب أو الأدوات ، أو إهمالُ العناية بمظهر الإنسان وشكله ، وليس لهـذا الظن نصيبٌ من الحق ، لأن الله تبارك وتعالى قـد قال : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » . وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إن الله جميل يحب الجمال » . ولقد يكون الإنسان طهوراً في بدنه وثيابه ، أنيقاً في شكله ومظهره ، متمتعاً بطيبات حياته ، ومع ذلك يتواضع فيصدق منه التواضع .

وينبغي أن نتذكر أن التواضع يجب أن يكون بقَدْر ومقـدار ، لأن الإنسان إذا أسرف في تواضعه فقد وضع نفسَه موضعَ السخرية أو سوء الظن ، وإذا كنا نرى من واجبنا أن نحترم الرجل العظيم مرتين ، مرةً لعظمته ، ومرة لتواضعه ، فإن المسرف في التواضع يحملنا على الاستهزاء به والاستنكار لعمله . وإذا كنا نعلم أنه ما من فضيلة إلا وهيَ وَسِطٌ بين رذيلتي الإفراط والتفريط ، فإن التواضع كذلك وسط له طرفان مذمومان ، وهذا هو حجة الإسلام الإمام

الغزالي يقول عن التواضع: « اعلم أن هذا الخُلُق كسائر الأخلاق، له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمَّى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمَّى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً، والمحمود أن يتواضع في غير مذلّة، ومِنْ غير تخاسس، فإن كِلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأعمال إلى الله أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أي وَضَعَ شيئاً من قدره الذي يستحقه، والعالم إذا دخل عليه إسكافي فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم تقدم وسوَّى له نعلَه، وغَدَا إلى باب الدار خلفه فقد تخسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود، بل المحمود عند الله العدل، وهو أن يعطي كلَّ ذي حق حقَّه.

فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام، والبشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسعي في حاجته، وأمثالِ ذلك، وألا يرى نفسَه خيراً منه، بل يكون على نفسه أخوفَ منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره، وهو لا يعرف خاتمة أمره.

ومتى صدق الإنسان في تواضعه، وجعله وسطاً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، حقق الله له من الثمرات، بمنافع ما يحرمه الغافل المتكبر، فبالتواضع يصلح القلب ويطهر، ولذلك جعل أبو عثمان الحيري النيسابوري التواضعَ أحد أربعة أمور يصلح بها القلب فقال: « صلاح القلب في أربع خصال: في التواضع لله، والفقر إلى الله، والخوف من الله، والرجاء في الله » وكذلك ينال المتواضع عفوَ الله ورحمته ونعمته، ولذلك قال يوسف بن الحسين الرازي:

« الخير كلُّه في بيت، ومفتاحُه التواضع، والشر كله في بيت، ومفتاحه التكبر، ومما يدلك على ذلك أن آدم عليه السلام تواضعَ في ذنبه، فنال العفوَ والكرامة، وأن إبليس تكبر فلم ينفعه شيء ».

وهذا يذكّرنا بما جاء في كتاب « نهج البلاغة » للامام علي، إذ يقول في

صدر خطبة طويلة له : « الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء ، واختارهما لنفسه دون خَلْقه ، وجعلهما حِمىً وحراماً على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنةَ على من نازعه فيهما من عباده ، ثم اختبر بذلك ملائكتَه المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين ، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب : (إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لأصله ، فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين ، الذي وضع أساسَ العصبية ، ونازع الله رداءَ الجَبْرية ، وادَّرع لباسَ التعزز . وخلع قناعَ التذلل . ألا ترون كيف صغَّره الله بتكبره ، ووضعه بترفعه ، فجعله في الدنيا مدحوراً ، وأعد له في الآخرة سعيراً » .

وهكذا يصدق منصور بن عمار حين يقول : « أحسنُ لباسِ العبد التواضع والانكسار ، وأحسن لباس العارفين التقوى ، قال الله تعالى: « ولباس التقوى ذلك خير » . والحديث النبوي الشريف يزكي ذلك فيقول : « إذا هدى الله عبداً للاسلام ، وحسَّن صورتَه ، وجعله في موضع غير شائن له ، ورزقه مع ذلك تواضعاً ، فذلك من صفوة الله » .

وقد يقال : وكيف الطريق إلى اكتساب فضيلة التواضع ؟ . والغزالي يرسم الطريق فيذكر ما ملخصه أن الإنسان يجب عليه أولاً أن يتذكر بدايتَه : « من أي شيء خلقه ، من نطفة خَلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره [1] » ، فالإنسان في أول أمره لم يكن شيئاً مذكوراً ، وهو في النهاية يصير شيئاً معدوماً ، وأي شيء أخَسّ من المحو والعدم ، ولقد كان أيضاً معدوماً قبل إيجاده ، ثم مَنّ الله عليه بالطاقات والهبات ولو شاء لنزعها

(١) نطفة : مادة التناسل السائلة . وفأقبره : أمر بدفنه في القبر . وأنشره : بعثه حياً بعد موته .

منه : « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين [٢] » ، فمن كان هذا مبتدأه ، وهذا منتهاه ، فكيف يجوز له أن يتكبر أو يتجبر ؟ . وبصِدْقِ التفكر والتدبر في هذا يفتح الإنسان في قلبه ينبوعَ التواضع لله ولخَلْقه .

نسأل الله أن يجمّلنا بالتواضع ، وأن يباعد بيننا وبين التكبر ، إنه ولي المخلصين .

---

(١) النجدين : طريق الخير وطريق الشر .

الطمأنينـــة

كلمة « الطمأنينة » تفيد معنى السكون والاستقرار ، ومن ذلـك طمأنينة الأعضاء ، اي استقرارها وعدمُ حركتها ، وقد جاء في الحديث النبوي : « ثم اركع حتى تطمئن راكعاً » . والاطمئنان هو السكون بعد الانزعاج ،وطمأنينة القلب : هي عدم اضطرابه وقلقه . وقد يراد بطمأنينة القلب أن يسكن فكر الانسان الى شيء يعتقده ، فلا يرتاب فيه ولا يشك ، ومن هذا قول الله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » أي أن الايمان ثابت في قلبه ، مطمئن اليه صاحبه ، ولم يخالطه شك او ريب .

وقد يراد بطمأنينة القلب الثقة في أمر او توقُّعُه برجاء عميق ، كما في قول الله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ». أي وما جعل الله الإمـــداد المتتابع لكم بالملائكة في غزوة بدر إلا أن يكون بشرى لكم ، ولتسكن به قلوبكم ، وتثق فيه ، وترجو من ورائه الخير والنصر .

ويقول الصوفية إن الاطمئنان سكونٌ يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان ، او هو سكون أمن في استراحة نفس .

و « الطمأنينة » خُلُقٌ من اخلاق القرآن الكريم ، تحدَّث عنها في اكثر من من موطن ، فقـال في سورة البقرة : « قال أولم تؤمن قـال بلى ولكن ليطمئن قلبي » . وقال في سورة الرعْد : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . وقال في سورة الفجر : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » .. الخ .

وبتدبرنا لحديث القرآن عن الطمأنينة نفهم — والله اعلم بمراده — أنه يقصد بها الثبات والاستقرار ، ويتحقق هـذا بأمور منهـا : أن تكون النفس موقنة بالحق لا يخالجها فيه ظن او تردد، وان تكون آمنة لا يستفزها خوف ولا حزن وأن تنتهي بآمالها ورغباتها الى ربها ، فليس وراءه اقوى منه ولا اقدر ،ولذلك يقول الامام الرازي: « إن حاجات العبد غير متناهية ، وكل ما سوى الله تعالى فهو متناهي البقاء والقوة ، إلا بإمداد من الله ، وغير المتناهي لا يصير مجبوراً بالمتناهي ، فلا بد — في مقابلة حاجة العبد التي لا نهاية لها — من كمال الله الذي لا نهاية له ، حتى يحصل الاستقرار ، فثبت ان كل من آثر معرفةَ الله لشيء غير الله فهو غير مطمئن ، وليست نفسه نفساً مطمئنة .

أما من آثر معرفةَ الله لا لشيء سواه ، فنفسه هي النفس المطمئنة ، وكل من كان كذلك كان أنسه بالله وشوقه الى الله ، وبقاؤه بالله ، وكلامه مع الله ، فلا جَرَمَ يخاطب عند مفارقة الدنيا بقوله : « ارجعي الى ربك راضية مرضية ، وهذا الكلام لا ينتفع الانسان به إلا إذا كان كاملاً في القوة الفكرية الالهية او في التجريد والتفريد » .

وينبغي ان يكون معنى قول الرازي : إن حاجات العبد غير متناهية ،إن حاجات الانسان كثيرة موصولة ما دام حيا ، والبقاء الأبدي الذي لا نهاية له إنمـــا هو لله وحده : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

والطمأنينة خُلـُقُ اصحابِ العقول الراجحة ، والعلم الراسخ ، والايمان القوي ، والذكر الخالص ، والحق الثابت ، فهم لا يزدهيهم متاع ، ولا يؤئسهم تعب ، وما داموا قد اقبلوا على الله ، واعتصموا بحبل الله ، وحرصوا على ذكر الله ، فإنهم لا يذلون لما عداه في هـذه الحياة . ولذلك قـال سهل بن عبد الله : « اذا سكن قلبُ العبد الى مولاه واطمأن اليه ، قويت حـــال العبد ، فإذا قويت أنسَ بالعبد كلُّ شيء » .

ولقد اشار البصراء بدقائق الاخلاق الى ان الطمأنينة مراتب ودرجات ، فهنـــاك طمأنينة القلب بذكر الله ، فإن القلب اذا اخلص في ذكر الله هــدأ واطمأن ، وسكن واستراح . وهناك طمأنينة السالك على بصيرة وهــدى الى استقامة طريقه ، وتوصيله الى غايته ، ولعله مما يشير الى هــذا قول الحق جل جلاله : « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني » . وهنـــاك طمأنينة المؤمن الى لطف الله وسعة رحمته ، فربه هو القائل : « ورحمتي وسعت كل شيء » .

والرجل المطمئن لا يحزن على ما فات ، ولا يفرح بما هو كائن ، ولا يخاف مما هو آت ، وهو لا يضجر من أداء واجب ، فإن الطمأنينة فيها معنى الاقامة والدوام ، ولذلك يقال : اطمأن فلان بالمكان إذا لزمه وأقام فيه ، وهو لا يمل مجانبة الاثم ، لأن الاثم والطمأنينة لا يجتمعان، فالاثم حيرة ، ولكن البر سكينة والحديث يقول : « الاثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس ». ويقول : « البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب » .

والمطمئن لا يجزع من قضاء ، ولا يضيق بقَدَر ، بل يردد مع القائل :

ما قد مضى يا نفس فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يقدر
وتحققـــي أن المقدّر كائن يجري عليك، حذرتِ ام لم تحذري

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في التخلق بخلق الطمأنينة ، فما استطاعت الأهوال المتوالية ان تُخْرِجه عن وقاره ورزانته ، ولا استطاع النصر العظيم ان يزدهيه او يغره ، ولا ضعف يقينه او رجاؤه في احلك الظلمات وأشد الأزمات ، والقرآن يترجم عن هـــذا حين يقول : « إلاّ تنصروه فقد نصره الله ، إذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم

تروها ، وجعـــل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هــي العليـــا والله عزيز حكيم » .

وراودته الجبالُ الشُّمُّ من ذهب عن نفسه فأراها أيّما شَمَمِ

ومن مفاتح الطمأنينة ذكرُ الله تعالى ، بالاقبال على تلاوة كتابه وتدبر آياته ، وذلك لأن القلب يطمئن بالايمان واليقين ، والقرآن الكريم هو اصدق رائد الى هذا الايمـــان ، وهو اقوى قاطع لذيل الشك والريب ، ومن هنا جاء قول الله تبارك وتعـــالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لأن هؤلاء اذا ذكروا ربّهم ، وقرأوا كلامه وتدبروا مغزاه ،خشعت قلوبهم واطمأنت .

ويعلل الفخر الرازي ذلك بقوله : « إن القلب كلما وصـل الى شيء فإنه يطلب الانتقالَ منه الى حالة اخرى اشرف منها ،لأنه لا سعادة في عالمالاجسام إلا وفوقها مرتبة اخرى في اللذة والغبطة ، أمـــا اذا انتهى القلب والعقل الى الاستسعاد بالمعـــارف الالهية والاضواء الصمدية بقي واستقر ، فلم يقدر على الانتقال منه البتة ، لأنه ليس هناك درجة اخرى في السعادة اعلى منها وأكمل، فلهذا المعنى قال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وقد يحلو لمعترض ان يقول : إن القرآن الكريم هنا يقول: « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، وفي مكان آخر يقول : « إنمـا المؤمنون الذين اذا ذُكر الله وجلت قلوبهم » ، والاطمئنان ضد الوجل . والجواب عن ذلك أن المؤمنين إذا ذكروا العقابَ ، وعدم العصمة من المعصية ، وجلوا وخــــافوا ، وإذا ذكروا الثوابَ والرحمة اطمأنت قلوبهم ، فالوجل عند ذكر العقاب ، والاطمئنان عند ذكر الثواب .

ويمكن ان يقال إن علمهم بكون القرآن معجزا يجعلهم يطمئنون الى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن خوفهم من عجزهم عن الاستقامة الكاملةعلى

الصراط المستقيم يوجد الخوف في قلوبهم .

وقد تكون الطمأنينة عن « طريق التطلع » الى تحقيق اليقين وتأكد الايمان بالمشاهدة والعيان ، كما في قول الله جل جلاله : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ». وهذا تطلع لا بأس به الى الطمأنينة التي تحقق اليقين وتثبته ، ولنلاحظ أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يسأل عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول ، فقوله : كيف تحيي الموتى ؟ ليس نفياً للاحياء ، ولكن السؤال استفهام عن هيئة الاحياء ، مع التصديق بتحقق الاحياء ووقوعه ، فإبراهيم قد سأل أن يشاهد كيفيةَ جمع اجزاء الموتى بعد تفريقها ، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها ، فهو قد أراد ان يحصل عنده الفرق بين المعلوم سماعاً والمعلوم عيانا .

ولم يكن إبراهيم عليه الصلاة والسلام شاكّاً في إحياء الله الموتى قط ، وإنما طلب المعاينةَ ، لأن النفوس تتطلع إلى مشاهدة العجيب من الأحوال مع تصديقها له ، ولهذا جاء في الحديث : « ليس الخبر كالمعاينة » . والحديث الذي يقول : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال رب ارني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » . معناه أن إبراهيم لو كان شاكاً لكنا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لا نشك فإبراهيم أحرى ألا يشك ، فالمراد من الحديث تأكيد نفي الشك عن ابراهيم .

وفي هذا يقول تفسير المنار : « فهم بعضُ الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قلقاً مضطربا في اعتقاده بالبعث ، وهذا شك فيه ، وما أبلد أذهانهم وأبعد افهامهم عن إصابة المرمى ، وقد ورد في حديث الصحيحين : « نحن اولى بالشك من إبراهيم » اي إننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا او اشد قطعاً .

نعم ليس في الكلام ما يشعر بالشك ، فإنه ما من احد إلا وهو يؤمن بأمور

كثيرة إيماناً يقينياً وهو لا يعرف كيفيتها ، ويود لو يعرفها ، فهـذا التلغراف الذي ينقل الخبرَ من المشرق إلى المغرب في دقيقة واحدة ، يوقن به كلُّ الناس في كل بلد يوجد فيه ، ويقل فيهم العارف بكيفية نقله للخبر بهذه السرعة .

أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية إنه شاك بوجود التلغراف ؟ . طلبُ المزيد في العلم والرغبةُ في استكناه الحقائق والتشوق إلى الوقوف على اسرار الخليقة مما فطر الله عليه الانسان ، وأكملُ الناس علماً وفهماً ، أشدُّهم للعلم طلباً للوقوف على المجهولات تشوفا ، ولن يصل احد من الخلق الى الاحاطة بكل شيء علما وقتل كل موجود فقهاً وفهماً .

وقد كان طلبُ الخليل عليه الصلاة والسلام رؤيةَ كيفية إحياء الموتى بعينيه من هـذا القبيل ، فهـو طلبٌ للطمأنينة فيما تنزع اليه نفسه القدسية من معرفة خفايا اسرار الربوبية ، لا طلب للطمأنينة في اصل عقد الايمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان دون المشاهدة والعيان » .

وقد زكى القرآن المجيد مكانةَ النفس المطمئنة ، وبشّرها بحميد مآلهـا وجمال عاقبتها فقال : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » . و « النفس المطمئنة » هنا هي التي لا تأمر بالسوء وهي النفس المؤمنة الموقنة ، المخلصة الساكنة ، التي ايقنت أن الله ربها فاخبتت لذلك ، ورضيت بقضاء الله تعالى ، وعلمت ان مـا اخطأها لم يكن ليصيبها ، وما اصابها لم يكن ليخطئها ، والتي عملت على يقين بما وعد الله في كتابه ، وهي واثقة بالبعث وبما لها عند الله من ثواب .

وقد ذكر المفسرون نماذجَ للذين اطمأنت نفوسهم من أهـل السلف الصـالح ، فذكـروا حمزة ، وابا بكر ، وابن عبـاس ، وعثمان بن عفـان ، وخبيب بن عدي ، رضوان الله على الجميع ، وقد كان من دعاء السلف :

« اللهم هب لي نفساً مطمئنة إليك » .

وقد تحدث القرآن عن نوع سيء من الطمأنينة ، لأنها طمأنينة كاذبة تقوم على الاغترار والانخداع ، فقال في سورة الحج : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » . فليست الطمأنينة هنا هي تلك الطمأنينة الراسخة الثابتة المستقرة ، وإنما هي صورة طمأنينة موقوتة مضطربة قلقة .

ويقرب من هذا الوادي قول الله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

وقال الله تعالى في سورة يونس : « إن الذين لا يرجون لقاءنا[1] ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » . أي إن الذين لا يؤمنون بالبعث ، ولا يطمعون في ثوابنا ، واكتفوا بملذات الحياة وشهواتها ، وركنوا إلى الدنيا ، واغتروا بها ، وغفلوا عن آيات الله وأهملوها ، سيكون مصيرهم النار بما كفروا وفجروا . وقد علق الامام الرازي على هذه الآية بقوله : « صفة السعداء أن يحصل لهم عند ذكر الله نوع من الوجل والخوف ، كما قال تعالى : « إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم » ، ثم إذا قويت هذه الحالة حصلت الطمأنينة في ذكر الله تعالى ، كما قال تعالى : « وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وصفة الأشقياء ان تحصل لهم الطمأنينة في حب الدنيا ، وفي الاشتغال بطلب لذاتها ، كما قال في هذه الآية : « واطمأنوا بها » فحقيقة الطمأنينة عند

---

(١) لا يرجون لقاءنا : لا يؤمنون بالبعث .

هؤلاء أن يزول عن قلوبهم الوجل ، فإذا سمعوا الانذار والتخويف لم تَوْجَل قلوبهم ، وصارت كالميتة عند ذكر الله تعالى » .

والانسان في اشد الحـــاجة إلى خُلـُقِ الطمأنينة ، ليجعله يندفع في شعاب الحياة ومسالكها ، يمشي على نور الايمان ، ويعمل بثقة اليقين ، ويواجـــه المتاعبَ بالصدر الرحب ، ويلقى المسرات بالاتزان والاعتدال ، وبذلك يسعد في حيـــاته ، وينعم برضوان الله جل جلاله عليه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الحيـــاء

الحياء والاستحياء بمعنى واحد ،والحياء – كما في القاموس – الحشمة ،يقال: حَيِيَ منه حياء ، واستحيا منه ، واستحى منه ، واستحياه ،وهو حَيِيٌ – بوزن غني – اي ذو حياء ، والحياء تغيّرٌ وانكسار يعتري الانسانَ من خوف ما يُعاب به ويذم ، واشتقاقه من الحياة ، ويقال : حَيِيَ الرجل – على وزن نسي – وكأن صاحب الحياء قد صار منكسر القوة منغص الحيـــاة لما يعتريه حينئذ من الانكسار والتغير ، كما يقال : هلك فلان حياءً من كذا ، ومات حياء وذاب حياء ، ورأيت الهلاك في وجهه من شدة الحياء ، وهكذا . ويقال :تحيى فلان من فلان انقبض وانزوى ، لأن من شأن صاحب الحياء أن ينقبض .

وقد وردت في تعريف الحيــاء عبارات كثيرة ،ُولكنهــا متقاربة المعاني ، فقيل : الحيـــاء انقباض النفس عن القبيح وتركه لذلك . وقيل : الاستحياء الانقباض عــن الشيء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح . وقيل : الحيــاء انفعالُ النفس وتألمهــا من النقص والقبيح بغريزة حب الكمال . وقيل : الحيــاء انكسار وتغير في النفس يُلم بها إذا نُسب اليها او عرض لها فعل تعتقد قبحه ، فالرجل يستحيي ان يفعلَ كــذا ، اي تنكسر نفسه فتنقبض عن فعله ويقال : استحيا من عمل كذا اي انفعلت نفسه وتألمت حــين عرض عليه ان يفعله ، فرآه شيناً ونقصا .

وضد الحياء الوقاحة ، وقد يقابَل الحياء بالبذاء ، ومن ذلك الحديث القائل:

« الحياء من الايمان ، والايمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار » . والبذاء هو المفاحشة ،ولذلك يقابل الحياء ايضاً بالفحش ، كما في الحديث القائل: « ما كان الفحش في شيء إلا شانه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه » . وقالت السيدة عائشة : « لو كان الحياء رجلا لكان رجلا صـــالحاً ، ولو كان الفُحْش رجلا لكان رجلا سوءاً » .

والحياء خلق من مكارم الأخلاق ، يدل على طهارة النفس ، وحياة الضمير ، ويقظة الوازع الديني ، ومراقبة الله عز وجل . وقد يختلط الحياء عند كثير من الناس بالجبن ، مع أن هناك فرقاً واسعاً بينهما ، فالحياء تورع عن عمل او قول لا يليق بالكريم ، وأما الجبن فتقاعس عن واجب يلزم ان ينهض الانسان اليه ويقوم به ، والحياء ليس ضعفاً او نقصاً ، والمعيب في هذا المجال هـو الاسراف في صفة الحياء حتى يضعف صاحبها عن الاقدام على الشيء الحسن النافع خوفاً من الذم .

* * *

والحياء خلق من أخلاق القرآن ، فقد ذكر الله تبارك وتعالى مادة«الحياء» في ثلاثة مواطن ، فقال في سورة البقرة : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » . وقال في سورة الأحزاب :«يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه[1] ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ، والله لا يستحيي من الحق » . وقـــال في سورة القصص : فجاءته إحـــداهما تمشي على استحياء قالت إن ابي يدعوك ليجزيك اجر

---

(١) غير ناظرين اناه : اي غـــير منتظرين نضجه واستواءه . وفانتشروا : فانصرفوا ولا تطيلوا المكث بعد الطعام .

ما سقيت لنا » .

وقد تعرض المفسرون لمعنى الحياء او الاستحياء في هذه الآيات ، فقالوا في معنى الآية الأولى : « ان الله لا يستحيي »: اي لا يدع ولا يترك ولا يمتنع ،لأن الانسان اذا استحيا من شيء تركه وامتنع عنه ، وقيل : إن المعنى هو انالشيء الذي يستحيى منه يكون قبيحا في نفسه ، ويكون لفاعله عيبٌ في فعله ، فأخبر الله تعالى بأن ضرب الأمثال ليس بقبيح ولا بعيب حتى يستحيى منه.

وقالوا في الآية الثانية : « فجاءته إحداهما تمشي على استحياء » إن المعنى هو انها جاءت نحوه وقد سترت وجهَها بثوبها ، أو بيدها ، او جاءت ماشيةعلى بعد مائلةً عن الرجال ، او جاءته وهي على إجلال له وإكبار .

وقالوا في الآية الثالثة : « إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق » ان هذه الآية قد نزلت في شأن قوم كانوا يتحيّنون وقتَ اطعام النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخلون بيته ، ويقعدون منتظرين إدراك الطعام ، ثم يأخذ بعضهم يحدّث بعضاً مطيلين الجلوس والحديث ، وكان هذا يؤذي النبي عليه الصلاة والسلام ، لتضييق الدار عليه وعلى أهله ، ولصَرْفه عن شؤونه ، وكان النبي يستحيي من دعوتهم الى الخروج ، ولكن الله تعالى لا يترك التنبيه على ذلك لأنه حق .

ومن هذا الاستعراض السريع لآيات الحياء في القرآن الكريم نفهم ان الحياء جاء مرة منسوبا الى الله عز وجل ، ومرةً منسوباً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرة منسوباً الى احدى الفتيات الطاهرات العفيفات .

والى جوار الآيات التي ذكرت مادة « الحياء » صراحة ، جاءت آيات ترمز لى الحياء وتشير نحوه ، وهي الآيات التي تذكّر الانسان باطّلاع الله على كل احواله واموره ، فإن استحضار ذلك في نفس المؤمن يجعلها متجملةً بالحياء والحشمة ، كقوله تعالى : « إنه عليم بذات الصدور ،ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . وقوله « ألم يعلم بأن الله يرى » . وقوله : « يعلم خائنة

الأعين وما تخفي الصدور » . وقوله : « ان الله كان عليكم رقيبا » وقوله : « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه[1] ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر إلا في كتاب مبين » . وقوله : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا اكثر إلا هو معهم اينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » .

وخُلُق الحياء وثيق الصلة بيقظة الضمير ، ويقظة الضمير وثيقةُ الصلة بحياة القلب وصفائه ، ولذلك يرى ابن القيم أن الحياء من الحياة ، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه خُلُق الحياء ، وان قلة الحياء من موت القلب والروح ، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم .

* * *

ولقد عُنِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلق الحياء ، وأكد التنويه به والرفع من مكانته ، ، فجعل الحياء وثيقَ الارتباط بالايمان ، فقال : « الحياء شعبة من الايمان » ، وقال : « ان الحيـاء والايمان في قَرَن ، فإذا سُلِبَ احدهما تبعه الآخر » . ورأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلا يعاتب آخر بشأن الحيـاء فقال له : « دعه فإن الحياء من الايمان » . وكأن الرسول عليه صلوات الله وسلامه قد جعل الحياء من الايمان لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي ، فصار كالايمان الذي يحول بين الانسان وهذه المعاصي ، ولعل هـذا هو الذي جعـل الرسول عليه صلوات الله وسلامه يقول : « استحيوا من الله حق الحياء » وحينما قال الصحابة : إنا نستحيي من الله يا رسول الله والحمد لله

---

(١) تفيضون فيه : تشرعون فيه وتتوسعون . وما يعزب : ما يغيب .

أجابهم قائلا : « ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحيـــاء ان تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن ومـــا حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن اراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى » .

وإذا تحقق الحياءعند الانسان بالصورة التي رسمها هذا الحديث الشريف فإن الحياء يصد صاحبه عن كل قبيح ، ويصله بكل جميل ، وبهـــذا يتحقق قول الرسول: « الحياء لا يأتي إلا بخير » . وبهذا ايضا نفهم بوضوح :لماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل دين خُلـُقا ، وخُلـُق الاسلام الحيـــاء ». ولو تدبر العاقل امر الحياء لأدرك في يسر ان الحيـــاء لو لم يكن خُلـُقاً قرآنيا اسلاميا . يأمر به الله تبارك وتعالى ويدعو اليه رسوله عليه الصلاة والسلام ، لكان أمراً من أمور الفطرة الانسانية الصافية ، وطبيعةً من طبائع البشرية الطاهرة .

والحياء من ناحية متعلـَّقه يكون على ثلاثة أوجه ، حياء من الله ، وحياء من الناس وحياء المرء من نفسه ، ولا بد من هذه الأوجه الثلاثة لكي يكمل الحياء، ويتحقق على وجهه التام ، لأن من استحيا من الله تعالى ولم يستحي من الناس فقد استهان بالناس ، ومن استحيا من الناس ولم يستحي من الله فقد استهان بالله جل جلاله ، ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه ، هانت عليه نفسه ، ومن هانت عليه ، لم يكن أهلاً لمكارم الأخلاق .

ومظاهر الحياء كثيرة ، وأنواعه عديدة ، فهناك الحياء من الذنب ، وهـــو الشعور الذي يعتري نفسَ المذنب ، فيخجل من ذنبـــه ويستحيي ،والحياء من التقصير ، وهو أن يفعل الإنسان خيراً ، ولكنه يراه دون ما ينبغي فيستحيي ، وحياء الإكبار ، وهو استحياء الصغير من الكبير الجليل ، وحياء الاحتشام ، وهو خجل الإنسان من التبسط في الكلام مع مَنْ يهابه ، وحياء الكرم ، وهو استحياء الرجل الكريم إذا أعطى وأحس بأن ما أعطاه دون مـــا ينبغي ،

وحياء المحبة ، وهو استحياء المحب من محبوبه ، على حد قول القائل :

أهابكِ إجلالا ، وما بك قدرةٌ علي ، ولكن ملءُ عين حبيبُها

وهناك الحياء البليغ الرائع ، وهو استحياء الإنسان من نفسه ، ومن اكتفائها بما تستطيع أن تبلغ أعلى منه ، وهذا أشرف أنواع الحياء ، لأن المرء إذا استحيا من نفسه فهو من غيره يكون أشدّ استحياء ، وقد توسع ابن القيم في الحديث عن أنواع الحياء .

ومما جاء في السنة المطهرة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . ولذلك الحديث تفسيران : الأول منهما أن ذلك أمر تهديد ووعيد ، أي إذا لم تستح من العيب ، ولم تخشَ العارَ مما تفعله ، فافعل كلّ ما تحدثك به نفسك من أهوائها وأغراضها ، حسناً كان أم قبيحاً . ويكون التقدير : من لم يستح صَنَعَ ما شاء ، وهذا توبيخ وتبكيت ، وإن كان لفظه وظاهره الأمر ، وفيه تنبيه على أن الذي يصد الإنسانَ عن إتيان السيئات هو الحياء ، فإذا تجرد عن الحياء صار كأنه مأمور بارتكاب كلّ ضلالة ، واقتراف كل سيئة ، وهذا التفسير هو التفسير المشهور الظاهر .

والتفسير الآخر للحديث هو أن ذلك أمر إباحة . أي إذا كنت في فعلك آمناً أن تستحي منه ، لأنه لا عيب فيه ولا سوء ، ولأنك تلتزم الصوابَ في فعلك ، فاصنع ما شئت ، فأنت آمن من العقاب والعتاب ، ويكون التقدير : انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله فإن كان طيباً لا يستحى منه فلا عليك أن تفعله .

* * *

وبعض أهل السوء يتوقحون ويتبجحون فيقولون نحن لا يهمنا الناس ، ويرتكبون من الأخطاء ما يرتكبون دون أن يستحوا ، وكأنهم قد خلعوا برقعَ الحياء عن وجوههم ، وقد يتعللون فيقولون إن الخجل من الناس لون من

الرياء أو التصنع ، وعلى هذا الأساس لا يقيمون للناس وزناً، فيأتون من السيئات ما يريدون بلا وازع ولا رادع ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله تعالى » .

ولقد هدد الرسول الكريم كل من يتنكر لخلق الحياء فقال : « من ألقى جلبابَ الحياء فلا غيبة له » . وقال : « إن الله إذا أراد أن يُهلك عبداً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تَلْقَه إلا مَقِيتاً مُمقَّتاً [1] ، فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة ، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوّناً نزعت منه الرحمة ، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيماً مُلَعَّناً نزعت منه رِبْقة الإسلام » . والربقة في الأصل العروة ، ويراد بها هنا أحكام الإسلام وأوامره .

وقد ورد وصف الله جل جلاله بالحياء ، فجاء في السنة : « إن الله تعالى حييٌ سِتّير ، يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر » . وجاء فيها : « إن الله تعالى حييٌ كريم ، يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردّهما صِفْراً» أي خاليتين، وجاء فيها: «إن الله تعالى يستحيي من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه » . ولكن الحياء في حق الله تعالى لا يجوز بالمعنى البشري ، وهو انقباض النفس ، لأن ذلك تغيُّر يلحق البدن ، وذلك لا يُعْقَل إلا في الجسم ، وهذا مستحيل في حق الله تعالى ، إذ هو مُنـزَّهٌ عن الاتصاف به ، فإذا جاء وصف الله تعالى بالحياء يكون معناه ترك الفعل القبيح . ويقول ابن القيم : «وأما حياء الرب تعالى من عبده فذلك نوع آخر ، لا تدركه الأفهام ، ولا تكيِّفه العقول ، فإنه حياءُ كرم وبر وجودٍ وجلال » .

ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى في الحياء ، حتى قيل في وصفه إنه كان أشدّ حياء من العذراء في خِدْرها ، وذلك في غير حقوق الله

---

(١) مقيتاً ممقتاً : اي بغيضاً مكروهاً كرهاً شديداً .

وتبعات الدعوة ومواطن الحق .

* * *

وللصوفية مذهبهم في الحياء ، فهم يرون – كما يذكر الإمام الهروي – أن الحياء من أول مدارج الخصوص ، وهو على ثلاث درجات، فالدرجة الأولى هي الحياء الذي يتولد من علم العبد بأن الله ناظر إليه ، فيدعوه ذلك إلى الدأب في الطاعة والنفور من المعصية ؛ والدرجة الثانية الحياء الذي يتولد في العبد عند شعور قلبه بأن الله تعالى معه ، وأنه مع الله ، وأن الله قريب منه بالإجابة والإثابة ، والدرجة الثالثة هي الحياء الناشيء من انخلاع قلب العابد من التعلق بالكائنات ، وعكوفه على ربّ البريات بحيث لا يرى المرءُ مع الله غيرَه ، ولا يخطر بباله في تلك الحالة سواه .

والصوفية في حديثهم عن الحياء يركّزون جُلّ عنايتهم في الحياء من الله تبارك وتعالى ، وها هوذا الجنيد شيخهم يقول : « الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير ، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء ، وحقيقته خُلقٌ يبعث على ترك القبائح ، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق » . ويقول ذو النون :« الحياء وجود الهيبة في القلب ، مع وحشة ما سبق منك إلى ربّك » ويقول السري : « إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع أقاما فيه وإلا رحلا »

ويرى الصوفية أن القلب إذا حُرم الحياءَ أصبح لا خير فيه ، ولذلك يقول أحدهم : « أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيى منه ، وعمارة القلب بالهيبة والحياء ، فإذا ذهب من القلب لم يبق فيه خير » ، ويجعل الفضيل قلة الحياء أحدَ خمسةِ أسباب للشقوة فيقول : « خمس من علامات الشقوة : القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل » . وهذا أحد الأئمة يقول :

هب البعثَ لم تأتنا رُسْلُه وجاحمة النار لم تُضْرَمِ
أليس من الواجب المستَحَقّ حياءُ العباد من المنعمِ ؟

بقيت بعد ذلك عبارة مثيرة يقول فيها يحيى بن معاذ : « من استحيى من الله مطيعاً استحيى الله منه وهو مذنب » . ولنترك ابن قيم الجوزية يشرح هذه العبارة ويفسرها بقوله : « مَنْ غلب عليه خُلُقُ الحياء من الله تعالى حتى في حال طاعته ، فقلبه مطرق بين يديه إطراقَ مستحٍ خَجِل ، فإنه إذا واقعَ ذنباً استحيى الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحالة لكرامته عليه ، فيستحيي أن يرى من وليه ومن يكرم عليه ما يشينه عنده ، وفي المشاهَد شاهدٌ بذلك ، فإن الرجل إذا اطلع على أخصّ الناس به ، وأحبّهم إليه ، وأقربهم إليه — مِنْ صاحب أو ولد أو من يحبه — وهو يخونه ، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياءٌ عجيب ، حتى كأنه هو الجاني ، وهذا غاية الكرم » .

نسأل الله جلت قدرته أن يجمّلنا بخلق الحياء منه ، إنه أكرم مسؤول وأفضل مأمول .

الثبات

تقول اللغة إن الثبات هو دوام الشيء ، وهو ضد الزوال ، والرجل الثبيت هو الفارس الشجاع ، والثابت العقل ، والعالم الثبت هو الثقة في العلم ، واستثبتَ تأنـّى ، فمادةُ « الثبات » تدل على الاستقرار والرسوخ ، وعلى ضد التزلزل والاضطراب ، وفيها أيضاً معنى القوة ، ولذلك يقال : ثبـّته الله أي قواه » .

والثبات خُلقُ من أخلاق القرآن الكريم ، نحتاج إليه أشدّ الاحتياج ، لأن طريق العبادة والطاعة طويل ، لا بد له من ثبات واستقرار ، وطريق العمل والسعي الحميد في الحياة طويل لا بد له من ثبات واستقرار ، وطريق الحرية والعزة والكرامة طويل لا بد له من ثبات واستقرار ، وطريق الأبطال وتحقيق الآمال بكريم النضال طويل لا بد له من ثبات واستقرار ، ولذلك نادى الله جل جلاله عبادَه الأخيار بقوله في سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عباده بأن الثبات صفة كريمة من صفات المؤمنين ، تتحقق لهم عن طريق الاهتداء بهدي القرآن المجيد ، وبالاقبال على طاعة الله والاعتصام بحبله وهداه ، فقال في سورة النحل : « قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين » ، وقال في سورة محمد : « يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . ومتى مَنّ الله تعالى على عباده بالتثبيت فقد تحقق لهم الثبات .

كما اخبر الحق سبحانه بأنه قد مَنَّ على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بنعمة الثبات ، وإنما تحقق الثبات لرسول الله بفضل الله ، وبما آتاه من وحيه ، وبما قصَّ عليه وذكر له في قرآنه الكريم من آيات وأنباء وعظات ، ولذلك يقول في سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » . ويقول في سورة هود : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » ويقول في سورة الاسراء : «ولولا أن ثبتناك لقد كِدْتَ تركن إليهم شيئاً قليلا » .فالله تعالى قد أقرَّ رسوله على الحق ، وحصنه به ، وعصمه من موافقة الكافرين ، وكان رسول الله يدرك خيرَ الإدراك فضل الله العظيم عليه في هذا التثبيت ، ولذلك كان يدعو فيقول : « اللهم لا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عين » .

* * *

ومن المواقف المشهودة التي تحتاج الى الثبات ، والى الاعتصام بحبل الله القوي المتين موقفُ الجهاد ومقاومة الأعداء ، ولذلك جاء في سورة الأنفال : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .والثبات في الجهاد قوة معنوية لها قيمتها ، فقد يكون السلاح والعتاد في أيدي المجاهدين، وفيهم الكثرة والقوة الحسية ، ومع ذلك يظلون في حاجة الى ما هو أهم ، وهو القوة المعنوية المتمثلة في الثبات ، والبصراءُ بأمور النضال يقررون أن الثبات يكون في كثير من الأحيان السببَ القوي والأخير للنصر والفوز ، فالجيوش تتقاتل وتتصارع ، والأكثر منها صبراً ودواماً واستمرارا هو الذي يتغلب ويفوز ولعل هذا هو الذي جعل القرآن المجيدَ يحذِّر تحذيراً شديداً من ترك الثبات في القتال ، ويتهدد من يتنكر لهذا الخُلُق الكريم بالعقاب والعذاب ، فيقول في سورة الأنفال : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زَحْفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ونوه خير تنويه بالذين لا يضطربون ، ولا يتزلزلون ، ولا يهابون ، فقال فيهم في سورة آل عمران : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

وقد ربط القرآن برباط دقيق بين الثبات الحسي والثبات المعنوي ، حين يتوافر الايمان واليقين لدى اهله ، ولذلك قال للمؤمنين في شأن غزوة بدر :

« اذ يغشيكم النعاس أمنة[1] منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ، اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

فالقرآن يجمع هنا بين الربط على القلوب ، وهذا هو الثبات المعنوي ، وتثبيت الأقدام — وهذا استقرار حسي — فالذين آمنوا بربهم لا يستخفون باسباب الثبات الحسي ، كما لا يستخفون بأسباب الثبات المعنوي ، بل يجملون شعارهم كما ذكر القرآن في سورة آل عمران :

« وكأي من نبي قاتل معه ربيون[2] كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

وكما ذكر في سورة البقرة : « ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » .

---

(١) يغشيكم النعاس أمنة منه : يلقي عليكم النوم كالغشاء لتأمنوا وتستريحوا وتقووا .
(٢) ربيون : منسوبون الى الرب لايمانهم وحكمتهم . وقيل : جموع كثيرة .

ومن أروع مواقف الثبات في تاريخ الاسلام ، ثباتُ القلة المؤمنة في اليوم العصيب الشديد : يوم غزوة أُحد ، وكأن القدر أجرى على لسان الرسول في أول الغزوة ما يشير الى ضرورة هذا الثبات ، حيث قال للرماة الذين طالبهم بحماية ظهر الجيش من فوق الجبل : « إن رأيتمونا تخطّفُنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم ، وإن رأيتمونا قد هزمنا القومَ فلا تبرحوا مكانكم حتى أُرسل اليكم » .

والحق الذي لا شك فيه أنه لم ينقذ المسلمين من حرب الإبادة والإفناء في هذه الغزوة — غزوة أُحد — إلا ثباتُ الطائفة القليلة من المجاهدين المخلصين .. فحينما أُشيع بين المحاربين أن الرسول قد مات ، تخاذلَ بعض المقاتلين ، ولكن أنس ابن النضر هتف بأعلى صوته يقول : « يا قوم ، إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يُقْتَل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء » .. ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتل ، وكان لأنس من المسلمين أشباهٌ ونظائر ثبتوا وقاوموا ، وفي هذا نزل قول الله تعالى في سورة آل عمران :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات او قُتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشاكرين » .

ولقد ضرب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — المثل الأعلى في ثبات النفس ، وثبات الحس في غزوة أُحد .. فقد أُصيب في وجهه وشفتيه وأسنانه ، وسال الدم الزكي على وجهه الشريف ، وتعب كثيرا ، حتى صلى الظهر قاعداً بسبب الجراح التي نالته ، وحينما جاء عدو الله « أُبَيٌّ بن خَلَف » يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا . قال الصحابة : يا رسول الله ، هل يعطف عليه أحدنا ليقتله ؟ . فقال : دعوه .. فلما اقترب من الرسول تناول الرسولُ الحربة من

أحد الصحابة ، وبكل ثبات واطمئنان طعنه بها طعنة قتلته .

ومن هنا قال المقداد عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم أُحد : « فوالذي بعثه بالحق ما زلت قَدَمه شبرا واحدا ، وإنه لفي وجه العدو ، تفيء اليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق عنه أخرى ، وهو قائم يرمي عن قوسه ، ويرمي بالحجر ، حتى انحازوا عنه » .

وبعد غزوة أُحد ، وفي اليوم التالي مباشرة ، أمر الرسول بالخروج لتعقُّب فلولِ الأعداء المشركين ، وقال : « لا ينطلقن معي إلا مَنْ شهد القتال بالأمس » .

ولقد دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – عقب غزوة أُحد دعاءً فيه الرجاء من الله بأن يحقق في نفوس المؤمنين معانيَ الثبات والاطمئنان ، تقول السيرة : لما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استووا حتى أُثْني على ربي عز وجل » فصاروا خلفَه صفوفا ،فقال:

« اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابضَ لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مُضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرّب لما باعدت ، ولا مُبعد لما قاربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعيمَ المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم إني اسألك النعيم يوم العَيْلَة[1]، والأمنَ يوم الخوف ، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، وشر ما منعتنا ، ، اللهم حبب الينا الايمان وزيّنه في قلوبنا ، وكرّه الينا الكفرَ والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزَايا ولا نادمين . اللهم قاتلِ الكفرة الذين يكذّبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ،

---

(١) العيلة : الفقر ، وفي القرآن : « ووجدك عائلا فاغنى » أي أزال عنك فقر النفس ، وجعل لك الغنى الأكبر وهو غنى النفس .

واجعل عليهم رِجْزَك وعذابك ،اللهم قاتل الكفرة الذين أُوتوا الكتاب، إله الحق » .

رواه أحمد والنسائي وابن كثير في سيرته .

* * *

ومـا دمنا قد عرضنا لأقوال الرسول الكريم في الاطمئنـان والثبات ، فلا يليق بنا أن ننسى موقفَ الرسول الخالد الذي علم به الدنيا كلّها كيف يكون الثبات على الحق ، والاستمساك بالعقيدة ، وذلك يوم قـال : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله او أهلك دونه » .. ولا عجب ولا غرابة ، فإن رسول الله عليـه صلوات الله وسلامه ، الذي ثبّت الله قلبَه ، وقواه وجعله راسخاً في ثبـاته كالجبال ، فقام بأعباء الرسالة ، ونشر الدعوة ، وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهـارها ، لا يزيغ عنها إلا هـالك . ولذلك يقول له رب العزة في سورة هود :

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ،وجاءك في هـذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ، وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون ، ولله غيب السموات والأرض ، واليه يُرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » .

وكما دعا القرآن الى ثبات القلوب وثبات الأقدام ، وثبات الحس والنفس في ميدان النضال والجهاد ، دعا الى « ثبات الكلمة » وثباتُ الكلمة هـو الاتيانُ بها على وجهها صادقةً واضحة صريحة ، يدعو اليها الحق ، ويوجههـا العدل ، ويحث عليها الانصـاف ، ولذلك قال سيد الخلق رسول الله – عليه الصلاة والسلام – : « أفضل الجهـاد كلمةُ حق عند إمـام جـائر » . ولقد قال القرآن الكريم :

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

وهكذا لا ينبغي أن يفر الانسان من الكلمة الطيبة ما استطاع اليها سبيلا ، والمؤمن في قوله وحكمه ورأيه لا يخادع ولا ينافق ، ولا يتذبذب أو يتلون ،ولا يفر من أداء واجبه ، لأنه أمانة لا تجوز خيانتها ، ولا يفرُّ من إسهامه بعلمه او جسمه او ماله فيما يندبه اليه دينه ، ولا يفر من موطن البأس اذا كتبه الله عليه او عرّضه له .

ولقد حذر القرآن من التنكر لخُلُق الثبات والدوام على الحق ، فقال في سورة المائدة :

« ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » . وقال في سورة محمد : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم » ..وقال في سورة الحج : « ومن الناس من يعبد الله على حرف[1] فإن اصابه خير اطمأن به ، وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » . وقال في سورة التوبة : « ومنهم من يلمزك[2] في الصدقات فإن أُعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » . وقال في سورة النساء : « الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » .

إنها صور مجسمة لطوائف تنكروا لخُلُق الثبات فكانوا من الخاسرين ،

---

(١) على حرف : على غير ثبات أو دوام .
(٢) يلمزك : يعيبك ويطعن عليك .

ولم ينتفعوا بهدي القرآن حين ذكّر الناس بأن الفرار رذيلة منكرة ، ومع ذلك لا تجدي ولا تنفع، كما قال الله تعالى في سورة الأحزاب : « قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل واذن لا تمتعون إلا قليلا » .

وكما قال في سورة الجمعة : « قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ».

والصوفية على طريقتهم في فلسفة الأخلاق – يصورون الثبات تصويرا خاصا له صلته بعلاقة الانسان المتعبد بربه المعبود جل جلاله ، فيقول مثلا محمد ابن الفضل البلخي : « أصل الثبات على الحق دوام الفقر الى الله تعالى » .

ولعل هذا يذكر بقول ابن عطاءالله السكندري :

« افضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات » .

وقد عرف رجال هذه الأمة ما للثبات في مواقف الهول من مكانة ومنزلة، وهذا شاعر يصف مجاهداً شهيداً فيقول فيه :

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه إليه الحفاظ المُرّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفس تعاف الضيمَ حتى كأنه هو الكفر يوم الرَّوْع أو دونَه الكفر
فأثبت في مستنقع الموتِ رِجْلَه وقال لها : من تحت أخمصك الحشر
تردّى ثيابَ الموت حُمْراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وهذا شجاع ثابت آخر يقول عن ثباته :

فإن تكن الأيام فينا تبدلت بنُعْمَى وبؤسى والحوادثُ تفعلُ
فما ليّنت منا قناةً صليبة ولا ذللتنا للذي ليس يَجْمُل
ولكن صحبناها نفوساً أبيّةً تُحَمَّلُ ما لا يستطاع فتحمل

إن افضل زينة للمجاهد المؤمن هو أن يتحلى على الدوام بخلق الثبات .

السكينـة

السكينة من مادة « السكون » ، وهـو ثبوت الشيء بعد تحرك ، وسكن فلان الأرضَ : استوطنها ، والسكن ما يسكن اليه الانسان ، ومادة «سكن» تدل في اصلها على خلاف الحركة والاضطراب ، وفي « معجم مقاييس اللغة » أن السكينة هي الوقار ، وفي السكينة معنى الرضى والأمـان والثقة واليقين والتأني في التفكير والكلام والحكم والحركة والتصرف ، ويقال للعقل إنـه السكينة لأنه يجعل النفس ساكنةً عن شهواتها ، وقيل ايضاً إن السكينة هـي زوال القلق والرعب .

وقد ذكر الرازي في تفسيره للسكينة معانِيَ ثلاثة ، أولهـا السكون ، وثانيهـا الوقار لله تعالى ولرسوله صـلى الله عليه وسلم ، والثالث اليقين وثبات القلب .

والسكينة خُلُق من أخلاق القرآن الكريم لأن الله تبارك وتعالى قد ذكر « السكينة » ستّ مرات ، مرة منها في سورة البقرة ، واثنتان منها في سورة التوبة ، وثلاث منها في سورة الفتح .

والسكينة خُلُقٌ يثمر تثبيتَ القلب وتسكينه ، وإيداعَه الجرأةَ مـع الرزانة ، والتكلمَ بوقار المحققين وإيمان الصادقين ، ودقة العلماء ، وهدوء الحكماء ، ولعل هذا هو معنى ما يُنسَب الى عمر الفـاروق رضي الله عنه من أنه كان يتكلم بما يدل على توافر الحكمة والسكينة في قلبه ، فقد رُوي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :

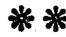
« إن السكينة لتنطق على لسان عمر » .

وروي عن عبدالله بن عباس أنه قال :

« كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه » .
وروي أن عبدالله بن مسعود قال :
« ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر » ، وفي رواية أنه قال : « كنا أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم لا نشك أن السكينة تتكلم على لسان عمر » . وأغلبُ الظن أن مرادهم بالسكينة هنا هو أثرها وثمرتها ، وهو الحكمة ، وان كان هناك من فسرها بالوقار والسكون والرحمة .

والسكينة كذلك هدوء في القلب يُنْزله الله تعالى على عبده عند اضطراب القلب من المخاوف او الأهوال ، فلا يزلزله الانزعاج ، بل يثبته الله ويوطده ، ويزيد في إيمانه ويقينه ، ولذلك نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن الله تعالى جمّل رسوله صلوات الله وسلامه عليه بحلية السكينة فيمواطن الهول والقلق ، كيوم « غارثَوْر » في الهجرة ، ويوم أُحد حين فرَّ من فر ، ويوم حُنَين إذ اشتد البأس على المؤمنين،ويوم الأحزاب حينما بَغَى الكفران محاولا البطشَ بالايمان، ويوم الحديبية حينما حاول الكفار أن يتحكموا في المسلمين ... الخ

ولعل أسمى درجة للسكينة هي تلك السكينة التي كانت تثبِّت قلب النبي حين نزول الوحي عليه ، ويا له من موقف جليل رهيب .



والسكينة التي تحدث عنها القرآن الكريم بشأن رسوله والمؤمنين هي ما يعمر الله به قلوبهم من القوة والروح والنور ، وبذلك يذهب الخوف ، ويبعد الحزن ، ويزول القلق ، والله جل جلاله يقول في سورة التوبة :

« ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » . ولا يُشترط هنا أن يكون الإنزال إنزالا مكانياً من اعلى الى ادنى، بل قد يكونمعناه : خَلَقَ وأوجد، على حد قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

فالمراد بالسكينة هنا هـو الحالة النفسية الحاصلة بفضل الله وتوفيقه : من السكون ، والاستقرار ، وزوال الاضطراب والانزعاج ، والسكينة كما عرفنا وقار ورزانة وهيبة ، فالآية تشير إلى ان الله تباركت آلاؤه قد افرغ من سماء عزته وقدرته سكينته اللدنية على الرسول والمؤمنين ، فكانوا كالجبال الرواسي.

ويقول القرآن في سورة التوبة :

« إلا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفرواثاني اثنين ، اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه ،وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

وكذلك تحدث القرآن عن السكينة في سورة الفتح ثلاث مرات فقال :

« هو الذي أنزل السكينةَ في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما » . وقال : « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما » . وقال : « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميةَ حمية الجاهلية[١] ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليما » .

ومن هذه الآيات القرآنيةالتي تحدثت عن السكينة واهلها نفهم أن لها ثمرات ولأهليها ميزات وخيرات ، فالسكينة هي قرينة النصر للمؤمنين ، ولذلك نصر الله عبادَه الأولين بهذه السكينة ، وعذب أعداءهم الكافرين ، وهي طريق التأييد الإلهي لعبده المعتصم به بجنود كثيرة مستورة ، وهي مفتاح الازدياد في الايمان ، وهي سبب لرضى الله تعالى ، وعنوانٌ على طهارة قلوب المزدانين بها، وأهلها جُدَراء بالثواب والفتح والمغنم ، وهم أهل التقوى القائمون بتبعاتها ،والله

---

(١) حمية الجاهلية : ما يصحب الجاهلية من كبرياء وأنفة .

لا يضيع أجر من أحسن عملا .

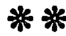
ولا عجب في ذلك فإن فضيلة السكينة تُولَدُ في صدر الانسان ، وتنمو بذكر الله جل جلاله ، وهو أشرف الأعمال ، وذكر الله هو الذي يقوي الايمان ، ويوطد اليقين ، ومن اعتمد على الله وقاه وكفاه ، فازداد سكينة على سكينته .

ولقد امتن الله تبارك وتعالى على رسوله بفضيلة السكينة بين صفاته ، فجاء في الكتب القديمة من وَصْفِ الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إني باعثٌ نبياً أُميا ، ليس بفظٍ ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق ، ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا ، أسدده بكل جميل ، وأهَبُ لَهُ كلَّ خُلق كريم ، ثم أجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقولَهُ ، والصدقَ والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والاسلام ملته ، وأحمد اسمه » .

وقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفون الرابطة بين السكينة والتوفيق في الجهاد ، لأن السكينة يتبعها الإقدام والثبات ، ولذلك نرى عبدالله ابن رواحة أحدَ شعراء الرسول يصوغ للمسلمين يوم الخندق نشيداً يرددونه ، ويرجو فيه ربَّه أن يجملهم بفضيلة السكينة فيقول :

لا هُمَّ لولا انت ما اهتدينا ولا تصدَّقْنا ولا صلينا
فأنزلن سكينةً علينا وثبِّت الأقدامَ إن لاقينا
إن الألى قد بغَوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا

ولقد قال عبد الله بن مسعود : « السكينة مغنم ، وتركها مغرم » .



وبقيت الآية السادسة التي ذُكرت فيها السكينة ، وهي تستحق أن نُفْرِدها بجانب من هذا البحث ، وهي التي يقول الله تعالى فيها في سورة البقرة :

« وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة » .

ومعنى السكينة المتبادر للذهن هنا هو أن الله تعالى جعل التابوتَ الذي أرسله اليهم سببَ سكون واطمئنان لقلوبهم ، وقد قال ابن عطية : الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى. فالسكينة هنا يراد بها أيضاً معنى الطمأنينة والسكون .

ولكنه قد وردت أقوال كثيرة مختلفة متعارضة في تفسير « السكينة » في هذه الآية ، فقيل إنها خلْقٌ رقيق كالريح والهواء ، وقيل إنها ريح خجوج (أي شديدة المُرور في غير استواء) ، وقيل إنَّ السكينة هنا حيوان له وجه كوجه الانسان ، وقيل هي صورة كالهرة كانت معهم في جيوشهم ، فإذا ظهرت انتصروا ، وقيل إنها شيء رأسُه كرأس الهر ، وقيل إنها صورة هرة لها جناحان ، وعينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد ، فإذا سمعوا صوتَها أيقنوا بالنصر ، وقيل هي طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيها قلوبُ الأنبياء ، وقيل هي روح من روح الله تتكلم ، اذا اختلفوا في شيء أخبرتْهم ببيان ما يريدون ، وقيل إنها ريح هفافة لها رأسان ووجه كوجه الانسان ، وقيل إنها مَلَكٌ يسكن قلب المؤمن ويطمئنه ...الخ .

وقد جاء في « تفسير المنار » أن أكثر الأقوال في « السكينة » هنا لا يدل عليه نَقْل ، ولا يقبله عقل ، كما أن الأصفهاني حكم على بعض هذه الأقوال بأنه قول لا يصح . ولعل من خير الأقوال في السكينة هنا قول عطاء :

« إن السكينة هنا هي الشيء الذي تسكن اليه النفوس من الآيات » .

وكذلك قال أبو بكر الأصم : « فيه سكينة من ربكم ، أي تسكنون عند مجيئه لأنهم متى جاء التابوت من عند ربهم وشاهدوه سكنت قلوبهم ». وكذلك قال الرازي إن السكينة هنا عبارة عن الأمن والثبات ، وعلى ذلك تدخل كلمة

« السكينة » في آية البقرة ضمن المعنى الذي فهمناه للسكينة في الآيات الأخرى السابقة .



وقد ذكر الامام الهروي أن السكينة - في عرف الصوفية - هي التي تنطق على لسان المحدَّثين - بفتح الدال المشددة وإنما هي شيء من لطائف صنع الحق ، تلقي على لسان المحدَّث - بفتح الدال المشددة - الحكمة وتنطق بنكت الحقائق ، مع استرواح الأسرار وكشف الشبهات ، لأن السكينة إذا عمرت القلبَ اطمأن بها « وخشعت الجوارح ، وجاء الوقار ، ونطق اللسان بالحكمة والصواب دون تكلف او تعمد ، وتجنب الباطلَ من القول .

والسكينة - كما يقول الامام ابن القيم - من أعظم مواهب الحق سبحانه ومِنَحه ، ومن أجل عطاياه ، ولهذا لم يجعلها في القرآن إلا لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن أُعطيها فقد خلعت عليه خلع الولاية وأعطي منشورها ، وهذا القول لهما يسوغه ، ، لأن السكينة تورث الانسان خشوعاً في الطاعة ،ويقظة في العبادة ، وتعظيما للمعبود جل جلاله ، كما تورثه محاسبة النفس ، ومراقبة الخالق ، وحسن معاملة الخلق ، والرضا بالقضاء ، وتورثه أن يجعل عقله أمام لسانه ، فلا ينطق إلا بميزان، وتورثه ألا يكون عبداً لشهوته او انفعاله او عاطفته ،بل هو يتلبث ويتريث ولا يتصرف إلا بحكمة ، ولا يتحرك إلا على نور .

وصاحب فضيلة السكينة تتكشف له دلائل الايمان وحقائق اليقين ، ويظهر له الفرق الجليّ بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال ، وبين الغيّ والرشد ، ويزداد ايماناً على ايمانه كما قال الله جل جلاله ، وانما يستحق هذه السكينة أهلوها والصالحون لها ، والمخلصون في الاهتداء الى طريقها ، ولذلك قال القائل الحكيم :

وتلك مواهب الرحمن ليست ُتحَصّل باجتهاد ، او بكسبِ
ولكن لا غِنَى عن بذل جهد بإخلاص وجِد ، لا بلعب
وفضل الله مبذول ، ولكن بحكمته ، وعن ذا النصُّ يُنْبي
فما من حكمة الرحمن وضعُ الـ كواكب بين أحجار وتُرْب
فشكراً للذي أعطاك منه فلو قبل المحلُّ لزاد ربّي..

ويتحدث ابن القيم عن تأثير السكينة في نفس صاحبها ، وأنها تباعده عن الركون إلى الشهوات والسيئات ، فيقول فيما يقول :

« صار سكونُه اليها عوضَ سكونِه الى الشهوات والمخالفات ، فإنه قد وجد فيها مطلوبه ، وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية ، ولم يكن له ما يُعيضه عنها ، فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها ورَوْحها ونعيمها عن لذة المعصية ، فاستراحت بها نفسه ، وهاج اليها قلبه ، ووجد فيها من الرَّوْح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية ، فصارت لذته روحانية قلبية ، بعد ان كانت جسمانية ، فانسلب منها ، وحبس عنها ، وخلّصته ، فإذا تألقت بروقُها قال :

تألق البرقُ نجديّاً ، فقلت له : يا ايها البرق ، إني عنك مشغول

وإذا طرقته طيوفُها الخيالية في ظلام ليل الشهوات ، نادى لسان حاله ، وتمثل بمثل قوله :

طرقتك صائدةُ القلوب ، وليس ذا وقتَ الزيارة فارجعي بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل ، ووعدته بالموافاة ، تمثل بقول الآخر »:

قالت وقد عزمت على ترحالها :
ماذا تريد ؟ فقلت : أن لا ترجعي

والسكينة قد تشابه الطمأنينة ، ولكن ابن القيم يفرّق بينهما بأن السكينة في حقيقتها تخلص من خوف ، والطمأنينة تحصُّنٌ بقوة ، ولذلك تُعد الطمأنينة درجة أعلى من السكينة ، وإن كانت كل فضيلة منهما جليلة نبيلة .

هذا وقد روي عن شيخ الاسلام ابن تيمية أنه كان اذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة الستة التي سبقت خلالَ البحث ، وقد حدث له في مرضه أزمة نفسية عنيفة، فطلب من الحاضرين حوله أن يقرأوا آيات السكينة ،وأخذ يتدبرها ويتجاوب معها ، فتأثر بها فانجلت عنه تلك الأزمة كأنها لم تكن .

وحدّث الامام ابن القيم عن نفسه أيضاً انه كان يتلو آيات السكينة عند اضطراب قلبه بما يَردُ عليه ، فيجد لها تأثيراً عظيما في سكونه واطمئنانه .

ومدار ذلك فيما نفهم على الاخلاص والصدق في التدبر والاعتبار : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

الشكر

« إن مادة « الشكر » في اللغة تدل على الكرم والسخاء .. يقال : شَكِرَ فلان – بوزن علم – صار سخيا بعد أن كان شحيحاً ، وتدل على الزيادة والنمو ، فيقال : ناقة شَكِرة – بكسر الكاف أي تعتلف أيَّ علف كان ، فتزيد ويصبح ضرعها ملآن ، والدابة الشكور هي التي يكفيها قليلُ العلف ، فتسمن عليه وتصلح .

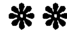
وقد عرّف الأصفهاني « الشكر » بأنه تصور النعمة وإظهارها ، وضده الكفر ، وهو نسيانُ النعمة وسترها ، وقيل إن الشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم . وقال الجوهري في « تهذيب اللغة » نقلا عن الليث : إن الشكر هو عرفان الاحسان ونشرُه وحمدُ موليه ، وتوسع البعض في تصوير الشكر فوصفه بأنه مقابلة النعمة بالفعل والقول والنية ، فيثني على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته ، ويعتقد أنه موليها . والشكور من عباد الله تعالى هو الذي يجتهد في شكر ربه ، بطاعته وأداء ما وجب عليه من عبادته .

وقال العلماء إن الشكر مثل الحمد ، إلا أن الحمد أعمُّ منه ، فأنت تحمد الانسان على صفاته الجميلة وعلى معروفه ، ولا تشكره إلا على معروفه دون صفاته . والشكر يتضمن الرضى وزيادة ، لأن الشكر الكامل هو ما كان بالقلب واللسان والعمل ، وهذا يندرج تحته معنى الرضى ، ولذلك كانت منزلة الشكر عند الصوفية فوقَ منزلة الرضى .

والشكر ثلاثة أنواع : شكر القلب وهو تصور النعمة ، وشكر اللسان وهـو الثناء على المنعم ، وشكر سائر الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها ، والقرآن الكريم يدعو الى التحلي بالأنواع الثلاثة ، ولذلك قال :

« اعملوا آل داود شكرا » فهو قد قـال : « اعملوا » ولم يقل اشكروا ، لينبه على التزام الأنواع الثلاثة ، ومن هنا ذكر حجة الاسلام الغزالي أن الشكر يتحقق بعلم وحالٍ وعمل ، فالعلم هو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هـو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح .

ويعبّر ابن القيم عن حقيقة الشكر بأنه ظهور الأثر لنعمة الله تعالى على لسان عبده ثناءً واعترافاً ، وعلى قلبه شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة ، ولا بد من خضوع الشاكر للمشكور ، وحبّه له ، واعترافه بنعمته ، وثنائه عليه بها ، وأن لا يستعملها فيما يكره .



وللشكر في نظر الدين منزلة رفيعة ومـكانة مجيدة ، حتى ورد عن ابن مسعود أن الشكر نصف الايمان ، وكذلك ورد أن الايمان شطران هما الصبر والشكر ، ولذلك أمر الله به — كما قال ابن القيم — ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواصّ خَلْقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعـد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سبباً للمزيد من فضله وحارساً وحافظاً لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسماً من أسمائه ، فإنه سبحانه هـو الشكور ، وهو يوصل الشاكر الى مشكوره ، بل يعيد الشاكر مشكورا ، وهو غاية الرب من عبده ، وأهله هم القليل من عباده .

ولقد نوه الحديث النبوي بهذه المكانة للشكر حين قال : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » ، وقد قطع الله تعالى بتحقيق المزيد من النعمة مع الشكر ،

ولم يستثن في ذلك ، فقـال سبحانه : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، ولكنه استثني في خمسة أشياء .. استثنى في الاغناء فقال :

« فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » ، وفي الاجابة قال : « فيكشف ما تدعون اليه إن شاء » . وفي الرزق فقال : « يرزق من يشاء بغير حساب » ،وفي المغفرة فقال : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .وفي التوبة فقال : « ويتوب الله على من يشاء » .

وقد عُنيَ القرآن المجيد بالحديث عن الشكر عنايةً واضحـة ، فذكره في مواطن كثيرة من آياته ، وطلب من عباد الله ان يتحلوا به ويحرصوا عليه ،فقال في سورة البقرة : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » . وقـال أيضاً : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون » . وقال في سورة النحل « فكلوا ممـا رزقكم الله حلالا طيبا ، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون » .

وقال في سورة الأعراف : « فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .

وقال في سورة لقمان : «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد » .

وقال أيضاً : « أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير » . وقال في سورة الزمر : « بل اللهَ فاعبد وكن من الشاكرين » .

ولأن الشكر مطلوب من الله تعالى بهذه الصورة أوصى النبي – صلى الله عليه وسلم – معاذ بن جبل فقال له : لا تنسَ أن تقول في دُبُرِ كلّ صلاة : « اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

وإذا كانت الآيات الكريمة السابقة قد طـالبت بالشكر عن طريق الأمر الصريح المباشر ، فإن هناك آيات كريمة أُخرى طـالبت بالشكر عن طريق التوجيه والتحريض والحث ، ولقد وردت عبارة : « لعلكم تشكرون » أربعَ عشرة مرة في القرآن الكريم ، وهـي في الغالب ترد مسبوقةً بذكر نعم الله

وآلائه وأفضاله ، ونحن نفهم من لغة العرب أن « لعل » تكون للترجي والتوقع والانتظار ، وتكون للحض على الشيء ،ولذلك قالوا إن « لعل » تكون للترجي في الشيء المحبوب ، والاطماع فيه ، أو — كما يعبّر بعضهم — للرجاء والطمع ، ومن بين هذه الآيات قوله تعالى في سورة المائدة :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » وقوله في سورة الأنفال : « وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » . وقوله في سورة النحل : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .. وقوله في سورة الحج : « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » ، وقوله في سورة القصص : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وكأن الحقّ — جلّ جلاله — يذكر نعمه وآلاءه ، ثم يعقّب على ذلك بالتوجيه الى الشكر ، لكي يُشْعِرَ المنعم عليهم بأن واجب التقدير للنعمة ، أو الانصاف في المعاملة ، أو العدل في التصرف ، يستلزم شكرَ النعمة وتقديرها ، حتى يكون ذلك داعياً الى استمرار المزيد منها ، والله تبارك وتعالى هو خير الشاكرين .

وفي مواطن أخرى نجد القرآن الكريم يستعمل بدلَ كلمة « لعل » كلمةً أُخرى مثل « لولا » ، وهي أيضاً تأتي للتحضيض ، وبمعنى كلمة « هَلاّ » ، كما في قوله تعالى : « لو نشاء جعلناه أُجاجاً فلولا تشكرون » . أو كلمة « أفلا » كقوله في سورة يس « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » . وقوله أيضاً : « ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » . أو كلمة « هل » كقوله في سورة الأنبياء : « فهل أنتم شاكرون » .

وهذه المواطن توحي بروح الحث على خُلُق الشكر والدعوة اليه ، مع التنبيه على أنه مقتضى الادراك الواعي ، والتقدير البصير للأشياء ، والاحساس بقيمة النعم والآلاء ، ولذلك نجد القرآن الكريم يعلمنا أن الرجل المتحلي بخلق

الشكر هو الانسان المتدبر المعتبر الناظر إلى آلاء الله وآياته نظرةً فاحصة عميقة مقدرة ، فيذكر قوله سبحانه وتعالى : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » في سور إبراهيم ، ولقمان ، والشورى ، وذلك بعد أن يورد جانباً من نعم الله التي لا تعد ، وآلائه التي لا تحصى.

وإذا كانت الأشياء تتميز بضدها ،وتبدو قيمتها عند المقارنة بما يناقضهـــا ، فلعل القرآن الكريم حين أمرنا بالشكر ونهانا عن ضده وهو الكفر ، قد أراد أن يهدينا الى الخير الكثير الذي نناله حين نتحلى بخُلُقِ الشكر ، وحسبنا من الخير أن يكون عاصماً لنا من الهلاك والدمار .

والقرآن قد ذكر لنا في مواطن كثيرة أن الشكر يقـابل الكفر ، فإذا لم يشكر الانسان فقد جحد الفضلَ وكفر النعمة ، وطريق الجحود إلى خسار ، وسبيل الكفر إلى دمـــار ، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة البقرة : « واشكروا لي ولا تكفرون » . وفي سورة إبراهيم : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . وفي سورة النمل : « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم » .. وفي سورة لقمان : « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد » .

وبعض هذه الآيات السابقة قـد أشار الى أن الشكر يحقّق لصـاحبه جزاء طيبا ، ويصونه من السوء والأذى ، وقد أكد القرآن أن لخلق الشكر جزاءَه وثوابه ، فقال في سورة الزمر : « إن تكفروا فإن الله غني عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم » . وقال في سورة القمر : « نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر » . وبدايةُ ثواب الشكر أنه يصون صاحبَه من العذاب ، ولذلك قال القرآن : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ».

ثم ضمن الله تبارك وتعالى ثوابَ الشاكرين وجزاءَهم بالخير ، فقال في سورة آل عمران : «وسيجزي الله الشاكرين » ، وقال أيضاً : «وسنجزي الشاكرين» وقال في سورة الاسراء : « ومن أراد الآخرة وسعى لهـــا سعيها وهو مؤمن

فأولئك كان سعيهم مشكورا » . وقال في سورة الانسان : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » . ثم أفهمنا القرآن المجيد أن تقوى الله تعالى هي مفتاح التوفيق للتحلي بالشكر والتمتع بثمراته ، فقال في سورة آل عمران « فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

ولله در حجة الاسلام الامام الغزالي حين يتفنن في إعطائنا صوراً كثيرة للشكر ، فيذكر في « الاحياء » أن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شُكْرٌ ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار عن قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداءً من الله تعالى من غير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شُكْرٌ ، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ... الخ .

والتزام التحلي بخلق الشكر الحقيقي الكامل أمرٌ صعبُ المرتقَى ، وكثير من الناس لا يكلفون أنفسهم عناءَ الاستمساك بهذا الخلق القرآني الرفيع ، ولذلك حكم القرآن على كثير من الناس بقلة الشكر ، فقال في سورة الأعراف : « وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » . وفي سورة يوسف : « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . وفي سورة غافر : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . وفي سورة المُلْك : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » . وفي سورة سبأ : « وقليل من عبادي الشكور » .

ثم يخبرنا القرآن الكريم بأن الشكر صفة من صفات الله تعالى ، ولذلك قال الغزالي : « الشكر خُلُق من أخلاق الربوبية » ، وقد ورد وصفُ الله جل جلاله بصفة الشكر في آيات كثيرة ، ففي سورة البقرة : « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » . وفي سورة النساء : « وكان الله شاكرا عليما » وفي فاطر:

« إن ربنـا لغفور شكور » وفي الشورى : « إن الله غفور شكور » . وفي التغابن : « والله شكور حليم » .

وَوَصْفُ الله بالشكر معناه إنعامُه على عباده ، وإثابتُهم على ما قاموا بـه من العبادة .. وفي « تهذيب اللغة » أن الشكور اسم من أسماء الله تعالى ، وأن أبا إسحاق الزجاج فسّر معناه بأنه الذي يزكو عنده القليلُ من أعمـال العباد ، فيضـاعِف لهم به الجزاء ، وقيل إن شكر الله لعباده هـو مغفرته لهم ، والأول أظهر .

والشكر كذلك صفة من صفات خاتم الأنبياء وإمام المرسلين محمد — عليه أفضل الصلاة والسلام — وعلى الرغم من ان الله تعالى قد أنزل على نبيه قوله : « إنا فتحْنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيما » ، فقد ظل — صلوات الله عليه وسلامه — عابداً قانتا ، متهجـداً متقرباً ، ليضرب المثلَ الأعلى في خلق الشكر ، ولقد رُوي عن عطاء أنه قال :

« دخلتُ على عائشة — رضى الله عنها — فقلتُ : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فبكتْ وقـالت : وأي شأنـه لم يكن عجباً ؟ أتاني ليلةً فدخل معي في فراشي ، حتى مسّ جِلْدُه جلدي ، ثم قال : يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبّد لربي . قلت : إني أحب قربك ، لكني أوثر هواك .

فقام إلى قِـرْبة ماء ، فتوضأ فلم يكثر صبّ المـاء ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة ، فقلتُ : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ . قال : أفلا أكون عبداً شكورا ؟ ولِمَ لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعـالى علي : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهـار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض

ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يدعو ربه تعالى فيقول : « رب اجعلني لك ، شكاراً لك ، ذكاراً لك[1] » .

والقرآن يحدثنا كذلك بأن الشكر صفة الأنبياء ، فهو إذن خُلُق من أخلاق النبوة ، يقول الله تعالى في سورة النحل : « إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ». ويقول في سورة الاسراء : « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً » . ويقول في سورة النمل عن سليمان : « قال هـذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر » . وقال عنه أيضاً : « فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين» .

وإذا كان أول من يُشْكَرُ هو الله – جل جلاله – لأنه صاحب الفضل والنعمة والمنة ، ولا منعم في الحقيقة سواه ، فإن شكر الوالدين يأتي عقب ذلك ، ولعل هذا هو ما يشير اليه قوله تعالى : « أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير » ، وهو أيضاً المفهوم من قوله عز من قائل : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . وشكرُهما يكون بطاعتهما وتوقيرهما ، والاحسانِ في الأعمال والأقوال إليهما ، وعدمِ إيذائهما ولو بأقل لفظ ، وخفضِ جناحِ الذل لهما تأدبا ، ورحمتِهما وهما كبيران ، والدعاءِ لهما ، وصلةِ رحمهما ، وبرِّ مَنْ يحبان أو يعاونان ... الخ .

ثم يأتي شكرانُ الناس ، لأن القرآن الكريم يقول : « هل جزاء الاحسان إلا الاحسان » ؟ويقول أيضاً :«وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها». ولقد عنيت السنة النبوية المطهرة بالحث على شكر الناس ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « من لم يشكر الناسَ لم يشكر الله » لأن الذي لا

(١) شكاراً ذكاراً : كثير الشكر والذكر لك .

يقدّر صنيعَ الناس الجميل معه ، ولا يشكرهم عليه يكون مقصراً في حق الله عز وجل ، وقد جاء في كتاب « النهاية » أن الله تعالى لا يقبل شكرَ الانسان على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسانَ الناس ، ويكفر معروفهم ، لاتصال أحد الأمرين بالآخر . وقيل : إن معنى الحديث هو ان من كان من طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لهم كان من عادته كفر نعمة الله وترك الشكر له . وقيل : معناه أن من لا يشكر الناسَ كان كمن لا يشكر الله وإن شكره ، كما يقول : لا يحبني من لا يحبك ، أي أن محبتك مقرونة بمحبتي ، فمن أحبني يحبك ، ومن لم يحبك فكأنه لم يحبني . وفي رواية : « من لا يشكر الناس » .

وقد أرشد الرسول – صلى الله عليه وسلم – الى طريق الشكر للناس بقوله : « من أعطي عطاءً فوجد فليجزِ به ، ومن لم يجد فليُثْنِ ، فإن من أثنى فقد شكر ، ومن كتم فقد كفر » . ويقول – صلى الله عليه وسلم – : « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئون به فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه » .

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : لما قدم النبي – صلى الله عليه وسلم – المدينةَ أتاه المهاجرون فقالوا : يا رسول الله ، ما رأينا قوماً أبذلَ من كثير ، ولا أحسن مواساةً من قليل ، من قوم نزلنا بين أظهرهم – يعنون الأنصار – لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ – أي محل الهناء والسرور – حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « لا ، ما دعوتم لهم وأثنيتم عليهم » .

وكذلك جاء في الحديث : « من صُنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله : جزاك الله خيرا ، فقد أبلغ الثناء » . وهذا بالنسبة للعاجز غيرِ القادر على الشكر المادي ، وجملة : « جزاك الله خيرا » فيها ثناء بليغ ، لأن فيها معنى الاعتراف بالعجز عن الشكر ، وقائلها قد دعا الله ورجاه بأن يثيب صاحبَ المعروف

نيابةً عنه ، والله واسع الفضل والعطـــاء ، فلو أخلص الانسان في الدعـــاء لكان شكرا عظيما .

هذا وللصوفية أقوال كثيرة في تصوير الشكر ، فقـال بعضهم : « الشكر هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة » . وقال ثان : « الشكر معرفة العجز عـــن الشكر » . وقال ثالث : « الشكر اضافة النعم إلى مُوليها بنعت الاستكانة له » . وقال رابـع : « الشكر أن لا ترى نفسَك أهلا للنعمة » . وقال خامس : « الشكر استفراغ الطاقة » . وقال سادس : «الشكر التلذُذ بثنائه ، على ما لم تستوجب من عطائه » .

اللهم اجعلنا أهلا لنعمتك ، ووفقنا لواجب ذكرك وشكرك .

الرحمـــة

كلمة « الرحمة » في لغة العرب تدل على الرقة والعطف ، والرأفة والمغفرة، والرحم علاقة القرابة ، والرحيم المبـالغ في الرحمة ، والرحمة كما يقول العلماء رقة تقتضي الإحسان الى المرحوم ، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة ، وتارة في الاحسان المجرد من الرقة ، نحو : رحم الله فلانا ، وإذا نسب وصف الرحمة إلى الله تعالى فلا يراد به إلا الاحسان المجرد من الرقة — كما يقول الأصفهاني — وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ، ومن الآدميين رقة وتعطف ، وعلى هـذا جـاء الحديث القدسي : « أنا الرحمن ، وأنت الرحم ، شققت اسمك من اسمي ، فمن وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » فهـذا إشارة إلى أن الرحمة منطوية على معنيين : الرقة والاحسان ، فركز الله تعالى في طبائع الناس الرقة ، وتفرد بالاحسان .

وقد يعبر عن الرحمة بكلمة « لين الجانب » كما في سورة آل عمران : « فبما رحمة من الله لنت لهم » ، وقد يعبر عنهـا بخفض الجناح ، كما في سورة الحجر : « واخفض جناحك للمؤمنين » وفي سورة الاسراء : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » .

والرحمة فضيلة إسلامية قرآنية ، تدل على قوة صاحبهـا ونبله ، لأنه لا يحتكر الخير لنفسه ، ولا يهمل التفكير في سواه ، بل هو يحس بآلام الآخرين، ويقدر مشاعرهم، ويسهم في معاونتهم ، ويخفف عنهم حينما يستحقون التخفيف .

والرحمة خلق لايتنافى مع التأديب اللازم والعقاب المناسب ، والله وهو خير الراحمين لم تتناف رحمته الشاملة الكاملة مع عقوباته التي حددها، وزواجره التي توعد بها ، لأن تشريع الله الحكيم يمضي بين الترغيب والترهيب على صراط سواء .

وليست الرحمة خلق ضعف كما يزعم بعض الزاعمين ، لأن الرحمة الأصيلة هي التي تنبعث عن قدرة ذاتية تستطيع أن تكون حازمة وصارمة ، ولكنها تقدر الظروف ، وتشعر بالمشاركة الوجدانية ، فتتنازل عن بعض حقها عن طيب خاطر ، وتترفق بمن يستحق الترفق واللين ، فهي في الواقع قوتان لا قوة واحدة قوة الاقتدار ، ثم قوة التحكم في النفس لحملها على أن ترحم ، وقد كانت قادرة على أن تقسو وتعنف .

وللرحمة مواطن كثيرة ، فهناك موطن الرحمة بالأبوين ، والرحمة بالأولاد والزوجات ، والرحمة بالأقارب، وذوي الأرحام ، والرحمة باليتامى والمساكين والضعفاء كالمرضى والمصابين وذوي العاهات ، ثم الرحمة بالحيوان ، وهكذا تتسع آفاق الرحمة حتى تشمل جوانب فسيحة من الحياة ، وعدداً ضخماً من الأحياء .

وقد حث القرآن الكريم على التحلي بفضيلة الرحمة مع أحق الناس بهذه الرحمة وهم الآباء والأمهات ، فقال القرآن في سورة الاسراء : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف[1] ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

يذكر بعض المفسرين — وهو القرطبي — في قوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » أن هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما ، والتذلل لهما ، وضرب خفض الجناح ونصبه مثلا لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده ،

---

(١) أف : كلمة تضجر .

رالذل هو اللين ، فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الانسان نفسه مع أبويه في خير ذلة ، في أقواله وسكناته ونظراته ، ولا يحد اليهما النظر .

وقوله تعالى « من الرحمة » لبيان الجنس ، أي ان هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس ، لا بأن يكون ذلك استعمالا ، ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم ، فيقول للانسان إنه يجب عليك أن ترحمهما كما رحماك ، وترفق بهما كما رفقا بك ، اذ تولياك صغيرا جاهلا محتاجا ، فآثراك على أنفسهما ، وأسهرا ليلهما ، وجاعا واشبعاك ، وتعريا وكسواك ، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدّ الذي كنت فيه من الصغر ، فتتولى منهما ما توليا منك ، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم .

وأرشد القرآن الى أن علاقة الزوج بزوجته ينبغي أن تنهض على المحبة والرحمة . فقال في سورة الروم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . والرحمة بين الزوجين تتطلب المعاشرة بالمعروف ، واحتمال الهفوة وصنع الجميل .

وكذلك وصف القرآن الكريم أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، الذين استجابوا له وساروا معه ، بأنهم رحماء فيما بينهم ، فقال في سورة محمد : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، وأشار إلى مثل هذا حين قال في سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » .

وجعل القرآن من صفات المؤمنين أن يوصي بعضهم بعضا برحمة الضعيف والتعطف عليه ، فقال في سورة البلد : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » . وحذر من الافساد في الأرض وجعله قرينا لتضييع معاني الرحمة من النفوس ، فقال في سورة محمد : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » وتقطيع الأرحام كناية عن ترك

المودة والتواصل ، وعن فساد العلاقات .

ويدل على جلال صفة « الرحمة » أنها صفة من صفات الله عز وجل ، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في جملة آيات ، فقال في سورة الأنعام : « كتب على نفسه الرحمة » . وفيها : « وربك الغني ذو الرحمة » وفي سورة يوسف : « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » وفي سورة المؤمنون : « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » وفي سورة غافر : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » وهناك عشرات من الآيات الكريمة جاء فيها وصف الله تعالى بالرحمة .

ونجد كل سورة من سور القرآن الكريم مبدوءة بقول الله جل جلاله : « بسم الله الرحمن الرحيم » . ولفظ الرحمن كما يقول بعض المفسرين يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهي إفاضة النعم والاحسان ، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والاحسان ، على أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، فالرحمن هو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لها ، والرحمن هو الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبداً . ويقول الامام محمد عبده : « الرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة ، وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ، ويحمله على الاحسان الى غيره ، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر ، لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الإحسان ، والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات فالمعنى المقصود بالنسبة اليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان » .

وبعض العلماء يرى أن كلمة « الرحمن » تفيد معنى الرحمة الشاملة التي تشمل المؤمنين وغيرهم ، وأن كلمة « الرحيم » تفيد معنى الرحمة المقصورة على المؤمنين ، ولذلك يقال : الله تعالى رحمن الدنيا رحيم الآخرة ، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين ، وعلى هذا قال القرآن المجيد : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون » تنبيهاً على أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وأنها في الآخرة مختصة بالمؤمنين .

وقد يعاون على هذا الفهم أن القرآن يقول في سورة الأعراف : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وقد علق الامام ابن القيم على هـذه الآية في « بدائع الفوائد » بقوله : « وقوله : « إن رحمة الله قريب من المحسنـين» له دلالة بمنطوقه ، ودلالة بإيمائه وتعليله ، ودلالة بمفهومه ، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الاحسان ، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالاحسان ، فهو السبب في قرب الرحمة منهم ،ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين . فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة .

وإنما اختص أهل الاحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الاحسان ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته . وأما من لم يكن مـن أهل الاحسان ، فإنه لمـا بعد عن الاحسان بعدت عنـه الرحمة ، بعداً ببعد ، وقرباً بقرب ، فمن تقرب بالاحسان تقرب الله اليه برحمته ، ومن تباعد عن الاحسان تباعد الله عنه برحمته ، والله سبحانه يحب المحسنين ، ويبغض من ليس من المحسنين ، ومن أحبه الله فرحمتـه أقرب شيء منه ، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه ، والاحسان ها هنا هو فعل المأمور به سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه » .



والرسول عليه الصلاة والسلام هو المثل الأعلى والقدوة الحسنة لأهل القرآن ، وقد وصفه التنزيل المجيد في أكثر من آية بفضيلة الرحمة ، فقال في سورة آل عمران : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . وقـال في سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » . وقال في

سورة الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » الى غير ذلك من الآيات .
ولقد تحدث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن صفة الرحمة في نفسه الشريفة ، فجاء عنه أكثر من حديث حول هذه الصفة ، فقال : « أنا رحمة مهداة » . وقال : « إنما بُعثت رحمة ولم أبعث لعانا » . وحبب في الرحمة ، وذكّر بثوابها وحسن عاقبتها ، فقال : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى » . وقال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » . وقال : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . وقال : « من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة » . وأنذر من يتنكر لفضيلة الرحمة ، فقال : « لا تُنزع الرحمة إلا من شقي » وقال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا » . وكأن الامام علي بن أبي طالب اهتدى بهذا الهدي النبوي فقال في « نهج البلاغة » هذه العبارة : «ليتأس صغيركم بكبيركم ، وليرأف كبيركم بصغيركم » .

وما أكثر المواقف التي تجلت فيها رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكفي أن يعود الانسان الى كتاب مبسوط من كتب السيرة أو الشمائل ، ليجد الفيض الكبير الكريم من الأدلة والشواهد على رحمة رسول الله عليه الصلاة والسلام التي اتسعت وانفسحت ، حتى شملت الجوانب العديدة من الحياة والاحياء . لقد رحم الصغير والكبير ، ورحم القريب والبعيد ، ورحم الراشد والشارد ، ورحم الصديق والعدو ، ورحم الانسان والحيوان ، وحسبنا أن نتذكر هنا أنه القائل : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[1] » وهو الذي أخبر بمغفرة الله تعالى لامرأة خاطئة بسبب رحمتها كلباً استبد به العطش فسقته .

ولقد بلغ من رحمته أنه كان يصلي بالناس رجالا ونساء ،وفي نيته أن يطيل صلاته استلذاذاً لها ، واستغراقاً فيها ،واستبشاراً بها ، ولكنه يسمع بكاء طفل، فيخفف في صلاته رحمة بالطفل الباكي ، لعله في حاجة الى رعاية ، ورحمةً

---

(١) خشاش الارض : ما يصلح لأكلها مما هو مطروح على الأرض .

بأمـــه التي تصلي خلف الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، حـــتى لا تقلق على وليدها .

وقد علمنـــا عليه الصلاة والسلام كيف نتحلى بفضيلة الرحمة في كثير من المواطن ، وقد فصلت السنة هذه المواطن ، ومنها موطن المعاملة للخدم والفعلة الذين يعملون ، فقال : « من كان أخوه تحت يده (أي يخدمه) فليطعمه ممـا يأكل ، وليلبسه ممـا يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وهـــا هوذا صلوات الله وسلامه عليه يرى عائشة تركب جملا توجهه يميناً وشمالا في شيء من الحدة ، فقال لها : يا عائشة ، عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » .

هذا ومعنى الرحمة قريب من معنى الرفق ، وقد تحدث الغزالي في « إحياء علوم الدين » عن فضيلة الرفق فقال : « اعلم أن الرفق محمود ، ويضاده العنف والحدة ، والعنف نتيجة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاؤه ، بحيث يدهش عن التفكر ، ويمنع من التثبت ، فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق ، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة ، وحفظها على حد الاعتدال .

ولأجل هـــذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق ، وبالغ فيه ، فقال : « يا عائشة . إنه من أعطي حظّه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُـــرم حظه من خير الدنيا والآخرة » .

ثم ساق طائفة كريمة من الأحاديث ، أسانيد بعضها ضعيفة ، ونترك هـــذا الضعيف ، ونورد ما يلي :

١ ـ إن الله ليعطي على الرفق ما يعطي على الخُرْق[1] ، وإذا أحب الله عبداً

---

(١) الخرق : الحمق وسوء التصرف .

أعطاه من الرفق، وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حُرِموا محبة الله تعالى .

٢ ـ إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف .

٣ ـ يا عائشة ، ارفقي ، فإن الله إذا أراد بأهـــل بيت كرامة دلهم على باب الرفق

٤ ـ من يحرم الرفق يحرم الخير كله .

٥ ـ أيما والٍ ولي فرفق ولان رَفَقَ الله تعالى به يوم القيامة .

٦ ـ تدرونَ مَنْ يحرم على النار يوم القيامة ؟ كل هين لين سهل قريب .

ولقد خطب عمر بن الخطاب يوماً في عماله يحثهم على اللين والرفق والرحمة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، أيتها الرعية ، إن لنا عليكم حقا : النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير ، أيتهـا الرعاة ، إن للرعية عليكم حقاً ، فاعلموا أنه لا شيء أحب الى الله ولا أعز ، من حلم إمام ورفقه ، وليس جهلٌ أبغض الى الله ولا أغم ، من جهـل إمـام وخرقه ، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه ، يرزق العافية من دونه » .

وجـــاء في الخبر : « العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قيّمه ، والرفق والده ، واللين أخوه ، والصبر أمير جنوده » .

اللهم هبنا الثباتَ على فضيلة اللين والرحمة إنك أنت الرحمن الرحيم .

الاعتبار

إن مادة « عبر » كما يذكر « معجم مقاييس اللغة » لها أصل واحد يدل على النفوذ والمضيّ في الشيء ، والعابر هو الناظر في الشيء ، والعِبْرَة كالموعظة مما يتعظ به الانسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره ، والعبرة ـ بفتح فسكون ـ هي الدمع لأنه يجري ، والاستعبار تحلّب الدمع ، وفي حديث أبي بكر أنه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ثم استعبر فبكى .

والعِبْرة ـ بكسر فسكون ـ هي الحالة التي يتوصل بها العاقل من معرفة المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَد ، والعِبْرة أيضاً هي الدلالة الموصّلة إلى اليقين ، المؤديّة إلى العلم ، وهي من العبور ، كأنها طريق يعبر به ، ويتوصل به إلى المراد ، وقيل : العبرة هي الآية التي يعبر بها الانسان من منزلة الجهل إلى منزلة العلم ، وقد جاء في حديث أبي ذر : فما كانت صحف موسى ؟ . قال : كانت عبراً كلها . ومن طبيعة المعتبر بالأشياء أو بالآيات أو الأخبار أن تتكون له صفة يقتدر بها على ترك الجهل وبلوغ العلم حسبما يلوح له من عبَر . وحينما يقول الحق جل جلاله : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » كأنه قد قال وهو أعلم بمراده : انظروا إلى مَنْ فعل ما فعل ، فجُوزي بما جُوزي به ، فتجنبوا صنيعَ الأشرار من السابقين ، لئلا ينزل بكم مثل ما نزل بأولئك .

وفي مادة « العبرة » معنى الضبط والتمييز ، ولذلك تقول اللغة : عبّر الصيرفيُّ الدنانير تعبيراً : أي وزنها ديناراً ديناراً . وفيها معنى البيان والإيضاح ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي

إن كنتم للرؤيا تعبرون » أي تفسرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي .

وفي الاعتبار معنى الإحساس بدلالات الآيات ، سواء أكانت حسية أم معنوية ، وفيه معنى التأمل والتفكر ، مما يربي في نفس المعتبر فضيلة التأثر بالعظة ، والاستجابة للنصيحة ، والتقبل للتوجيه ، والإفادة من سابق التجارب ، أو قائم الدلائل والمشاهد ، وقد أمر القرآن الكريم بالاعتبار ، فقال في سورة الحشر : « فاعتبروا يا أولي الألباب » وربط بين العبرة ومواطنها المتعلقة بما خلق الله وأبدع في كونه من أشياء دالة على قدرته داعية إلى خشيته ، فنراه يقول في سورة النحل : « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث [1] ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » . ويقول في سورة المؤمنون: « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون » . ويقول في سورة النور « يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى غزوة بدر في سورة آل عمران فقال : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين،والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار». وجاء « تفسير المنار » فتحدث عن معنى الآية ، ثم أشار إلى فضيلة الاعتبار التي ينوه بها كتاب الله تعالى ويوجه إليها ، فقال فيما قال :

« وجملة القول أن الآية ترشد إلى الاعتبار بمثل الواقعة المشار إليها (يعني غزوة بدر) التي غلبت فيها فئةٌ قليلةٌ فئةً كثيرة بإذن الله ، ولذلك قال : (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) أي لأصحاب الأبصار الصحيحة التي استُعملت فيما خُلقتَ لأجله من التأمل في الأمور ، بقصد الاستفادة منها ، إلا لمن وُصفوا بقوله : (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان

---

(١) الفرث : ما في الكرش من فضلات الطعام .

لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ ، أولئك هم الغافلون) .

وقال بعض المفسرين إن الأبصار هنا بمعنى البصائر والعقول من باب المجاز ، وقال بعضهم : يعني بأولي الأبصار مَنْ أبصروا بأعينهم قتال الفئتين ، وما ذكرتُهُ أظهر ، ولا أحفظ عن الأستاذ الإمام من هذا شيئاً ، وإنما تكلم عن العبرة فقال ما مثاله مبسوطاً مزيداً فيه :

وجه العبرة أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيّد الفئةَ القليلة فتغلب الكثيرة بإذن الله . وقد ورد في القرآن ما يمكن أن نفهم به سنته تعالى في مثل هذا التأييد ، لأن القرآن يفسِّر بعضهُ بعضا ، ويجب أخذه بجملته . بل هذه الآية نفسها تهدي إلى السر في هذا النصر ، فإنه قال : (فئة تقاتل في سبيل الله) ، ومتى كان القتال في سبيل الله – أي سبيل حماية الحق والدفاع عن الدين وأهله – فإن النفس تتوجه إليه بكل ما فيها من قوة وشعور ووجدان . وما يمكنها من تدبير واستعداد ، مع الثقة بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده» .

ولقد عاد الكتاب المجيد إلى التنويه بشأن العبرة والاعتبار فقال في ختام سورة يوسف : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يُفترَى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلِّ شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون » . وجاء في « تفسير سورة يوسف » للبيطار أن أولي الألباب هم أصحاب العقول الراجحة ، لأن أهل البصيرة والرؤية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها ، بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها ؛ وأما الأغرار الغافلون ، والظالمون المعاندون ، فلا يمرنون عقولهم على الاستقلال في النظر ، والإعتبار بما جرى على الأفراد والأمم ، فلا يفيدهم النصح والتذكير ، ولا سوء العاقبة والمصير .

ويقبل الرازي ليقول في الآية نفسها : « اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ، والمراد منه التأمل والتفكر ، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور :

الأول : أن الذي قدر على إعزاز يوسف ، بعد إلقائه في الجُبِّ ، وإعلائه

بعد حبسه في السجن ، وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبدٌ لهم ، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحبَّ ، بعد المدة الطويلة ، لقادرٌ على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته .

الثاني : أن الإخبار عنه جارٍ مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزةً دالةً على صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

الثالث : أنه ذكر في أول السورة : (نحن نقص عليك أحسن القصص) ، ثم ذكر في آخرها : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة .

والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه ؛ ومن النـاس من قال : المراد قصص الرسل ، لأنه تقدَّم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل : إلا أن الأوْلى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام. فإن قيل : لم قال عبرة لأولي الألباب ، مع أن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوي عقول وأحلام ، وقد كان الكثير منهم يعتبر بذلك ؟ قلنـا : إن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار . والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونُها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل . أو نقول : المراد من أولي الألباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها ، وانتفعوا بمعرفتها ، لأن أولي الألباب لفظ يدل على المدح والثناء ، فلا يليق إلا بما ذكرنا » .

ونحن نفهم من هذا البيان أن فضيلة الاعتبار بالوقائع والأحداث والأخبار الماضية أو اللاحقة إنما هي من نصيب العقلاء الفضلاء الذين ينظرون ويتفكرون ويتدبرون ، فتتأثر قلوبهم وألبابهم بما علموا أو شاهدوا ، وتستجيب ارواحهم لدواعي الخير والبر ، وتنصرف نفوسهم عن وساوس الشر ودواعي الإثم .

ونفهم أيضاً أن خير ما يبث اضواء الاعتبار في صدر الانسان العاقل هو ما قصه القرآن المجيد من قصص وانباء ، فخير الحديث كتاب الله جل وعلا ، ومَنْ أصدقُ من الله حديثا .

ونفهم كذلك أن من يمر على العظة او العبرة ، دون أن يدركها او يتأثر بها

او يعتبر عندها ، يكون كمن فقد العقل ، او فقد البصر ، ويكون قـــد تبلد شعوره وإحساسه ، وتجمد تفكيره وإدراكه ، اولئك كالأنعام بل هم اضل ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ويقبل النيسابوري ليحدثنا ايضاً عـــن آية سورة يوسف السالفة الذكر ، فيذكر ان العبرة نوعٌ من الاعتبار ، وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ، ووجه الاعتبار على العموم ان يعلم الانسان أنه لا خـــير إلا في العمل الصالح ، والتزود بزاد التقوى ، فإن الملوك الذين عمروا البلاد ، وقهروا العباد، ثم لم يراعوا حقّ الله في شيء من ذلك ، ماتوا وانقرضوا، وبقي الوزْر والوبال عليهم ، والذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب ، وإعلاء شأنه بعـد سجنه ، واجتماعه بأهله بعد غربته ، قادر على نصر محمد وإعلاء كلمته .

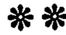
ويقص القرآن الكريم علينا قصة موسى باختصار في سورة النازعات ، ثم يعقب عليها بقوله : « ان في ذلك لعبرة لمن يخشى » اي إن فيما قصّه الله تعالى من قصة موسى وفرعون لعبرة وموعظة لمن يخاف الله ويخشى عقابه ، ولمن له عقل يتدبر به عواقب الأمور ومصائرها ، فينظر في حوادث الماضـين واحوال الحاضرين ، ويتعظ بها ، ثم يعقب القرآن على ذلك بعرض صور من كتاب الله المنظور ، وهو الكون ليفجّر في نفس المؤمن الواعي ينابيـــع هذا الخُـلُـق الكريم ، وهو الاعتبار ، فيقول عقب ذلـك مباشرة : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، واغطش ليلهـا واخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، اخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال ارساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم [1] » . ثم يتبع ذلك بذكر العاقبة التي ستختلف باختلاف الناس ما بين بَرٍ وفاجر ، او صالح وطالح ، او معتبر وغافل ، فيقول : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من

---

(١) سمكها : أي ثخانتها . وأغطش : أظلم . وأخرج ضحاها : أبرز نهارها . ودحاها : بسطها . ومرعاها : أقواتها . وأرساها : ثبتها .

طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى » .

وإذا كان القرآن المجيد قد تحدث عن فضيلة الاعتبار هذا الحديث الواعظ الناصح ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أشار إلى العبرة والاعتبار في نهاية الحديث المنسوب إليه الذي يقول : « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالاخلاص في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضى والغضب ، وان أصل من قطعني ، وأعطي من حرمني ، وأعفو عمن ظلمني ، وان يكون نطقي ذكرا ، وصمتي فكرا ، ونظري عبرا » . وإذا كان الحديث هنا قد ذكر مادة الاعتبار الذي ينشأ عن التأمل والنظر والتفكر ، فإنه في مقام آخر قد اشار إلى هذا الاعتبار وإن لم يصرح بمادته أو اسمه ، وذلك في قوله : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذي لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ، ولتُبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسَبُنّ على ما تعملون . ولتجزوُنّ بالاحسان إحساناً ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنة أبداً ، او لنار أبداً » .



وإذا رجعنا إلى كتاب « نهج البلاغة » وجدنا الإمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، يكرر الاشارة إلى العبرة والاعتبار ، فنراه مثلاً يقول : « إنما ينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار ، ويقتات منها ببطن الاضطرار ويسمع منها بأذن المقت والابغاض » . وفي موطن ثان يقول :

« او ليس لكم في آثار الأولين مزدجر ، وفي آبائكم الأولين تبصرة ومعتبر ، إن كنتم تعقلون ؟ او لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون ، وإلى الخلف الباقين لا يبقون ؟ او لستم ترون اهل الدنيا يُمسون ويصبحون على احوال شتى ، فميت يُبْكى ، وآخر يعزّى ، وصريع مبتلى ، وعائد يعود ، وآخر بنفسه

يجود ، وطالب للدنيا والموت يطلبه ، وغافـــل وليس بمغفول عنه ، وعلى أثر الماضي يمضي الباقي » .

وفي موطن ثالث يقول : « إن الأمور اذا اشتبهت اعتُبر آخرها بأولها » .
ويعلق على هذا ابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة فيقول : « وذلك ان المقدمات تدل على النتائج ، والأسباب تدل على المسببات ، وطالما كان الشيئان ليسَا علةً ومعلولا ، وإنما بينهما أدنى تناسب ، فيستدل بحال أحدهما على حال الآخر ، وإذا كان كذلك . واشتبهت أمور على العاقل الفطن، ولم يعلم إلى ماذا تؤول ، فانه يستدل على عواقبها بأوائلها ، وعلى خواتمها بفواتحها، كالرعية ذات السلطان الركيك الضعيف السياسة ، إذا ابتـــدأت أمور مملكته تضطرب ، واستبهم على العاقل كيف يكون الحال في المستقبل ، فانه يجب عليــه أن يعتبر أواخرها بأوائلها . ويعلم أنه سيفضي أمر ذلك المُلْك إلى انتشار وانحلال في مستقبل الوقت ، لأن الحركات الأولى منذرة بذلـك ، وواعدة بوقوعـــه ، وهذا واضح » .

وفي موطن رابع يقول الإمام علي « مَنْ حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر ، ومن خاف أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم ».
ويعلق ابن ابي الحديد بأنه قد جاء في الحديث المرفوع : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » . وقوله : « من خاف أمن » أي من اتقى الله أمن عذابـــه يوم القيامة . وقوله : « ومن اعتـــبر أبصر » أي من قاس الأمور بعضها ببعض ، واتعظ بآيات الله وأيامه ، أضاءت بصيرته ، ومن أضاءت بصيرته فهم، ومن فهم علم . فان قيـــل : الفهم هو العلم فما الحاجة الى ان يقول : ومن فهم علم ؟ فالجواب : إن الفهم ها هنا هو معرفة المقدمات ، ولا بـــد أن تعقب معرفة المقدمات معرفةُ النتيجة ، فمعرفة النتيجة هي العلم ، فكأنه قال : من اعتبر تنور قلبه بنور الله تعالى ، ومن تنور قلبه عقل المقدمات البرهانية ، ومن عقل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها ، وتلك هي الثمرة الشريفة التي في مثلها يتنافس المتنافسون .

وفي موطن خامس يقول الإمام : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » . وفي الشرح تأتي هذه العبارة :

« ما أوجز هذه الكلمة ، وما أعظم فائدتها . ولا ريب ان العبر كثيرة جداً ، بل كل شيء في الوجود ففيه عبرة ، ولا ريب أن المعتبرين بها قليلون ، وأن الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى ، وأرداهم [1] حب الدنيا، وأسكرهم خمرها ، وان اليقين في الأصل ضعيف عندهم ، ولولا ضعفه لكانت أحوالهم غير هذه الأحوال » .



هذا وللاعتبار عند الأصحاء من الصوفية شأن وأي شأن ، فان الصوفي الصادق هو خير من ينظر ويفكر ويعتبر ، وخير من يتذكر على الدوام قول القائل :

وفي كل شيء له آية ... تدل على انه الواحد

وما اكثر ما يثيره الاعتبار في نفس هذا المتدبر المعتبر من لواعج الخشية ودوافع التقوى ، ومن هنا رأينا الإمام ابن القيم في كتابه: «مدارج السالكين» يشرح لنا كيف يستلزم الاعتبارُ الانتفاعَ بالعظة عند القوم،فيقول : « الانتفاع بالعظة هو أن يقدح في القلب قادحُ الخوف والرجاء ، فيتحرك للعمل ، طلباً للخلاص من الخوف ، ورغبة في حصول المرجو . والعظة هي الأمر او النهي المعروف بالترغيب والترهيب . والعظة نوعان : عظة بالمسموع وعظة بالمشهود ، فالعظة بالمسموع الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد ، والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحي إليهم ، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا . والعظة بالمشهود الانتفاع بما يراه ويشهده في

---

(١) أرداهم : أهلكهم ، والردى هو الهلاك .

العالم من مواقع العبر وأحكام القدر ومجاريه ، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله .

واما استبصار العبرة فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكر بقوة الاستحضار ، لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر ، فهو يظفر بها بالتفكر ، وتنصقل له وتتجلى بالتذكر ، فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار ، لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب ، اذ الطلب فرع الشعور ، فكلما قوي الشعور بالمحبوب اشتد سفرُ القلب اليه ، وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعورُ به ، والتبصر فيه ، والتذكر له » .

ويقول ابو عبد الله السجزي الصوفي : « العبرة أن تجعل كلّ حاضر غائباً ، والفكرة ان تجعل كل غائب حاضراً » . ويا لها من طاقة روحية اخلاقية لا يقتدر عليها الا السابقون في التحلي بمكارم الأخلاق . وكذلك يقول حاتم الأصم الصوفي : « الشهوة ثلاثة : شهوة في الأكل ، وشهوة في الكلام ، وشهوة في النظر ، فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة » .

نسأل الله جل جلاله أن يجعلنا من اهل العبرة والاعتبار : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، او ألقى السمع وهو شهيد » .

التــذكر

كلمة « التذكر » مشتقة من مادة الذكر ، والذكر ضد النسيان ، يقـال : ذكرت الشيء ، خلاف نسيته ، ثم حملوا عليه الذكر باللسان ، وانما سموا الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالةٌ على الذكر القلبي ، غير أنه لمـا كثر اطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق الى الفهم . وهم يقولون : اجعل هذا الشيء منك على ذُكْر — بضم الذال — أي لا تنسه ، والذكر أيضاً يراد به العلاء والشرف ، ومنه قوله تعالى في سورة الزخرف : « وانه لذكر لك ولقومك » .

والذكر يقال تارة ويراد به هيئةُ النفس التي يمكن بهـا أن يحفظ الإنسان ما يقتنيه من المعرفة ، ويقال أيضاً لحضور الشيء في القلب ، وقد يكون الذكر عن نسيان، وقد يكون عن ادامة الحفظ،أي استحضار شيء منسي أو غائب ، أو الاحتفاظ بشيء موجود قائم . ويقول الطبرسي في تفسيره : الذكر حضور المعنى للنفس ، وقد يكون بالقلب ، وقد يكون بالقول ، وكلاهما يحضر بـه المعنى للنفس ، وفي أكثر الاستعمال يقال : الذكر بعد النسيان ، وليس ذلـك بموجب أن لا يكون الا بعد نسيان، لأن كلَّ مَنْ حضره المعنى بالقول أو العقد أو الخطور بالبال ذاكرٌ له ،وأصله التنبه على الشيء،فمن ذكرته شيئاً فقد نبهته عليه ، وإذا ذكر بنفسه فقد تنبّه عليه .

والفرق بين الذكر والخاطر هو أن الخاطر ما يمر بالقلب ، ولكن الذكر كما عرفنا قد يكون بالقلب والقول . والتذكر — في عُرْف الأخلاق — فضيـلة تجعل الإنسان حيّ القلب يقـظ الضمير ، مرهف الإحساس رقيق الشعور .

فكأن في داخله ميزاناً دقيقاً عميقاً ، يتأثر بما يمر عليه أو يصل إليه ، فإذا هو يتذكر جمال الفضائل ويسعى إليها . ويتذكر قبح الرذائل وينفر منها ، وإذا حاول الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس أن يدخل على الإنسان بخديعة أو تغرير ، ليُضله عن السواء السبيل ، أو ليشغله عن واجباته الدينية والدنيوية تنبه وتيقظ وتذكر ، فإذا التذكر يصده عن الخطأ ، ويصونه عن الانحراف ، ويثبته على طريق الاستقامة ، وكأن هذا التذكر قد صار ناقوس تحذير مستمر ، فهو شبيه بالساعة الالهية الدقاقة في صدر الانسان ، وهي « القلب » لا تزال دقاتها تُشعر صاحبَها بأنه من الأحياء .

ولقد حدثنا ربنا جل جلاله بأن وظيفة القرآن الكريم في الوجود هي إحياء التذكر في النفوس حتى تعقل وتؤمن وتعمل وتستقيم وتلتزم الخير وتجتنب الشر فقال في سورة ص : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » . وقال في سورة الأنعام : « وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذّكرون » . وقال في سورة الإسراء : « ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذّكروا » . وقال في سورة طه : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا » . وقال في سورة الدخان : « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » . وقال في سورة طه : « طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى » . وقال في سورة الحاقة : « وإنه لتذكرة المتقين » . والتذكرة هي ما يتذكر به الانسان الشيء المنسيّ ، أو يستديم به تذكر الشيء المذكور المستحق لدوام تذكره ، فيكون من المتجملين بفضيلة التذكر ، ويكون قد استجاب لنداء الحق المكرر في سورة القمر : « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر » ؟!

والقرآن المجيد يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن وظيفته هي التذكير المحقق للتذكر عند كل مستجيب مؤمن ، فيقول الله جل جلاله لرسوله في سورة الطور : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » ، ويقول في سورة الغاشية : « فذكر إنما أنت مذكر » .

ولقد حض القرآن الكريم على فضيلة التذكر ، وأمر بها ، وندب إليها ، ورغّب فيها ، فجاء في سورتي الأنعام والسجدة قوله : « أفلا تتذكرون » ، وجاء قوله : « أفلا تذكّرون » سبع مرات ، وجاء قوله : « لعلكم تذكرون» ست مرات ، وجاء قوله : « لعلهم يتذكرون » ... الخ . ويتنقل القرآن إلى أسلوب آخر من أساليب الحث على التذكر والدعوة إليـــه ، ولفت البصائر لشأنه ، فيقول : « كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره » .

وكتاب الله الحكيم يرشدنا إلى أن التذكر القويم يحتـــاج إلى فهم ووعي وتبصر ، حتى ينتفع الإنسان بالتذكرة ويستجيب لها على وجه سليم ، ولذلـك يقول القرآن ضمن صفات عباد الرحمن المذكورة في سورة الفرقان : « والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » والمعنى كما يقول المفسرون أنهم لم يقيموا عليها غير واعين لها ، ولا متبصرين بما فيها، كمن لا يسمع ولا يبصر بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون واعية ، فالمراد من النفي هنا نفي الحال لا نفي الفعل .

ولذلك كان من شأن أهل التذكر البصير أن يسارعوا إلى مواطن العبـادة والطاعة ، حينما تنفحهم نفحات الذكرى والتذكرة ، كما يقـول الحق في سورة السجدة : « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خروا سُجّداً ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ، أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » .

وأهل التذكر والذكرى ليسوا كل من هبّ ودب ، بل هم خواص لهم صفات إذا تحلوا بها جاءتهم الذكرى على وجهها فنفعت وأفادت ، ومن هذه الصفات أن يكونوا أصحاب عقل خالص من الشوائب . ولذلك كرر القرآن قوله : « إنما يتذكر أولو الألباب » ، وأن يكونوا أهل استجابة بقلوبهم وأسماعهم ، ولذلك يقول القرآن في سورة ق: « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ، وأن يكونوا من أهـــل الانابة ، وهي الرجوع إلى الله بالتوبة

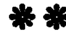
وإخلاص العمل ، ولذلك قال كتاب الله تعالى في سورة غافر : « وما يتذكر إلا من ينيب » وقال في سورة الشورى : « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » . وقال في سورة ق : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

وأن يكونوا من أهل الإيمان ، لأن الله تعالى يقول في سورة الذاريات : «وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» وأن يكونوا من أهل الخشية ، لأن القرآن يقول في سورة الأعلى : « فذكّر إن نفعت الذكرى ، سيذكّر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » . وأن يكونوا ممن يخافون عذاب الله ويرجون رحمته ، لأنه سبحانه يقول في سورة ق: « فذكر بالقران من يخاف وعيد » . وأن يكونوا من أهل التقوى ، لأن الحق جل جلاله يقول في سورة الأعراف : « إن الذين اتقـــوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

والقران المجيد يهدد أشد التهديد أولئـــك الذين يهيء أمامهم باب التذكر ولا يتذكرون ، والذين يثير فيهم عوامل الذكرى ولا يستجيبون ، فيقول في سورة السجدة :«ومن أظلم ممن ذُكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون». ويقول في سورة المائدة:«ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذُكّروا به فأغرينا بينهم العـــداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » ويقول في سورة الأنعام : « فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » أي آيسون أو مكتئبون . ويقول في سورة الأعراف :« فلما نسوا ما ذكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » . ويقول عـن الكافرين في سورة الصافات : « وإذا ذُكّروا لا يذكرون » . ويقول في سورة الكهف : « ومن أظـلم ممن ذُكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتـدوا إذن أبداً » . ويقول عن المكذبين بيوم الدين،الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، يقول عنهم في

سورة المدثر : « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » أي كأنهم حمير وحشية هاربة بسرعة من الأسد .

والتذكر المفيد النافع هو الذي يأتي في أوانه ومكانه ، وأما إذا فات ميقاته وبَعُدَ مكانه فإنه يصير حسرةً أو ندما لاذعا ، وهذا مما نتعلمه من القرآن الكريم حيث يقول في سورة الفجر : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان ، وأنىّ له الذكرى ؟ يقول : يا ليتني قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » .



وإذا كان التذكر منازلَ ودرجات، فأعلى هذه المنازل وقمةُ تلك الدرجات هي تذكر جلال الله تعالى ، واستحضار عظمته وقدرته ، وهذا ما يعبَّر عنه بكلمة « ذكر الله » وذكر الله هو تمجيده سبحانه وتقديسه ، اعتقاداً وتعبدا ، وهو تسبيحه وتنزيهه والثناء عليه بجميع محامده ، لأن هذا الذكر هو الاساس المتين والركن الركين ، والقرآن يقول في سورة الرعد : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وقد أخبر القرآن أن ذكر الله تعالى هو طريق الفلاح ، فقال في سورة الأعلى : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » . وأخبر أن ذكر الله المحيي للقلوب والضمائر هو طريق المغفرة ومفتاح الجنة ، فقال في سورة آل عمران : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

وهناك كثير من الناس يظنون أن ذكر الله مقصور على ترديد أسمائه وصفاته

سبحانه ، حتى ولو لم يكن مع هذا الترديد تدبر أو تذكر بالقلب ، وهذا خطأ فاحش ، فقد نقل القرطبي في تفسيره حديثاً يقول : « من أطاع الله فقد ذكر الله ، وإن أقلّ صلاته وصومه وصنيعه للخير . ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثّر صلاته وصومه وصنيعه للخير » . ويقول سعيد بن جبير : « الذكر طاعة الله ، فمن لم يطعه لم يذكره ، وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن » . وليس بمعقول أن يكون مجردُ ترديد اللسان لكلمات الذكر ، دون وعي أو تنبه أو تأثر ، هو المطلوب شرعاً أو عقلا من ذكر الله عز وجل ، وكيف والله جل جلاله يقول في سورة البقرة : « فاذكروني أذكركم ، وأشكروا لي ولا تكفرون » . وذكر الله لعبده هو تشريف للعبد أي تشريف ، لأن الله سيذكره بالرضى والقبول ، والتوفيق والتأييد ، ولا يتصور عاقل أن يكون ثمن هذا هو تحريك اللسان بكلمات والقلبُ غافلٌ في سكرات .

والآية الكريمة السابقة تذكرنا بما رُوي عن ثابت البناني حيث قال لمن حوله : إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجل ، فعجبوا منه وقالوا له : كيف تعلم ذلك ؟ . فقال : إذا ذكرته ذكرني ، لأنه يقول : « فاذكروني أذكركم » . وقد نسبوا مثل هذا إلى أبي عثمان النهدي أيضاً .

والقرآن الحكيم يؤكد الدعوة إلى ذكر الله . ففي سورة البقرة : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » . وفيها : « واذكروا الله في أيام معدودات » وهي أيام التشريق في عيد الأضحى . وفي سورة آل عمران : « واذكر ربك وسبح بالعشيّ والابكار » . وفي سورة الكهف : « واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا » .

ويعلمنا كتاب الله المجيد أن ذكر الله يكون على كل حال : فيقول في سورة آل عمران : « الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم » . ويقول في الأعراف : « واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين » . وهذا التركيز القرآني الواضح على ذكر الله

يرجع إلى أن ذكر الله هو مبعث كل تذكر حميد ، وهو العـــلاج ليقظة القلب وتنبه الضمير .

وبفضيلة التذكر يتذكر الانسان ما عليه من واجبات فيؤديها ، وما له من حقوق فيبحث عنها ، وما فيه من عيوب فيصلحها ، ويتذكر حسناته فيحمد الله عليها ، ويرجوه المزيد منها، ويتذكر سيئاته فيندم عليها ويقلع عنها، ويمحو آثارها بالطيبات : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .

العبودية لله

وتقول اللغة العربية — لغة القرآن الكريم — إن « العبد » هو الانسان حراً كان أو رقيقاً ، لأن الانسان مربوب الله عز وجل ، و « العبودية » هي إظهار التذلل ، لأنه يقال : طريق معبّد ، أي مذلّل بالمشي فيه ، ويقال : بعير معبّد أي مذلل ، وعبّدت فلانا أذللته ، ومن ذلك قول القرآن المجيد : « أن عبّدت بني إسرائيل » .

و « العبادة » أبلغ من العبودية ، لأن العبادة هي غاية التذلل ، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال ، وهو الله جل جلاله ، ولذلك قالوا إن العبادة هي الحب بغاية الذل والخضوع ، والتعبد هو التذلل والخضوع .

وكلمة « العبد » تطلق بمعنى المملوك ، وبمعنى الذي تستعبده الدنيا ، فيعكف على شهواتها وخدمتها ، وبمعنى المخلوق الذي أوجده الله وخلقه ، وبمعنى الذي يعبد الله مخلصاً ، ويستشعر روح الخضوع له دائماً ، وهذا المعنى الأخير هو المناسب للمجال الأخلاقي الذي نستعرض فيه عِقْدَ الفضائل التي دعا اليها القرآن .

ولقد ذكر القرآن الكريم مادةَ العبودية والعبادة في عشرات من الآيات ، وأرشدنا الى أن العبادة لله هي غاية العباد التي خلقهم لها ، فذلك حيث يقول في سورة الذاريات : « وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ، وهذه

العبادة يجب أن تكون مقصورة على الله ، ومن هنـا نهى الحديث عما يُشْعِر ـ ولو في الظاهر ـ بأن هناك عبودية لغير الله ، فقال : « لا يقل أحدكم لمملوكه : عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي » لأن المستحق لذلك انما هـو الله وحده لأنه رب العباد .

والعبودية نوعان : عامة وخاصة ، فالعبودية العامة هي خضوع أهل الأرض والسموات كلهم لجلال الله وقهره ، وقد أشار القرآن إلى هذا النوع في قوله في سورة مريم : « إنْ كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا » .

والعبودية الخاصة هي عبودية الطاعة والمحبة ، وإليها الإشارة بقوله تعالى : « فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فهؤلاء العباد هم الذين خضعوا لربهم طوعاً واختيارا .

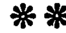
و « العبودية » حلية المؤمن الذي يوقن بوحدانية ربه ،ويوقن بلقائه وجزائه فهو يستعد دائماً لهـذا اللقاء بالعمل الصالح ، واجتناب الاشراك بالله سبحانه ، ولذلك يقول القرآن في سورة الكهف : « فمن كان يرجو لقـــاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ، ويقول في سورة البينة : « ومـا أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ،وذلك دين القيمة » .

ولسموّ فضيلة « العبودية » جعلها القرآن الكريم صفة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، فقال في سورة البقرة : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » ، وقال في سورة الإسراء : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » . وقال في سورة الكهف : «الحمـــد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » . وقال في سورة الفرقان : « تبـــارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . وقال في سورة الجن : « وأنه لمـــا

قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا[1] » . وقـــال في سورة الأنفال : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » .

والعبد المراد في هذه الآيات الكريمة هـو رحمة الله للعالمين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان من الممكن أن تصفه الآيات هنا بالنبوة أو الرسالة أو الرحمة أو غير ذلك من الصفـــات السامية الدالة عليه ، ولكن الآيات آثرت وصفه في هذه المواطن الشريفة الكريمة بصفة « العبودية » . لأنها أشرف الفضائل التي يفخر بها رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه أمام خالقه تبارك وتعالى .

ومن هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » وحينما سألته عائشة عن اجتهاده في طاعة ربه وقد غـُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أجاب : « يا عائشة ، أفلا أكون عبداً شكورا » .



وكذلك جعـــل القرآن الكريم فضيلة « العبودية » صفةً وخُلـُقا للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فقال في سورة ص عـن داود : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » . وقال في السورة نفسها عن سليمان : « نعم العبد إنه أواب » . وقال فيها عن أيوب : « واذكر عبدنا أيوب » . وقال فيها : « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار » . وقال عن زكريا في سورة مريم : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » . وقال في السورة ذاتها عن عيسى : « قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا » . وقـــال في سورة الاسراء عن نوح : « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا » . وقال في سورة التحريم مشيراً الى نوح ولوط : « كانتا تحت عبدين من عبـــادنا صالحين » .

---

(١) لبدا : جموعا متزاحمة متراكمة عليه .

ويمضي القرآن بعد هذا في التنويه بشأن فضيلة العبودية فيصف بها «الخضر» حيث يقول في سورة الكهف : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

ثم يصف بها الأبرار الأخيار من المؤمنين المستجيبين لله تعالى ، فيقول في سورة الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » إلى آخر السورة ، ويقول في سورة الزخرف : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » . ويقول في سورة الاسراء مخاطباً الشيطان : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » .

وهكذا يشعرنا حديث القرآن عن العبودية بأنها إحدى المنازل السامية التي يتطلع اليها الأبرار من المؤمنين ، ويفاخرون بها ، ولذلك قال قائلهم يناجي ربه عز وجل :

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدتُ بإخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك :«ياعبادي» وأن صيّرت أحمد لي نبيا

ولا عجب فالعبودية هي أعلى مراتب الدين وأرقى درجات الطاعة ، والى هذا يشير قولُ سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك » .

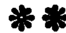
والعبودية صفة تؤدي بالانسان إلى أن يعبد ربّه في كل مقام بما يناسب ذلك المقام ، فيتحقق من وراء ذلك خير كثير موصول ، ولذلك يذكر ابن القيم في « مدارج السالكين » إن أفضل العبادة العملُ على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فاذا أدى العبد ما يناسب الوقت أو الحال من طاعة تلائمه وتناسبه كان على أفضل العبادة ، ففي وقت الجهاد يشغل نفسه بالقتال والنضال ، وعند حلول الضيف يقوم بواجبه ، ومع الزوجة والأهل يكون حسن المعاملة لهم ، وفي وقت تعليم الجاهل يقبل على إرشاده وتعليمه ، وعند الأذان تظهر منه الاستجابة والتلبية ، وعند حلول الصلوات يقيمها على

وجهها ويخشع فيها ، وعند الحـــاجة إلى العون يغيث الملهوف وينجد المكروب ويساعد المحتاج ، وعند تلاوة القرآن يقبل عليه ويتدبره ويخشع له ، وهكذا .

ويرى ابن القيم أن هذا هو التعبد المطلق ، وهو شغل كل وقت بـما يناسبه من طاعة وعبادة . ويقول : « وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمداره تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عملَ على سيره اليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى .

فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ، فان رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العُبّاد رأيته معهم ، وإن رأيت المجـــاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أربابَ الجمعية وعكوف القلوب على الله رأيته معهم ، فهذا هـــو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتهـــا من العبادات ، بل هـــو على مراد ربّه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه » .

ومعنى هذا أن الذي تتحقق له فضيلة « العبودية » يكون دائماً مـــع الله ، ساعياً في سبيل الله ، خـــادماً لعباد الله ، مظهراً السكينة والتذلل لجلال الله ، نائياً عن الفساد والافساد في أرض الله ، مسخراً كلَّ طاقاته في العمل بطاعة الله ، ففيه عبودية اللسان الذي ينطق بذكر الله ، ويرتل كلام الله ، ويتعود الكلمة الطيبة ، فيدعو الى الخير ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وفيه عبودية السمع ، فيصغي الى ما يجب استماعه من توجيه أو نصح أو إرشاد ، وهـــو يتذكر قول ربه عز من قـــائل : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » ، وقوله عن خيار عباده : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، وفيه عبودية النظر ، فلا ينظر إلا ما يحسن به النظرُ اليه ، وهو لا ينسى قولَ خالقه : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » .

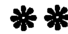


والعبودية حين تتحقق لصاحبها على حقيقتها ووجهها السليم الكريم تجعله من حزب الأتقياء الأوفياء المسارعين الى المغفرة والطاعة ، والذين يصفهم الإمام علي في « نهج البلاغة » فيقول عنهم فيما يقول :

« قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسّرها لهم ربهم . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ، أما الليل فصافّون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن ، يرتلونه ترتيلا ، يحزنون به أنفسهم ، ويستثيرون دواء دائهم .

فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعاً ، وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً ، وظنوا أنها نصب أعينهم . وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامعَ قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ،مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ،يطّلبون الى الله تعالى في فكاك رقابهم .

وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف بَرْيَ القداح (السهام) ، ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضَى ،وما بالقوم من مرض، ويقول قد خولطوا (جُنُّوا) ولقد خالطهم أمر عظيم . لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زُكّي أحدهم خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري ، وربي أعلم بي مني بنفسي ، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني أفضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون » الخ .



ثم يأتي حديث الصوفية عن فضيلة « العبودية » ، فإذا هو حديث الذين يريدون أن نفهم عنهم أن العبودية ليست مجرد القيام بالشعائر والعبادات ، ولا مجرد الترديد للأوراد والأحزاب ، ولا مجرد الظهور بالخشوع والهدوء ، وإنما

العبودية في فهمهم إيمانٌ عميق ، وفهم دقيق ، وارتباط بالله وثيق ، ووفاء لا يخالطه ضعف ، وإسلام لله لا يخالطه إعراض ، وإزهاق للنزوات والرغبات ، مع إحياء للاجتهاد في القربات والطاعات ، ولذلك يقول أبو العباس السياري الصوفي : « العبودية معرفة المعبود، والقيام بالعهود » . ويقول الحارث المحاسبي : « صفة العبودية ألا ترى لنفسك ملكا ، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعا » .

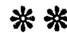
ولقد سئل أبو حفص النيسابوري عن العبودية ، فقال : « ترك الذي لك ، والتزام ما أُمرت به » . ويقول أحمد بن خضرويه البلخي : « في الحرية تمام العبودية ، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية » . وهذه العبارة تذكر في بيتين للمرحوم عبد الوهاب عزام – وكان صاحب ذوق صوفي – يقول فيهما :

قيّد الحرُّ نفسَه بهداه   وأبى في الحياة قيدَ سواه
وترى العبدَ راضياً كلَّ قيد   غير تقييد نفسه عن هواه

ويقول محمد بن علي الترمذي : « من جهل أوصافَ العبودية فهو بنعوت الربوبية أجهل » . ثم يقبل علينا أبو عبدالله محمد بن إسماعيل المغربي ، الذي كان أستاذاً للخواص وإبراهيم بن شيبان ، والذي مات سنة تسع وتسعين ومائتين . يقبل علينا أبو عبدالله ليحدثنا عن العبودية في فهمه حديثاً فيه دقة وعمق ، فيقول : « من ادعى العبودية وله مراد باقٍ فيه فهو كاذب في دعواه ، إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته ، وقام بمراد سيده ، يكون اسمه ما سُمِّي به ، ونعته ما حُلِّي به ، إذا سُمِّي باسم أجاب عن العبودية ، فلا اسم له ولا وَسْم ، لا يجيب إلا لمن يدعوه بعبودية سيده » .

يقول أبو عبدالله هذا ، ثم يبكي ويقول :

لا تدعني إلا « بيا عبدها »   فإنها أصدق أسمائي !!



وبعد ، فان القرآن الكريم يدعونا إلى إخلاص العبودية لله رب العالمين ،

لأنه لا معبـــود بحق سواه ، ولا معــين لنا غيره ، فيقول : « إياك نعبد وإياك نستعين » ، ويأمرنا بأن نظل على هـــذه العبودية من المبدأ الى المــآل فيقول في سورة الحجر « واعبد ربــك حتى يأتيك اليقـــين » . ويجعــل غاية اهل العبودية أشرف غـــاية ، ونهايتهم أسعد نهاية ، فيقول في سورة الفجر : « يا أيتهـــا النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

الخوف من الله

الخوف خُلُق من أخلاق القرآن الكريم ، نبّه عليه ، ودعا اليه ، وأمرَ به ، فقال : « وخافون إن كنتم مؤمنين » ، وقال : « فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » . وقال عن عباد الله الأبرار : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » . وهذا الخوف المحمود الذي يدعو اليه القرآن يقابله ضدّه وهو « الأمن » القائم على الاغترار او الكفران او الجهل ، وقد نفّر منه القرآن وحذّر ، فقال : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

وقال : « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » .

والخوف في اللغة هو الفزع ، وفي اصطلاح العلماء هو توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء هو توقع شيء محبوب عن أمارة مظنونة او معلومة ، وقال الإمام الغزالي عن الخوف إنه تألم القلب واحتراقُه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، ويظهر أثرُ ذلك في الأعمال والأقوال والصورة ، كما وردت أقوال أخرى في تصوير معنى الخوف ، فقيل : هو اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف . وقيل : هو هرب القلب من حلول المكروه عند

استشعاره ، وقيل : هو قوة العلم بمجاري الأحكام .

ولقد تكررت الدعوة الى الخوف من الله عز وجل في القرآن الكريم ،فجاء قوله تعالى : « واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة » . وقال : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » . وأكد كتابُ الله المجيد توجيهَه الى الخوف من مقام الله جل جلاله ، فقال : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » . وقال : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » . وقال : « ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » . والمَقَام في الأصل هو مصدر القيام ، وهو أيضاً مكان القيام وزمانه ، ولقد قيل في تفسير « مقام الله » قولان ، أولها أنه المقام الذي يقوم فيه العبد بين يدي ربه لعبادته ، كما يقال هذا معبد الله ، وهذا معبد الباري ، أي المكان الذي يقوم فيه العبد بعبادة الله تعالى .

والقول الآخر أن مقام الله تعالى يراد به الموضع الذي يقوم الله فيه على عباده ، وهو غير محدود ، وذلك يدل عليه قوله تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » أي حافظ ومطّلع .

وقد كرر القرآن ذكرَ الخوف من يوم الحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ، فقال في سورة هود : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » ، وقال في سورة الرعد : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوءَ الحساب » . وقال في سورة الأنعام « قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » . وقال في سورة الانسان : « إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا[1] » .

وهذا الخوف الذي يدعو اليه القرآن ويمجّد شأنه إنما هو الخوف القائم على المراقبة لله ، والخضوعِ لأمره ، والخشيةِ من عقابه ، وليس معنى هذا أن القرآن يرتضي لأهله الخوفَ بمعنى الذل أو الهوان ، أو تهيب أحد من الناس ،

---

(١) قمطريرا : شديد العبوس .

بل إنه حين يدعو أهله إلى الخوف من الله ، يحررهم بذلك من الخوف لغيره ، أو الذل لسواه ، ويحررهم من كل أنواع الخوف الأخرى ، ولذلك يقول : « فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أي لا يلحقهم خوف من أهوال يوم القيـــامة ، ولا هم يحزنون على فوات الثواب ، وقيل في المعنى : إنه لا خوف عليهم من وسوسة الشيطان ، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران ، فهم لا يخافون مما هو آت ، ولا يحزنون على ما فــات ، لأن اتباع الهدى يسهّل عليهم طرقَ اكتساب الخيرات .

وكذلك يقول القرآن : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ، وقال في سورة طه : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . ويقول في سورة يونس : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والخوف من الله ومن حسابه وعقابه ومحارمه فرضٌ على كل مؤمن كما قرر العلماء ، مستدلين على ذلك بقوله تعالى : « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » . وهذا الخوف من الله يستلزم عند صدقه الرجوعَ إلى الله ، والاعتصامَ بحبله وبابه ، ولذلك قال أبو حفص النيسابوري : « الخوف سوط الله يقوّم الشاردين عن بابه » . وقال الغزالي . « الخوف سوط الله يسوق به عبادَه إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى » . وما دام القلب مستشعراً روحَ الخوف من الله فانه يظل عامراً بالايمان واليقين ، ومن هنا قال أبو سليمان الداراني . « ما فارق الخوفُ قلباً إلا خَرِبَ » .

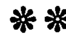
وليس المراد من خوف الانسان لله تعالى ما يخطر بالبال من الرعب ، كاستشعار الخوف من الأسد مثلا ، بل يراد به — كما قال الأصفهاني — الكف عن المعاصي واختيار الطاعات ، ولذلك صدقوا حين قالوا . لا يُعَدُّ خـائفاً مَنْ لم يكن للذنوب تاركاً . كما أن الخوف من الله ليس شكلا خارجياً يتمثل في صيحة أو أنـّة أو رنـّة ، فليس الخائف مَنْ يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن

يعاقَب عليه ، وقد قيل لذي النون : متى يكون العبد خائفاً ؟ . فقال : إذا نزّل نفسَهُ منزلَة السقيم الذي يحتمي مخافَةَ طولِ السقام .

والخوف من الله ليس هربا منه ، أو إعراضاً عنه ، بل هو قوة احساس بعظمته وهيبته ، وجلاله وحقّه ، وقوةُ عزيمة في الإقبال عليه ، ليكون الانسان أهلا لقبوله ومرضاته ، فاذا صدقتَ في خوفك من الله زدتَ لجوءاً إليه واعتصاماً بحبله ، وذلك بخلاف خوفك من غيره ، فالانسان إذا خاف شيئاً آخرَ غيرَ الله بعدَ عنه وهربَ منه .

والصادق في خوفه من الله يبذل غايةَ جهده في التحرر من المعصية ،وفي القيام بالطاعات والقربات ، ومع ذلك يخاف ألاّ يبلغ بجهده وعمله مرتبةَ المقبولين الذين يقول الله تعالى فيهم : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه » ولقد جاء في السنة المطهرة أن السيدة عائشة رضي الله عنها سألت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون » فقالت : يا رسول الله ، قول الله : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة »أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟.قال : لا يا ابنةَ الصدّيق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ، ويخاف أن لا يُقبَلَ منه .

وقد قال الحسن في شأن هؤلاء : عملوا واللهِ بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن تُرَدّ عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ،والمنافق جمع إساءة وأمنا .



والدواعي التي تدعو الانسان الى استشعار الخوف من الله جلّ جلاله كثيرة ، وقد أحصى حجة الاسلام الغزالي مجموعةً منها ، فذكر أن هناك مكروهات كثيرة يخافها الناس ، كالذين يغلب عليهم خوفُ الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة بعد القيام بها ، ونكث العهد بعد

ربط النفس به ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقسوة ، أو خوف الميل عن طريق الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكِلَه الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها أو تفاخر بها بين عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله تعالى عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج باتصال النعم وتواترها ، أو خوف انكشاف غوائل الطاعات ، حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده بسبب الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء .

أو خوف ما لا يدري أنه يَحْدُثُ في بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عن الله ، أو خوف خاتمة السوء عند الموت ، أو خوف السابقة التي سبقت عليه في الأزل .

ولقد ذكر الغزالي أن أغلب أنواع الخوف على اليقين هو خوفُ سوءِ الخاتمة ، والمراد من سوء الخاتمة هو أن يغلب على القلب – عند سكرات الموت وظهور أهله – الشك أو الجحود ، فتُقبض الروحُ في حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ذلك حجاباً بين الانسان وربِّه ، وذلك يقتضي البعدَ الدائم والعذاب الخالد وربما وقع سوء الخاتمة بأن يغلب على قلب الانسان عند الموت حبُّ أمر من أمور الدنيا ، أو شهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستحوذ عليه ، فلا يبقى فيه متسع لغيره ، ويتفق قبضُ الروح في تلك الحالة ، فيكون ذلك سبباً في صرف وجهه وقلبه إلى شهوات الدنيا ، وإذا انصرف وجهُ الانسان عن ربه وقع الحجاب ، وإذا وقع الحجاب ، نزل العذاب ، والقرآن يقول : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم » .

فعلى المؤمن إذن أن يواصل استشعارَ الخوف من الله والوجل لذكره ، والخشية من عقابه ، وليتذكر قول ربه : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله

وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمـــانا وعلى ربهم يتوكلون » .
وكذلك يقول الحق جل جلاله : « وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

وليتذكر المؤمنُ المتحلي بفضيلة الخوف من ربه أن سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشدَّ المؤمنين خوفاً من الله ، وهيبة له ، وخشية من جلاله ، مع أنه المغفور له من ربه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ،وهو القائل: «شيّبتني هود وأخواتها : سورة الواقعة ، وإذا الشمس كورت ، وعم يتساءلون » . وقد ذكر العلمـــاء أن سبب ذلك – والله أعلم – يرجع الى ما في سورة هود من تكرار الإبعاد . كقوله تعـــالى : « ألا بُعْداً لعاد قوم هود » . وقوله : « ألا بُعْداً لثمود » . وقوله : « ألا بُعْداً لمدين كما بعدت ثمود » .

ولأن سورة الواقعة جاء فيها قوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة ، خـــافضة رافعة » ، ولأن سورة التكوير جاء فيها تصوير لأهوال يوم القيامة ، كما في قوله تعالى : « وإذ الجحيم سُعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت » . ولأن سورة النبأ « عمّ يتساءلون » فيها قوله تعالى : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا» .وقوله : « إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا » .

* * *

ولا شك أن يقظة الخوف في نفس المؤمن تثمر عنده تجنّبه الشهوات وابتعادَه عن الآثام ، ولعل هذا هو ما قصده العلماء بقولهم إن الخوف المحمود الصادق هو ما منع صاحبَه محارمَ الله عز وجل ، ومن هنا قال إبراهيم بن سفيـــان : « إذا سكن الخوف القلوبَ أحرق مواضعَ الشهوات منها ، وطرد الدنيا عنهـــا » .
وقال ذو النون : « الناس على الطريق (أي مستقيمون عليه) ما لم يَزُلْ عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضَلّوا الطريق » .

كما أن صدق الخوف في نفس المؤمن يجعله مالكاً لمفتاح السعادة الأبدية التي ليس بعدها سعادة ، وهي الفوز برضى الله تعالى ونعيمه في دار الخلود ، ولقد كان حجة الاسلام بارعاً حين صوّر ذلك بعبارة بليغة مترابطة الأجزاء متوالية الخطوات على هذا النحو : « لا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه ، فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته ، والأنس به في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن تركُ المشتهيات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف » .

وإذا واصلنا قراءاتنا في كتب السلف فيما يتصل بالخوف وجدنا جملةَ ألفاظ متقاربة ، وإن لم تكن مترادفة ، ومنها : الخوف ، والخشية ، والرهبة ، والوجل ، والهيبة ، وقد قالوا في التفرقة الدقيقة بينها إن الخوف هرب من حلول المكروه عند استشعاره ، وهو لعامة المؤمنين ، وصاحبُه يلتجىء إلى الهرب والامساك . والخشية أخص من الخوف ، وهي للعلماء العارفين بالله ، المشار اليهم بقوله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » ، وصاحب الخشية يلتجىء إلى الاعتصام بالله ، وعلى قدر العلم تكون الخشية ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام » إني لأعلمُكم بالله وأشدُّكم له خشيةً » .

وقد فرقوا بين الخوف والخشية ، فقالوا إن الخوف خشيةٌ سببها ذلُّ الخاشي ، وإن الخشية خوف سببه عظمة المخشيّ ، ولذلك كان العلماء بالله أكثرَ خشية ، لأنهم عرفوا عظمةَ الله فخافوه ، لا لذل منهم ، بل لعظمة جانب الله . والعبد إذا نظر الى نفسه وجدها في غاية الضعف ، فيشعر بالخوف ، وإذا نظر الى حضرة الله تعالى رآها في غاية العظمة فيشعر بالخشية ، ودرجةُ الخشية

فوق درجة الخوف ، وإن قربت منها واتصلت بها .

وأما الرهبة فهي الإمعان في الهروب من المكروه ، ولذلك قيل إن الرهب والهرب بينهما تناسب في اللفظ والمعنى ، وتناسب اللفظ يأتي من ناحية الاشتقاق الأكبر ، وكل لفظين شملهما هذا الاشتقاق يكون بينهما اشتراكٌ في المعنى العام .

وأما الوجل فهو رجَفان القلب وانصداعُه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته ، والهيبة خوف يقارن التعظيمَ والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة ، لأن الإجلال تعظيم مقرون بالحب ، ولذلك قالوا : الهيبة للمحبين والاجلال للمقربين .

والهيبة المقرونة بالحب تذكرنا بما جاء في حديث عمر رضي الله عنه ، وهو قوله : « نعم العبد صُهَيْب لو لم يخف الله لم يعصه » . أي أنه يطيع الله حبّاً له لا خوفاً من عقابه فقط ، فلو لم يكن هناك عقاب يخافه ما عصى لله ، ففي الكلام محذوف تقديره : لو لم يخف الله لم يعصه ، فكيف وقد خافه ؟ .



والخوف صفة تحتاج الى « الوسطية » أي التوسط والاعتدال ، إذ لا يليق أن يقل الخوف عند الانسان حتى يقرب من درجة الغلظة أو الاستخفاف ، ولا يجوز أن يسرف فيه صاحبُه حتى يقرب من اليأس أو القنوط ، والله يقول في سورة الاسراء : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً » . ويقول عن بعض أنبيائه في سورة الأنبياء : « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » . ويقول عن

المستقيم من عبـــاده : « أمن هـو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمـة ربه » . فالخائف ينبغي له ليستقيم على الصراط أن يوازن بـين الخوف والرجـاء .

وهذا يؤدي بنا الى بحث أمرٍ يتعلق بموضوعنا ، ويدور حول السؤال التالي: أيجعل الانسان الخوفَ أكثر أم يجعل الرجـــاء أكثر ؟ . ولقد قال السلف إنه ينبغي تغليب الخوف على الرجاء مـا دام الانسان يغدو ويروح في الدنيا ، فإذا خرج منها حَسُنَ به تغليب الرجاء على الخوف عند ذلك .

وقال آخرون : ينبغي أن يكون الغالب على القلب هـــو الخوف ، ويرى آخرون أن أكمل الأحوال هو اعتدال الرجاء والخوف ، وللامـــام ابن القيم عبارة جميلة في هذا المقام يقول فيها : « القلب في سيره إلى الله عز وجـل بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ،والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قُطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر » .

ويرى الامـــام الغزالي في المسألة رأياً آخر له وجـــاهته ، فهو يرى أن الخوف والرجـــاء دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغـــالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار بـــه ، فالخوف أفضـــل ، وإن كان الأغلـب هـو اليأس والقنوط من رحمـة الله فالرجـاء أفضـــل ،وكذلك إن كان الغالب على الانسان المعصيةُ فالخوف أفضل ، ثم يرى حجـــةُ الاسلام أن الأصلح لأكثر الناس هو الخوف لغلبة المعاصي عليهم .

وبعد ، فالخوف من الله أدبٌ من آداب الاسلام ، وخُلـُق من أخلاق القرآن، وفضيـــلة تعلـّم الانسان الخضـوعَ لله ، والعـزة على من سواه ، وتعوده المراقبة لخالقه ومولاه ، فهو يعتبر بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ فيه ، وبين أجل

قد بقـي لا يدري مـا الله قاضٍ فيه ، فوالذي نفسي بيده مـا بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » . ويتعظ بما ورد عن الله جل جلاله في الحديث القدسي : « لا أجمع على عبدي خوفـين ، ولا أجمع له أمنين ، فإن أمنني في الدنيـا أخفتُه يوم القيامة ، وإن خـافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة[1] » .

اللهم هبنا بفضلك فضيلةَ الخوف منك ، والخشوع لجلال وجهك الكريم .

(١) انظر كتابي : « أدب الأحاديث القدسية » . صفحة ٢٦ .

الاستقامة

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأحقاف : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » .

وكلمة «الاستقامة» تفيد – كما في لسان العرب – معنى الاعتدال والاستواء يقال ، استقام له الأمر ، أي اعتدل ، ومن ذلك ما ورد في السنة بشأن الاصطفاف في الصلاة ، وهو : « تسوية الصف من إقامة الصلاة » أي جَعْلها سليمة معتدلة ، وكلمة « الاستقامة » مشتقة من مادة « القيام » . وفي هذه المادة معنى الملازمة والمحافظة والثبات ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : « إلا ما دمتَ عليه قائماً » أي ملازما ومحافظا . ويقال : قام عندهم الحقُّ ، أي ثبت ولم يبرح ، وكذلك جاء في كتاب الله العزيز : « من أهل الكتاب أمة قائمة » ، أي جماعة ثابتة على الدين متمسكة به .

وقد تأتي المادة بمعنى الإصلاح والنهوض بالتبعات ، ومن ذلك قول الله تعالى: « الرجال قوامون على النساء ». وفي مادة الاستقامة معنى الدوام والاستمرار ، وقد جاء في الحديث « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم » أي دُوموا لهم على الطاعة ، واثبتوا عليها ، ما داموا على الدين ، وما داموا ثابتين على الإسلام . كما جاء في الحديث : « العلم ثلاثة : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » . قال العلماء : إن القائمة هي الدائمة المستمرة ، التي يتصل بها العمل ولا يُتْرَكَ ، وبمثل هذا فسروا قولَ القرآن الكريم في شأن المؤمنين : « ويقيمون الصلاة »

أي يديمونها . ولقد روى حكيم بن حزام عن نفسه فقال : « بايعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أخرَّ إلا قائمـا » . أي لا أموت إلا مستقيما ثابتا على الإسلام مستمسكا به .

* * *

ومن هذا البيان نفهم أن الاستقامة في لغة القرآن هي الإقامة على الإسلام ، والدوام على هدى الله عز وجل ، والاستمرار في التقيد بقيوده ، والوقوف عند حدوده ، والاستجابة لأوامره ، والانتهاء عن محارمه ، وهذا هو عمر الفاروق يقول : « الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ، ولا تروغ رَوَغَانَ الثعلب » . ومفهوم هذا أن خُلُق الاستقامة يُبعد صاحبه عن التلون والتذبذب ، وعن النفاق والرياء ، فالمستقيم قد عرف طريقه ، وآمن بعقيدته ، ومضى على سبيله لا يميل ولا ينحرف ، ولعل هذا هو الذي جعل ابن تيمية يقـول : « الاستقامة كلمة جامعة ، آخذة بمجامع الدين ، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق ، والوفاء بالعهد ، والاستقامةُ تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات » . ويقول ابن القيم : « أعظم الكرامة لزومُ الاستقامة » ، لأن من لازم الاستقامة فلم يخدع ولم ينافق ، يكون كريما على نفسه غاية الكرامة ، إذ لم يقبل لها أن تنحط إلى دَرْك التلون أو التذبذب ، ويكون كريما على ربه ، لأن الله جـل جلاله يختص برحمته ونعمته ومرضاته أولئك الذين يخلصـون أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم لوجه ربهم سبحانه .

ولا عجب في ذلك ، لأن فضيلة الاستقامة هي التي تجعل صاحبها على الدوام يحاسب نفسه ، ويراقب ربَّه ، ويلتزم صراطه ، ويعمر سلوكه وتصرفه بخلوص النية لله ، وصدق التوجه إلى الله ، فتكون استقامته نورا يسعى بين يديه فيهديه الطريق ، وروحا يضيء جوانب الانسان المستقيم ويصرِّفه التصريف القويم ، ومن هنا قال الهروي : « الاستقامة روح تحيا به الأحوال » .

وأساس الاستقامة في الاسلام – كما يصورها القرآن المجيد – هو الاهتـداء إلى طريق الله سبحانه ، والايمان بـــه موجداً وربا ، وإفراده بالعبودية له ، والعبادة لوجهه ، وعــدم الانصراف إلى سواه ، لأنه : لا إله إلا الله ، هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفُواً أحـد ، ومهما تعددت الطرق ، أو تكاثرت السبل ، أو ضل في الكون ضالون ، فافتروا آلهــةً أو معبودات ، من إنس أو جن أو نبات أو جماد ؛ فالمؤمن المستقيم ثابت على طريق الوحدانية ، دائم في إخلاص العبادة لربه ، ملازم طريقه وحده ، لا يحيد عنه ، وقد أشار القرآن الحكيم إلى ذلك حين قال : « وأن هـذا صراطي مستقيما فاتبعوه،ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون». وحين قال : « ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم » . وحين قال : « وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ». وحين قال :« إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » .

وهذا هو أبو بكر الصديق رضي الله عنـه يقول : « الاستقامة ألَّا تشرك بالله شيئاً » . وقد قال العلماء إنه يريد بذلك الاستقامة على محض التوحيد ، لأن من استقام على صدق التوحيد لله استوى على الصراط المستقيم في أعماله وأقواله، وفي أفـكاره وخواطره « صبغة الله [1] ، ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » .

وفي هذا الفلك يدور قول ابن تيمية عن أهل الاستقامة « استقاموا على محبة الله وعبوديته ، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة » .

* * *

وإذا كانت الاستقامة اعتـدالا واستواء ، وحفظا للحقـــوق ، والتزاما

---

(١) صبغة الله : المراد طريق الله وشريعته المطهرة .

بالواجبات ، وتقيدا بالحدود ، فإن ضد الاستقامة يكون هو الطغيان ، وقد استدلوا على ذلك بقول الله عز من قائل : « فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » . وكلمة « استقم » في هذه الآية الكريمة كلمة جامعة ،تشمل العقيدةَ والعمل والقول والسلوك ، فالله جل جلاله يطلب إلى نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن ورائه أتباعه ، أن يكونوا معتدلين مستقيمين على الصراط ، بحيث لا يميل الانسان إلى أحد الجانبين قيد شعرة ، ولا شك أن هذا الاعتدال ليس بالأمر السهل أو اليسير ، بل يحتاج إلى مجاهدة ومعاناة ، ولذلك ذكر بعض المفسرين للآية أن تحقيق الاستقامة المطلوبة هنا أمر صعب ، والبقاء عليه مع العمل بمقتضاه أشدُّ وأصعب ، وهذا هو عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما يقول : « ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية » ، ولعل هذا يذكّرنا بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « شيبتني هود وأخواتها » .

ويروي بعض الصالحين أنه رأى النبي في النوم، فقال : يا رسول الله، روي عنك أنك قلت : شيبتني هود وأخواتها . قال النبي : نعم . فقال الرجل : وبأي آية ؟. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :« فاستقم كما أُمرت»...

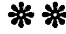


وإذا كان تحقيق الاستقامة المثالية أمراً صعباً وشاقاً ، فإن هذا لا يسوّغ التقاعس عن طلب الاستقامة ، بل واجب الانسان المؤمن أن يتلمس إليها الوسائل ، وأن يتابع نحوها الخطوات ، وأن يستعين على ذلك بالطاعات والقربات ، وقد أشار إلى ذلك رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه حين قال :

« استقيموا ولا تُحْصُوا : واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مسلم » . ونفي الاحصاء في هذا الحديث يراد به عدمُ الاطاقة لتحقيق كمال الاستقامة عند كل الناس ، فلا أقل من السعي نحوها، ومحاولة القرب

منها ، والاستعانة على تحقيقها — كما ينبغي — بما يوصل إليها من عبادة وتقوى .

ولقد فسر الإمام جعفر الصادق كلمة « استقم » في الآية بقوله : « افتقر إلى الله بصحة العزم » يعني الوثوق به والتوكل عليه ، والالتجاء إليه . وإذا وُجدت العزيمة في نفس الانسان ، وتبعتها مواصلة الخطوات على طريق الحق والعدل ، كان بلوغ القصد ميسوراً بفضل الله وعونه ، ولذلك قال الامام علي رضي الله عنه : « من سلك الطريق الواضح وَرَدَ الماء ، ومن خالف وقع في التّيه » . والظاهر أن الامام رضوان الله عليه قد قصد بالطريق الواضح الصراط المستقيم الذي ذكره الله عز وجل في كتابه مرات كثيرة ، والذي جعله الله سبحانه مطلباً للمؤمنين ، يرجون ربهم في تحقيقه لهم ، فيدعونه بذلك في كل ركعة من صلواتهم حينما يقولون : « اهدنا الصراط المستقيم » .



وإذا كان الانسان محتاجاً — دون شك — إلى دليل يدله على طريق الاستقامة وإلى رائد يَرُودُه على ذلك الطريق ، فإن خير دليل وأصدق رائد في هذا المجال هو كتاب الله الذي يقول في شأنه رب العزة : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » فالآية تخبرنا — وهي قول أصدق القائلين — بأن كتاب الله تعالى يهدي إلى الحالة التي هي أقوم الحالات ، وإلى الطريقة التي هي أعدل الطرق ، وهي طريقة الايمان بالله ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والايمان برسله ، والعمل بطاعته .

وقد أكّد الله تبارك وتعالى لعباده هذا المعنى حين قال عن كتابه : « إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم » . فهذا القرآن بيان وهداية للناس جميعاً ، إذا أرادوا الهداية والرشاد ، وإنما ينتفع بهداية القرآن الكريم

من شاء من هؤلاء أن يستقيم : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » .

وما دام تحقيق الاستقامة المثالية أمراً شاقاً متعباً صعباً ، فلا بد أن يكون الثواب عليه جزيلا عظيما ، وقد تكفل القرآن الكريم بتجلية هذا الثواب الجليل حينما قال في سورة فصلت : « إن الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم [1] ، ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين » .

ولنلاحظ معاً أن الآيات الكريمة قد جمعت لنا بين مفتاح الطريق إلى الاستقامة ، والواجب على أهل الاستقامة ، والثواب العظيم الذي ينتظره أهل الاستقامة في الدنيا وفي الآخرة ، فهي قد دلتنا على أن مفتاح باب الاستقامة هو الايمان بالله ، والدخول في الاسلام ، والعمل بأوامره وتعاليمه ، والدعوة إليه ، فذكرت أن أهل الاستقامة هم الذين قالوا: ربنا الله، وهم الذين التزموا الصراط المستقيم ، وهم الذين دعوا إلى صراط ربهم ، وهم الذين عملوا الصالحات ، وهم الذين اعتزوا بأنهم من عباد الله المسلمين .

وذكرت لنا الآية ثواب هذه الفضائل التي يتحلى بها المستقيمون ، وهذا الثواب هو أن الملائكة تتنزل عليهم لتخبرهم بأن شأنهم ألا يخافوا ولا يحزنوا ، ولتخبرهم ببشرى دخولهم الجنة ، ولتخبرهم بالولاية الالهية لهم في الدنيا والآخرة ، ولتخبرهم بأن لهم من الله ما تشتهي أنفسهم وما يَدَّعُون في جنات النعيم .

ولا ريب في أن هذا حث قوي وتحريض بليغ على الاتجاه إلى فضيلة الاستقامة والاستمساك بها .

---

(١) ما تدعون : أي تريدون أو تطلبون . ونزلا : أي منزلا وضيافة .

ولقد ذكر بعض المفسرين عند تعرضه لتفسير الآيات السابقة أن كمال الانسان في هذه الحياة يتحقق بأمرين : أولهما العلم الصحيح ، والآخر العمل الصالح ، ورأس العلم الصحيح هو معرفة الله تعالى ، ورأس العمل الصالح هو الاستقامة ، أي الدوام على حالة « الوسطية » التي لا إفراط فيها ولا تفريط .

ولقد جاء في بعض الروايات أن هذه الآيات نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لأنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ، ولم يتغير ألبتةَ عن دينه ، فهو الذي قال : ربنا الله ، وبقي مستقيما لم يتغير لسبب من الأسباب ، وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تمنع أن تكون الآيات شاملة كل من استقام على الإيمان ، والعبرة بعُموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول العلماء .

* * *

ويقول القرآن الكريم في سورة الجن : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا [1] » . أي لو اعتدلوا وساروا على الطريقة المثلى لأسقيناهم الغيثَ الكثير ، وهذا السقي كناية عن الإنعام عليهم .

وكذلك يقول : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » . ويعود القرآن بعد ما ذكره في سورة هود من مطالبة النبي وأتباعه بالاستقامة ، فيقول في سورة الشورى : « فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأُمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

ولقد استجاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلَ استجابة لهذا الأمر الإلهي ، فكان رسول الله هو المثل الأعلى في الاستقامة ، استقام في حسه ونفسه ، وفي قوله وعمله ، وفي ظاهره وباطنه ، وفي أمره كله . وبعد أن

(١) غدقا : كثيراً غزيراً .

ضرب القدوة السامية في الاستقامة لأتباعه ، أخذ يحثهم على الاقتداء به ،والسير على سنته ، فقد روت السنة أن سفيان بن عبد الله قال : يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك . فقال له : قل آمنت بالله ثم استقم .

وقد ذكر العلماء للاستقامة في هذا الحديث معنيين : أولهما المداومة على ترك الشِّرْك ، والآخر المداومة على الطاعة ، ولو تدبرنا المعنيين لوجدناهما يكمل أحدهما الآخر ويقتضيه ، لأن من داوم على ترك الشرك فقد داوم على الإيمان بالله الواحد الأحد ، ومن أخلص في إيمانه بالله الواحد الأحد داومَ على طاعته ، فالاستقامة هنا صفة بعضُها سلبي وبعضها إيجابي ، فالسلبي فيها هو البُعْد عن الاشراك ، والإيجابي منها هو استمرار طاعة الله عز وجل .

* * *

ولقد تكلم الصوفية عن الاستقامة ، ومما قالوه فيها ما روي عن حاتم الأصم: « من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلب في رضا الله ، أولها الثقة بالله ، ثم التوكل ، ثم الإخلاص ، ثم المعرفة ، والأشياء كلها تتم بالمعرفة » .

فليمض المؤمنُ المستقيم في طريقه ، جاعلا نصب عينيه على الدوام قول ربه عز وجل : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها: لا تبديل لخلق الله : ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . صدق الله العظيم.

الخشوع لله

تكرر ذكر مادة « الخشوع » في كتاب الله عز وجل أكثر من خمس عشرة مرة ؛ ومعنى الخشوع في الأصل هو الانخفاض والسكون والتطامن ، وكل ساكن خاضع فهو خاشع ، ويقال للأرض المتهشمة النبات التي يبست ولم تمطر : إنها خاشعة ، وعلى هذا جاء قول القرآن الكريم : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » .

ويقال : خشع الرجل يخشع خشوعاً ، إذا رمى ببصره إلى الأرض ، واختشع : إذا طأطأ رأسه وتواضع ، وخشوع الصوت خفضه وغضه ، وقيل إن الخشوع قريب من الخضوع ، إلا أن الخضوع يكون في البدن ، والخشوع يكون في البدن والصوت والبصر ، والخشوع أيضاً هو الضراعة ، ولكن أكثر استعمال الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، وأكثر استعمال الضراعة فيما يوجد في القلب ، ولذلك قيل فيما يروى : « إذا ضرع القلب خشعت الجوارح » . وقيل إن التخشع هو تكلف الخشوع .

هكذا تحدث أهل اللغة عن « الخشوع » . وأما العلماء والفقهاء وأهل الأخلاق فقد قالوا إن الخشوع هو هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكونٌ وتواضع ، ولذلك قال قتادة : الخشوع في القلب ، وقيل : إن الخشوع هو الخوف وغض البصر في الصلاة ، كما قيل إنه انقياد المؤمن للحق ، فإذا ذكّره مذكّر بالحق تقبله ، وانقاد إليه ، وخضع له ؛ ولعل هذا قريب في معناه مما أشار إليه الجنيد حين قال : « الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب » .

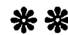
ومن هذا نفهم أن موطن الخشوع الأساسي هو القلب ، وتظهر آثاره عادة

على الأعضاء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم عمن عَبَثَ بلحيته في صلاته : « لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه » . ولقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا يطأطىء رقبته في الصلاة تخشعاً ، فقال له : « يا صاحبَ الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع في الرقاب » . وزاد حذيفة بن اليمان هذه التفرقة بين الخشوع والتخشع إيضاحاً حين قال : « إياكم وخشوعَ النفاق ، وهو أن ترى الجسد خاشعاً ، والقلب ليس بخاشع » .

وكأن معنى هذا أنه لا ارتباط بين الخشوع والتماوت في الحركة ، فقد يكون الإنسان مقبلا على عمله ، جاداً فيه ، سريع الخطوة ، باديَ النشاط ، ومع ذلك يظل قلبه خاشعاً خاضعاً ، منقاداً لله ، متقيداً بالحق ، ولقد رأت الصديقةُ بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضوان الله عليهما شباباً يتماوتون في مشيتهم ، ويقال عنهم إنهم نُسّاك ، فقالت : « كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وكان هو الناسك حقاً » . ويؤكد القرطبي هذا حين يورد في تفسيره هذا التعبيرَ عن عمر : « كان عمر ناسكاً صدقاً ، وخاشعاً حقاً » .

ويروي لنا سفيان الثوري عن نفسه ما يلي : « سألت الأعمش عن الخشوع ، فقال : يا ثوري ، أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع ؟ سألتُ إبراهيم النخعي عن الخشوع فقال لي : يا أعيمش ، تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع ؟ ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ، لكن الخشوع أن ترى الشريفَ والدنيء في الحق سواء ، وتخشع لله في كل فرض افترضه عليك » .

وبهذا ندرك أن الخاشع الصادق لا بد أن يكون صاحبَ إيمان عميق ويقين راسخ ، غير متأثر بالأهواء أو الرغبات ، بل الحقُّ طلبته ، والله الحق غايته ، فلا عجب بعد هذا إذا جعل القرآن الكريم صفةَ الخشوع في منزلة التقدير والتوقير ، فإنه بلا ريب من مكارم الأخلاق .



والعلماء الخبراء بطبائع النفوس ومنازع الخصال يجعلون الخشوع درجات ، فالدرجة الأولى منه هي خشوع الامتثال لأمر الله تعالى ، والافتقار إلى هداه ، والرضا بقضائه ، مع الاستسلام لأحكامه وتقبلها بالتنفيذ ، مع استحضار جلال الله وعظمته ومراقبته .

والدرجة التي تليها هي خشوع الهيبة والخوف من وقوع الإنسان في نقص أو ذنب أو تفريط ، أو قلة توفيق في بلوغ المأمول من رضا الله سبحانه .

والدرجة الثالثة هي تصفية النفس من شوائب الرياء ، مع إخلاص العمل كله لله ، والإقرار بالفضل على كل حال لله ، فإذا أفلح المؤمن في تحقيق ذلك كاملاً بلغ من الخشوع غايتَه ومنتهاه .



ونجلس إلى مائدة القرآن ليحدّثنا عن الخشوع والخاشعين ، فنجده يخبرنا بأن الخشوع صفة أساسية من صفات المسلم المؤمن ، فذلك حيث يقول في سورة الأحزاب : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » . ويراد بالخاشعين في الآية — كما ذكر المفسرون — أولئك الذين يتواضعون لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم .

ويعود القرآن الكريم إلى الحديث عن الخشوع في لون من التعريض بالذين يفرّطون في أمره ، أو يقصّرون في شأنه ، فيقول في سورة الحديد : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم

فاسقون ». ولقد قيل في سبب نزول هـذه الآية الكريمة أنهـا نزلت حينما نال المسلمون رزقاً ونعمة ، ففتر بعضهم عما كان عليه، ويروى عن عبدالله بن مسعود أنه قال : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين » . ويا لها من تربية سامية عالية صارمة ، تقوم على أساس القول المأثور : « حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين » . وكذلك يروى أن عبدالله بن عباس قال في شأن هذه الآية : « إن الله استبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن » .

وحينما أمر الله عباده بأمرين جليلين عظيمين همـا الصبر والصلاة ، أتبـع أمرَه بالإشارة إلى أن التخلق بهما منزلة عالية ومهمة شاقـة ، لا تتيسر إلا للمتخلقين بخلق الخشوع الصادقين فيه ، فقـال في سورة البقرة : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » .

والمراد بالخاشعين هنا – والله أعلم بمراده – هم المتواضعون لله الخائفون منه ، فإنهم – كما في « مجمع البيـان » للمفسِّر الطبرسي – قد وطّنوا أنفسهـم على الصبر وإقام الصلاة ، وقال مجاهد : أراد بالخاشعـين المؤمنـين ، فإنهم إذا علموا ما يحصل لهم من الثواب بفعل الصبر والصلاة لم يثقل عليهم ذلك ، كما أن الإنسان يتحمل مرارةَ الدواء لما يرجو به من نيل الشفاء .

وهذا هو « تفسير المنار » يتعرض للجملة القرآنية الكريمة :« وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » فيقول : « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين : أي لَثقيلة شديدة الوقع، كقوله : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » إلا على المُخْبتين المتطامنةِ قلوبُهم وجوارحهم لله تعالى ، فهؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة والصبر كلَّ الخلائق الحسنة ، لما تعطيه الصلاةُ من مراقبة الله تعالى ، كما قال عز وجل : « إن الإنسان خُلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين » . فمن خواص الصلاة الصبر ونفي الجزع ، ومن خواصها النهي عن الفحشاء والمنكر ، ومن خواصها الجود والسخاء ، فالمصلّي الحقيقي

هو البارُّ الحقيقي ، الذي لا يترك الحقَّ لأجل شهوة ، ولا لمـــا يعرض له في معاملاته مع الخلق من خوف وخشية .

هذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال ، ولذلك قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون » . ثم وصف الخاشعين وصفـــاً يناسب المقام ، ويُظهر وجهَ الاستعانة به فقال : « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليـه راجعون » ، أي الذين يتوقعون لقاءَ الله تعالى يوم الحساب والجزاء ، وأنهم إليه راجعون بعد البعث ، لا مرجع لهم إلى غيره » .

ومن المواطن التي تستلفت الأنظار وتثير الاعتبار أن القرآن جعل الخشوع في الصلاة أولَ صفة يذكرها لعباده المؤمنين المفلحين ، ثم يذكر بعدهـــا جملة صفات ذات شأن ومكانة ، فيقول : « قـــد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » أي قد فازوا بمأمولهم عند ربهم ، لأنهـــم خائفون متذللون لله ، مخلصون في الاتجاه إلى حماه ، والخشوع في الصلاة يتحقق — كما أشار ابن كثير — لمن فرغ قلبُه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون له راحةً وقرة عين ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقـــول : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » . وكان إذا اشتد بـــه أمر يقول لبلال مشيراً إلى الصلاة : « أرِحْنا بها يا بلال » .



ولقد اختلف العلمـــاء في تحديد الخشوع المطـلوب في الصلاة : أهو الشعور الداخلي القلبي المسيطر ، المولـّد للخوف والرهبـــة والهيبة من الله ، أم هو السكون الخـــارجي الذي يظهر في تطامن الأعضاء وانقطاع حركتهـا أثناء الصلاة ؟. والصواب أن الخشوع يشمل الأمرين معـاً ، فهو فضيلة منبثقـة من داخل الإنسان ، تتمثل في آثارٍ تظهر على الأعضاء ، ولذلك يقـــول المفسر الرازي : « واختلفوا في الخشوع ، فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف

والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترْك الالتفات، ومنهم من جمع بين الأمرين ، وهو الأوْلـى،فالخاشع في صلاته لا بد أن يحصل له ممـا يتعلق بالقلب من الأفعال نهايةُ الخضوع والتذلـل للمعبود ، ومن المـتروك أن لا يكون ملتفتَ الخـاطر إلى شيء سوى التعظـيم ، وممـا يتعلق بالجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده ، ومن المتروك ألا يتلفت يمينـاً ولا شمالاً » .

ولقد عُنِيَ الفقهاء والمفسرون بمسألة الخشوع في الصلاة، لأن الصلاة مناجاة لله ، وإقبال على حماه ، ولأنها أهم عبـادة في دين الله . ولذلك أطالوا الحديثَ عن وجوب التحلي بفضيلة الخشوع في الصلاة ، واستدلوا على هذا الواجب بأدلة كثيرة منها ، أن الله تعالى يقول : « وأقم الصلاةَ لذكري » . والغفلة تناقض الذكر ، فمن غـَفَل في جميـع صلاته لا يكون قد أقـــام الصلاةَ لذكر الله تعالى . ومنها أن الله تعالى يقول : « ولا تكن من الغافلين » ، وظاهر هذا النهي هو التحريم ، ومنها أيضاً أن الله تعالى يقول : « يا أيهـــا الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ، والغافل غير الخاشع لـن يعرف معنى ما يقوله في الصلاة ، لأنه منصرف عنه مشغول بسواه .

ومنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« إنما الخشوع لمنْ تمسكَنَ وتواضع » . ولا يتحقـق التمسكن والتواضع مع الغفلة . ومنها أن الرسول يقول : « من لم تنهه صلاتـُه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعْداً » . وصلاة الغافل لن تمنعـه عـن الفحشاء والمنكر . ومنها أيضاً أن النبي قال : « كم من قائم حظـُّه من قيامه التعبُ والنـَّصَب » . وهو يعني بذلك الغافلَ في الصلاة . ومنها أنه قال : « ليس لعبد من صلاته إلا ما عَقـَل » والغافل لا يعقل صلاته .

ونرى صاحب « مفاتيـح الغيب » يُدْلِي بدَلْوه في هـــذا الموضوع ثم يعقب قائـــلاً : « ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار : الحمدُ والثناء والتضرع والدعاء ، والمخاطِب هو الله تعالى ، فإذا كان القلب محجوبـاً بحجاب

الغفلة ، وكان غافلاً عن جلال الله و كبريائه ، ثم إن لسانه يتحرك بحكم العادة ، فما أبعدَ ذلك عن القبول .

وبالجملة فكلُّ عاقل يقطع بأن مشاهدة الخواص العظيمة ليس أعمالها الظاهرة ، إلا أن ينضاف إليها مقصودُ هذه المناجاة ، فدلت هذه الاعتبارات على أن الصلة لا بد فيها من الحضور » .

و كذلك تحدث الفقهاء والعلماء عن مصير الصلاة التي تؤدّى بلا خشوع ، ومن بينهم ابن القيم الذي ذكر أن المرء لا يكون له من الثواب على صلاته إلا بقدر ما عقل منها ، وخشع لله فيها ، لأن ابن عباس يقول: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها » ولأن الله جل جلاله يقول : «قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ». ومعنى هذا أن من لم يخشع لم يكن من المفلحين، ولو كان له ثواب عليها لأفلح .

وأما الاعتداد بها في الدنيا من ناحية سقوط الفرض عن صاحبها فقالوا : إن غلب عليها الخشوعُ وتعقلها اعتد بها إجماعاً ، وتكون النوافل والأذكار بعدها جابرةً لما فيها من نقص ، وإن غلب عليها عدمُ الخشوع فيها وعدم تعقلها ، فإن فريقاً من الفقهاء يوجب إعادتَها لأنها صلاة لا يثاب عليها ، ولم يضمن له فيها النجاح أو الفلاح ، فلم تبرأ ذمته منها .

وهذا يذكّرنا بقول الله سبحانه : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون » أي لا يخشعون فيها . ورضوان الله على حذيفة بن اليمان حين قال : « أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ، ورُبَّ مصلٍّ لا خير فيه ، ويوشك أن تدخل مسجدَ الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً » . ولعل السر في هذا القول هو أن الخشوع أمر باطني لا يراه الناس ، فما أسرع المضيّعين إلى إضاعته ، وأما الصلاة فعبادة بادية للعيان ، فقد يأتيها أناس رياء أو اتقاء ، بلا خشوع ولا اطمئنان .



والقرآن الكريم يجعل الخشوعَ صفة المؤمنين المتدبرين المميزين بين الحق

والباطل ، فيقول في سورة الإسراء : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » . أي يزيدهم القرآن خشوعاً ، لأنه يزيدهم علماً ويقيناً بالله تعالى .

كما يجعل القرآن الكريم الخشوعَ من أخلاق المؤمنين الذين يعرفون الحق فيتبعونه ، ولا يرضون به بديلا ، فيقول في سورة آل عمران : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا : أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب » .

كما يخبرنا كتاب الله العزيز أن الخشوع من أخلاق الأنبياء وآلهم ، فيقول في سورة الأنبياء : « وزكريا إذا نادى ربه : ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين، فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين » . وكأن القرآن يريد أن يقول إن الخشوع ثمرتُه تحقيق المراد ونيلُ المأمول ، فهو يشعرنا بأن هؤلاء الأكرمين قد نالوا ما نالوه بفضل هذا الخلق العظيم : خلق الخشوع .

* * *

وإذا كان القرآن المجيد قد حدثنا هذا الحديث الواعظَ عن خلق الخشوع الحميد ، فإنه إلى جوار ذلك قد حدثنا عن لون من الخشوع تأبى عدالةُ الله إلا أن تُلْجِىءَ إليه الأشرارَ إلْجاءً ، ليكون إشعاراً بذلهم وهوانهم على الله جل جلاله ، فيقول عن المشركين مثلاً في سورة القلم : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » . أي يوم يشتد الأمر ، ويصعب الخطب ، لأن كشف الساق كناية عن شدة الهول ، ويُدْعَى هؤلاء المشركون إلى السجود ، فلا يستطيعون لزوال القدرة منهم ، أو لفوات وقت السجود ، ويبدو عليهم خشوعٌ وخضوع يظهران في أبصارهم ، وتلحقهم ذلة وهوان .

ويقول في سورة القمر : « فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نُكُر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث [1] كأنهم جراد منتشر » . أي أعرض عن هؤلاء الكافرين الذين لا يفيد فيهم الإنذار ، فإن الداعي سيدعوهم يوم القيامة إلى شيء فظيع لم تعهد مثلَه النفوس ، وسيخرجون من قبورهم ذليلةً أبصارُهم خاشعة .

ويقول في سورة النازعات : « قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة » . أي ان قلوب هؤلاء الكافرين ستكون شديدة الاضطراب من الوجيف ، وأبصارهم ستكون ذليلة من الخوف ، وأضاف الأبصار إلى ضمير القلوب في قوله : « أبصارها » لأنه أراد من وجيف القلوب شدةَ الخوف الواقع بأصحابها ، فهي كناية عنهم .

ويقول في سورة الغاشية : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية » . أي هل جاءك خبرُ الداهية التي تغشى الناس؟ سترى في يومها وجوهَ الكافرين ذليلة ، تتعب حين تجر سلاسلها ، وتخوض نارها ، فهي تستقر في نار متناهية الحر .

ولنلاحظ أن أغلب استعمالات القرآن للخشوع الحسي الدال على الذل والهوان ، والخوف والحسرة ، قد نَسَبها إلى الكافرين والمجرمين والفاسقين .

وهناك خشوع حسي مادي آخر تحدث عنه القرآن الكريم ، ليصوّر به عظمةَ الله وجلاله ، فيقول في سورة طه : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » . أي انخفضت الأصوات لمهابة الله جل جلاله ، فلا تسمع إلا صوتاً خفياً ، ويقول في سورة الحشر : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . وإنما يكون هذا التشقق تمثيلاً وتخييلاً لجلال القرآن وعظمته .

هذا ، ولقد قال سهل : « من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان » . وذلك

---

(١) الأجداث : جمع جدث ، وهي القبور .

لأن طريق الشيطان إلى إفساد الإنسان هو الوسوسة ، والوسوسة إنما تُفْسد من يكون فارغَ القلب ، وأما صاحب القلب الخاشع فإنه يكون مشغولاً بربه ، فإذا أقبل الشيطان عليه ليوسوس إليه لم يجد منه سميعاً ولا مجيباً ، ولا يتحقق انشغال القلب بالله جل جلاله إلا إذا كان دائمَ الذكر له ، دائم التعلق به ، دائم الالتجاء إليه ، دائم الاعتماد عليه ، لا يلتفت إلى سواه ؛ ولقد تكلم الإمام ابن القيم عن الخشوع كلاماً أفادنا كثيراً ، وذكر فيه شيخَه الإمام ابن تمية فقال عنه انه كان يرى من لوازم الخشوع التبرؤَ من نسبة أي فضل للانسان ، وتخصيص الله بالحَوْل والطَّوْل والقوة ، ولذلك قال ابن تيمية هذه الأبيات الخاشعة :

أنا الفقير إلى رب البرياتِ ... أنا المُسَيْكين في مجموع حالاتي
أنا الظَّلوم لنفسي وهي ظالمةٌ ... والخير ـ إن يأتنا ـ من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلبَ منفعةٍ ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
وليس لي من دونه مولىً يدبّرني ... ولا شفيع إذا أحاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالِقنا ... إلى الشفيع ، كما قد جاء في الآيات
ولست أملك شيئاً دونَه أبداً ... ولا شريك أنا في بعض ذرّات
ولا ظهير له كي يستعين به ... كما يكون لأربابِ الولايات
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي
وهذه الحال حال الخَلْق أجمعهم ... وكلهم عنده عبدٌ له آت
فمن بغى مطلباً من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشركُ العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه ... ما كان منه ، وما من بعد قد ياتي

* * *

وبعد ، فجمّلني الله وإياك بخلق الخشوع ، وجعلنا من حزبه القائمين بأمره ، المراقبين لجلاله ، المتواضعين لعظمته ، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

الحلم

الحلم خُلُق من أخلاق القرآن الكريم ، وقد ذكر الكتاب الإلهي المجيد مادةَ « الحلم » نحو عشرين مرة ، وقد عرّف العلماء فضيلةَ الحلم بأنها حالة يظهر معهاَ الوقار والثبات عند الأسباب المحركة للغضب ، أو الباعثة على التعجل في العقوبة . وعرّفوه كذلك بأنه حبس النفس حتى تخضع لسلطان العقل ، وتطمئن لما يأمرها به .

وقد يعبّر بعض الباحثين في الأخلاق عن الحلم بأنه « ضبط النفس » ، وهذا غير بعيد عن الصواب ، لأن ضبط النفس هنا يعني إخضاعَ قوتها الغضبية لسلطة العقل المفكر المدبر ، وهذا هو مضمون الحلم ، فعلى الرغم من أن الحليم قد سمع أو رأى أو علم ما يثير غضبه نراه متحلياً بالهدوء وضبط النفس ، ولذلك جاء عن بعض حكماء العرب فيما روته أمثالهم قوله : « حلمي أصَمُّ ، وأذني غير صمّاء » أي أنني أُعرض عن الخنا بحلمي ، وإن سمعته أذني .

وقد تطلق كلمة « الحلم » على معنى العقل ، ومن ذلك قول القرآن الكريم في سورة الطور : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون » . فالأحلام هنا يراد بها العقول ، وقد ورد في الحديث بشأن صلاة الجماعة : « لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى » أي أصحاب الألباب والعقول . وليس الحلم في الحقيقة هو العقل ، ولكنهم فسروه به لكون العقل هو سبب الحلم ، فالعقل هو الذي ينصح بالأناة والتثبت في الأمور .

وخُلُق الحلم هـو حـالة التوسط بين رذيلتين : الغضب والبلادة فإذا استجاب المرء لغضبه بلا تعقل ولا تبصر ، كان على رذيلة ، وإن تبلّد وضيّع حقّه ، ورضي بالهضم والظلم كان على رذيلة ،وإن تحلى بالحلم مع المقدرة ، وكان حلمه مع من يستحقه كان على فضيلة .

وقد يشتبه الحلم بكظم الغيظ ، مع أن هناك فرقاً بينهما – كما أشار حجة الاسلام الغزالي – فكظم الغيظ هو التحلم ، أي تكلف الحلم ، وهذا يحتـاج إلى مجاهدة شديدة ، لما في الكظم من كتمان ومقاومة واحتمال ، وأما الحلم فهو فضيلة أو خلق يصبح كالطبيعة ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه على صاحبه ، وانكسار قوة الغضب عنده ، وخضوعها للعقل . ولكن هناك ارتباطاً بـين الحلم وكظم الغيظ ، لأن ابتداء التخلق بفضيلة الحلم يكون بالتحلم وهو كظم الغيظ ، ومن هنا ورد :« إنما الحلم بالتحلم » . ومن دلائل المكانة السامية للحلم في نظر القرآن الكريم أنه ذكر اتصاف الله جل جلاله بصفة الحلم في جملة من الآيات فقال في سورة البقرة :« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » . ويقول في السورة نفسها : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » . ويقول فيهـا كذلك : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم » . ويقول في سورة آل عمران : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » . ويقول في سورة النساء : « والله عليم حليم » . ويقول في سورة المائدة « يا أيهـا الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حـين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم » .

ويقول في سورة الحج : « ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم ». ويقول في سورة الإسراء : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمـده ولكـن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » .

ويقول في سورة الأحزاب : « والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما » . ويقول في سورة فاطر : إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا » . ويقول في سورة التغابن : « إن تقرضوا الله قرضاً حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم » .

* * *

وقد عرفنا أن الحلم في الأصل هو الأناة وضبط النفس ، ولكن الحلم بالنسبة الى الله تعالى هو الإمهال بتأخير العقوبة على الذنب ، ولذلك قال ابن الأثير في شرح اسم « الحليم » إنه الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد ، ولا يستفزه الغضب عليهم . فقد جعل لكل شيء مقدارا وميقاتا فهو منتهٍ اليه . وذكر القرطبي في تفسيره « الحلم » بالنسبة الى الله سبحانه ما يفيد معنى طرح المؤاخذة ، وأنه باب رفق وتوسعة ، وقد يذكّرنا هذا بقول الله جل جلاله : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون » .

* * *

فإذا انتقلنا الى رحاب الصوفية لتبين حديثهم عن « حلم الله » لوجدنا عبد الكريم القشيري في كتابه « التحبير في التذكير » يورد هذه العبارة : « قيل : الحلم تأخير العقوبة عن المستحق لها ، فيكون من صفات فعله يوصف به في الأزل ، وقال أهل الحق : حلمه إرادته تأخيرَ العقوبة ، فهو من صفات ذاته ، لم يزل حليما ولا يزال ، فيؤخر العقوبة عن بعض المستحقين ، ثم قد يعذبهم ، وقد يتجاوز عنهم ، ويعجل العقوبة لبعضهم ، فالأمر في ذلك على ما سبق به الحكم في الأزل ، وتعلقت به الإرادة والعلم » .

وينبغي أن نلحظ في الآيات الكريمة التي وصفت الله سبحانه بصفة الحلم

بعضَ الإشارات ، فقد اقترنت صفة الحلم في أغلب هذه الآيات بصفة المغفرة أو العفو ، ويأتي هذا الاقتران في الغالب بعد إشارة سابقة الى خطأ واقع أو تفريط في أمر محمود ، وهذا أمر يتواءم مع الحلم ، لانه تأخير عقوبة ، والعقوبة توحي بوجود أمر يستدعيها .

وكذلك نلاحظ أن عدداً من هذه الآيات الكريمة التي وصفت الله سبحانه بالحلم ، قد اقترن فيها ذكرُ الحلم بالعلم : « وإن الله لعليم حليم » ، « وكان الله عليماً حليما » ، « والله عليم حليم » . وكأن الحكمة في هذا — والله أعلم بمراده — هي الإشارة الى أن كمال الحلم يكون مع كمال العلم ، بأمر يحمل معه الحلم من أهل الكمال والجلال والجمال سبحانه ، وفي قول العربي الحكيم : « حلمي أصَمّ وأُذني غير صمّاء » ، ما يُعين على فهم ذلك ، فالحليم يعلم ما يثير أو يغضب ، ولكنه مع ذلك يتمسك بالحلم .



ثم يحدثنا القرآن الكريم بأن الحلم خُلُق من أخلاق النبوة والرسالة ، فيقول في سورة التوبة عن أبي الأنبياء إبراهيم : « إن إبراهيم لأواه حليم » . ويقول عنه في سورة هود : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » . والأوّاه هو كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ، وهذا كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه ، والحليم : غير العجول على الانتقام من المسيء اليه ، والمنيب : الراجع الى الله . ويقول القرآن الكريم في سورة هود أيضاً على لسان قوم شعيب : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد » . ويقول في سورة الصافات متحدثاً عن إبراهيم ومشيراً الى ابنه إسماعيل : « فبشرناه بغلام حليم » .

والانبياء والرسل هم النماذج العليا بين البشر ، فإذا أخبرنا كتاب الله تعالى بأن الحلم صفة من صفاتهم كان ذلك إشعاراً أيّ إشعار بسمو هذه الفضيلة ، ولقد

جاء في بعض الأحاديث أن الحلم من سنن المرسلين ، ولما كان سيدنا رسول الله محمد هو إمام النبيين وخاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كان من الطبيعي أن يوضع في يده زمام الامامة الخُلُقية بين هؤلاء الكرام ، فلم يكن غريباً أن يوجهه ربه تعالى الى قمة هذه الزعامة حين يقول له : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » . ثم يمن عليه بما يسر له من أسباب هذه الزعامة الخلقية فيقول له : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

ولقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حلمه الغاية المثالية ، والدلائل على ذلك كثيرة وفيرة ،منها أن أعرابياً جاءه يوما يسأله شيئاً من المعونة ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنت اليك يا أعرابي ؟ فاندفع الأعرابي بجهالة يقول : لا أحسنت ولا أجملت . فهمّ الصحابة يريدون البطشَ بالأعرابي ، فمنعهم الرسول ، وأخذ الأعرابيّ الى بيته ، وزاده في العطاء ، ثم قال له : هل أحسنتُ اليك ؟. قال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال له النبي : إنك قلتَ ما قلت ، وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإذا أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ ،حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال:نعم.

فلما كان الغداة — أو العشي — جاء الأعرابي فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضي ، أكذلك ؟. فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبي : « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبُ الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها صاحبُ الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض[1] فردها هَوْناً هونا ، حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها ،

(١) أي من حشائشها .

واستوى عليهـــا ، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قـــال فقتلتموه دخل النار » .

ومن روائع حلمـه كذلك أن رجلاً كافراً دنا من النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، ورفع الرجل السيفَ فوق النبي ، فانتبه فقـــال له الرجل : من يمنعك مني ؟ . فقال الرسول بكل ثبات وطمأنينة : الله . فارتعد الرجل ، وسقط السيف من يده ، فأخذه النبي وقال : من يمنعك مني ؟ . فقال الرجل في ضعف : كنْ خيرَ آخذ . فقـال له النبي : قل أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فقال الرجل : لا ، غـير أني لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فعفا النبي عنه ، وأطلق سبيله ، فعاد الرجل الى قومه يقول لهم : جئتكم من عند خير الناس .



ومن وراء الأنبياء والمرسلين يأتي الصالحون من العباد ، وإذا كان الله جـل جلاله قد جعل رسولـه محمداً مثلاً عالياً في الحلم ، فقد أراد لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن يسيروا على نهجه وسنته ، ولذلك يقول القرآن الكريم عن الأخيار من هؤلاء في سورة الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » وقد علق الحسن على هذه الآية فقال عن أصحابها : حلماء إن جُهِـلَ عليهم لم يجهلوا .

وقد عُنِيَ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالتوجيه الى الحلم ، والحث على الاتصاف به ، فقال من حديث له : « إن الله يحب الحليم الحيِيّ ... » . ولقد جاء الأشج الى الرسول فقال له النبي : إن فيك يا أشج خُلـُقين يحبهما الله ورسوله . قال : وما هما بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ فقال النبي : الحلم والأناة . فسأله الأشج قائلا : خلقان تخلقتهما أو خلقـان جُبِـلت عليهما ؟ . فقال النبي : بل خلقان جبلك الله عليهما . فقال : الحمد لله الذي جبلني على

خلقين يحبهما الله ورسوله .

وجاء في حديث آخر : « أشدكم من غلب نفسَه عند الغضب : وأحلمكم من عفا عند المقدرة » . وكذلك جعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – الحلم أحدَ أسبابٍ ثلاثة يبتغي بها الانسان الرفعةَ عند الله ، وهي وصل مَنْ قطعك، وإعطاء من حرمك ، والحلم عمن جهل عليك .

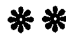
ولقد تألق في تاريخ هذه الأمة أفراد أعلام ضربوا القدوة في الحلم ، وعلى رأسهم قيس بن عاصم المنقري ، الذي يروون عنه أنه كان جالساً ذات يوم بفناء داره ، وهو محتبٍ بكسائه ، فدخل عليه جماعة يحملون شخصاً مقتولا ، ويقودون شخصاً مكتوفا ، فقالوا له : هذا ابنك قد قتله ابنُ أخيك ، فلم يضطرب ولم يفك حبوتَه ، بل التفت الى أحد أبنائه وقال له : قم فأطلق عن ابن عمك ، ووارِ أخاك ،واحمل الى أمه مائةً من الإبل ، فإنها غريبة . ثم أنشأ يقول :

إني امرؤ لا يعتري خلقي ... دَنَس يغيِّره ولا أفَنُ
من منقر في بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه أعفّةٌ لُسُنُ
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فُطُنُ

ثم أقبل على ابن أخيه – وهو القاتل – فقال له : قتلت قرابتَك ،وقطعت رحمك ، وأقللت عددك ، لا يبعد الله غيرك .

وفي قيس هذا يقول الشاعر عبدةُ بن الطبيب:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية مَنْ ألبستَه منك نعمة ... إذا زار عن شحط بلادك سلَّما
وما كان قيس هلكُه هلكَ واحدٍ ... ولكنه بنيان قوم تهدما



وجاء من بعده الأحنف بن قيس الذي ضربوا به المثل فقالوا ، « أحلم من

الأحنف » . جاء فتعلم الحلم من قيس ، حتى قال : « لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم في الحلم كما نختلف الى الفقهاء في الفقه » . وقيل للأحنف : هل رأيت أحلمَ منك ؟ . فقال : نعم ، وتعلمتُ منه الحلم . قيل : ومن هو ؟ . قال قيس بن عاصم المنقري ، وقص القصة السابقة .

ومن الحلم المثالي للأحنف أن رجلا تبعه بالشتم حتى بلغ الأحنف حيّه ، فقال للرجل السباب : يا هذا ، إن كان بقي في نفسك شيء فهاته وانصرف لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره .



ولقد عرف الحكماء منذ أقدم الأزمان مكانة الحلم وفضله ، فقالوا فيه كثيرا ، وهذا لقمان الحكيم يقول : « ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان : من إذا رضي لم يُخْرجه رضاه الى الباطل ، وإذا غضب لم يُخْرجه غضبُه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له » . واتفق سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر عند الجزع .

ولعل أوضح ثمرات الحلم هو تجنب الظلم ولو قلّ ، والتباعد عن الاستجابة لهوى النفس الغاضبة ، ولقد رُوي عن خامس الراشدين الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه أنهم جاءوا اليه برجل قد ارتكب خطأ ، وكان عمر غاضباً ، فقال له عمر : لولا أني غضبان لعاقبتك . وكان خامس الراشدين إذا أراد معاقبة رجل حبسه ثلاثة أيام ، فإن أراد بعد ذلك أن يعاقبه عاقبه ، كراهةَ أن يعجل عليه في أول غضبه .

وليس الحلم رضىً بالذل ، أو تقبلا للهوان ، وإنما هو ترفع عن الاستجابة للنزوة ، أو التأثر بالوسوسة أو مقابلة السوء بمثله ، وإلى ذلك أشار الغزالي حين قال إنه لا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب

بالسب ، وكذلك سائر المعاصي، وإنما الجائز هو القصاص على ما ورد به الشرع .

وإنما يقـــال للحلم إنه ذُلٌّ أو شبيه به إذا كان عن عجز ، ولكن الحلم المحمود هو ما كان عن قدرة ، ولذلك قال الشاعر :

« والحلم عن قدرة فضل من الكرم »

وقال ابن زيدون مادحا :

عطاء ولا مَنٌّ ، وحكم ولا هوى وحلم ولا عجز ، وعزٌّ ولا كِبْرُ

ولذلك كانت أجمل مواقف الحلم هي مواقف الحلم من أهل السلطان على غيرهم ، كحلم الحاكم على المحكوم ، وحلم المعلم على التلميذ ، وحلم المخدوم على الخادم ، وحلم الرئيس على المرؤوس ، وحلم العالم على الجاهل ، وهكذا .

جمّلنا الله تعالى بفضيلة الحلم ، وجنّبنا رذيلةَ الغضب ، إنه ولي التوفيق .

الصبر

الصبر في اللغة معناه الحبس والكف ، يقال : صبرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها ، وصبرت نفسي عن ذلك الشيء ، أي كففتها ، والصبير هو الكفيل ، لأنه يصبر نفسه على دفع الغرم ، وصبير القوم هو الذي يصبر لهم ومعهم في أمورهم . والصبر في الاصطلاح الأخلاقي الديني هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه ، وضد الصبر هو الجزع ، ولذلك جاء في القرآن الكريم : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » .

والصوم يسمى صبرا لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والشهوة ، ويسمى رمضان شهر الصبر ، لأنه شهر الصوم . و « المصابرة » هي مطاولة الغير في الصبر ، والتصبر : هو تكلف الصبر ،والاصطبار زيادة الاحتمال في مجال الصبر ، وقد جاء في سورة مريم : « فاعبده واصطبر لعبادته » . وفي سورة طه : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » . وفي سورة القمر : « فارتقبهم واصطبر » . والصبّار – بتشديد الباء – والصبور : من صيغ المبالغة في الصبر وحبس النفس ومجاهدتها ، والفرق بينهما هو أن الصبار الكثير الصبر ، أي الذي يتكرر منه الصبر ويكثر ، وأما الصبور فهو الشديد الصبر القوي في صبره وقال الأصفهاني إن الصبور هو القادر على الصبر، والصبار هو الذي عنده ضرب من التكلف والمجاهدة في الصبر ، وقد جاءت كلمة « الصبّار » في القرآن أكثر من مرة .

وكلمة الصبر فيها معنى الانتظار ، وعلى هذا جاء قول الله تعالى : « فاصبر لحكم ربك » أي انتظر ، وفيها معنى الاستقامة والمداومة ، وعلى هذا جاء قول القرآن : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » أي احبس نفسك معهم ، واستقم على ملازمتهم ، ولعل هذا المعنى موجود في قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » . أي قاموا بالعمل الصالح ، وداوموا عليه ، وصبروا فيه ، حتى تمام العمل .

* * *

والصبر فضيلة تتعدد مجالاتها،فهناك صبر على الطاعة ، أي استمساك بأدائها، وصبر على المعصية أي حرص موصول على تجنبها ، وصبر في الابتلاء ، أي حسن احتمال له ، فلا بد للمؤمن من صبر على أداء الواجب ، وصبر عن الآثام والخطايا . وصبر بحفظ اللسان عن الخنا والفحش ، وصبر بِحِرْص اللسان على النطق بكلمة الحق حينما تجب ، وصبر بصيانة القلب والعقل من خواطر السوء، وصبر بحفظ الجوارح والأعضاء من سوء الاستخدام ، وصبر عند الشدائد والنوازل ، وصبر في مواطن الجهاد والنضال بالإقدام والثبات وعدم الفرار أو التولي من الزحف ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » . فتولية الأدبار ضد الصبر .

والصبر لفظ عام ينتظم جملة فضائل ، وقد يسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره ، فالصبر في الحرب يسمى شجاعة ، والصبر في النوائب قد يسمى برحابة الصدر ، والصبر مع السر قد يسمى بالكتمان ، وقد تعرض الإمام الغزالي لكثرة أنواع الصبر وألوانه واختلاف اسمائه باختلاف متعلقاتة ، فقال :

« إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وإن كان عن احتمال

مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر ، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو إطـلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها ، وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر ، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما ويضاده التذمر .

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سُمِّيَ سعةَ الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر ، وسمي صاحبه كتوما ، وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره .

فأكثر أخلاق الايمان داخلة في الصبر ، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال : « هو الصبر » ، لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال : « الحج عرفة » وقد جمع الله تعالى أقسامَ ذلك ، وسمى الكل صبرا ، فقال تعالى : « والصابرين في البأساء »(أي في المصيبة) والضراء (أي الفقر)وحين البأس (أي المحاربة) أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وقد رأينا الغزالي يذكر في صدر حديثه هنـا أن الصبر عن شهوة البطن والفرج يسمى عفة ، وشهوة الفرج أطغى من شهوة البطن عند ثوران الرغبة في الرذيلة وتوافر القدرة عليها ، ولذلك نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية أن صبر يوسف الصديق على اجتناب الفاحشة مع امرأة العزيز كان أكمل من صبره على إلقاء أخوته له في الجب ، وبيع مَنْ وجدوه له ، وافتراقه عن أبيه ، لأن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره ، وأما صبره عن الفاحشة فكان باختياره ورضاه ، وقد حارب الاستجابةَ للفاحشة بالصبر الجميل والتعفف النبيل ، مع وجود الكثير من الأسباب الداعية الى المسارعة بالإقبـال على المعصية ، فهـو شاب والشباب كما قيل شعلة من الهوى والرغبة ،وهو حينئذ غريب ،والغريب ،

لا يستحي في بلد غربته كما يستحي إذا كان بين أهله ومعارفه ، وهو حينئذ مملوك ، والمملوك لا يكون له في العادة ما للحرمن وازع ، والتي تُغْرِيه بالفاحشة امرأة ذات جمال وإغراء ، وهي سيدته التي تأمره ، وعليه في عُرْف الناس أن يطيع ، وهي التي تدعوه وتحرّضه في حرص وشغف ، وهي تتوعده وتنذره بالعذاب إن لم يستجب لهواها ، ومع ذلك أبَى وأعرض ، وصبر اختيارا وإيثارا لما عند الله : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين »



وكثير من الناس يظنون أو يزعمون أن الصبر خُلُق سلبي ، وأن معناه الاستسلام والرضى بالواقع والكف عن معالجة الأمور والاحتيال للخروج من الشدائد والأزمات ، وهذا فهم خاطىء ووهم فاسد ، فالصبر كما يكون جهداً نفسيا للتأبي على المعاصي والابتعاد عن السيئات ، يكون في كثير من الأحيان جهداً عمليا إيجابيا ، فيه حركة ، وفيه سعي ، وفيه انتاج ، وفيه تحمل للتبعات وتعرضُ لجلائل الأعمال ومواقف الأبطال ، وقد فهم ذلك البصراءُ من أعلام هذه الأمة ، حتى في المجال الصوفي الذي يقال عنه إنه يميل الى السلبية والرضى بالواقع ، ففي الأدب الصوفي جاء قولهم : « الصبر تعويد النفس الهجوم على المكاره » . وجاء فيه أيضاً قولهم : « تَجَرَّعِ الصبر (احتمله) فإن قتلك قتلك شهيداً ، وإن أحياك أحياك عزيزا » . وكذلك قال عمرو بن عثمان : « الصبر الثبات مع الله ، وتلقّي بلائه بالرحب والدعه » .

والصبر لا يناقض الإحساسَ بالألم ، لأن هذا الاحساس أمر طبيعي ليس معيبا ، وإنما المعيب هو الخضوع لهذا الإحساس والرضا به ، أو الاستجابة

لداعيه الذي يُغرق صاحبَه في الجزع والهوان ، واللائق بصاحب الصبر أن يحاول كي يجعل صبره صبراً جميلا ، وهو الصبر الذي لا شكوى معه ، وإن كان هناك شعور بالألم أو إحساس بالأذى ، ولذلك أمر الله تعالى رسوله بهذا اللون من الصبر ، فقال له في سورة المعارج : « فاصبر صبراً جميلا » ، وقد جاء في سورة يوسف ذكر الصبر الجميل مرتين على لسان أحد الأنبياء وهو يعقوب ، وذلك في قوله تعالى : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » ، في الآية الثامنة عشرة ، ثم في الآية الثالثة والثمانين من السورة .

والصبر يكون عميقاً مثمراً إذا صار كالطبع للانسان ، وقد يساعد على هذا الفهم أننا نلاحظ في حديث القرآن الكريم عن الصبر أن « مفعول َالصبر» يُحذَفُ غالبا للدلالة على أنه صار كالطبع للفاعل ، ولم تَرِدْ مادةُ « الصبر » في القرآن معذكر مفعول إلا في آية واحدة ،وهي قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » .

وقد نوه رسول الله عليه الصلاة والسلام بشأن الصبر ومكانته ، فقال : « الصبر ضياء » . وقال : « ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرا له وأوسع من الصبر ». كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « خير عيش أدركناه بالصبر » .

ولعل القرآن الكريم لم يُكثر من ذكر خُلُق من أخلاقه كما فعل في شأن الصبر ، حتى قال الإمام أحمد : الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعا . وقد كرر القرآن الأمر بالصبر ، فتكررت كلمة « اصبر » تسع عشرة مرة ، كقوله تعالى : « واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . وقوله : « فاصبر إن وعد الله حق » . : وقوله : « ولربك فاصبر » ، وتكررت كلمة « اصبروا » ست مرات كقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وقوله :« فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين» ولذلك قال العلماء إن الصبر واجب بإجماع الأمة ، ولا عجب فهو نصف

الايمان ، لأن الايمان شطران ، فنصفه صبر ، ونصفه شكر .

* * *

ومما يجلو مكانةَ الصبر وشأنَه أن الله تبارك وتعالى جعله صفة من صفاته ، فالله جل جلاله هو « الصَّبور » ،أي الذي لا يعاجل العصاةَ بالانتقام والعقاب، وفي الحديث القدسي الذي رواه النبي عن ربه : « إني أنا الصبور » . وفي الحديث النبوي : « لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل » .

ومعنى « الصبور » قريب من معنى « الحليم » ، والفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة « الصبور » كما يأمنها في صفة « الحليم » .

* * *

والقرآن المجيد يحدثنا بأن الصبر صفة الأنبياء والمرسلين ، فهو يقول في سورة « ص » عن أيوب : « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » . ويقول في سورة الأنبياء : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » . ويقول في سورة يونس لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام : « واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » . ويقول في سورة الأحقاف مخاطباً إياه أيضاً : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . ويقول في سورة الأنعام : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا » .

والصبر هو – كما يحدثنا القرآن الكريم – خلق أهل العزيمة القوية ، وأصحابِ الإرادة الماضية ، الذين يعرفون الخير ، ويعزمون عليه ، ويَمْضون فيه ، لا ينثنون عنه مهما كلفهم من تعب أو مشقة ، ومن هنا جعل القرآن الصبرَ من « عزم الأمور » ، والعزم هو عَقْد القلب على إمضاء الأمر ، وهو أيضاً المحافظة على ما يؤمَر الانسان به ، وقيل إن عزم الأمور هو مُحْكَم

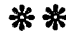
الأمور . وقيل إن عزم الأمور معناه معزومات الأمور التي يجب العزم عليها ، أو مما عزم الله تعالى أن يكون ، أي من عزمات أموره التي لا بد من وقوعها ، فهي مطلوبة مأمور بها .

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الشورى ، : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » ، ويقول في سورة لقمان : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . ويقول في سورة آل عمران : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

ويعلّق الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على هذه الآية فيقول : « الصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه ، مع الروية في دفعه ، ومقاومة ما يُحْدثه من الجزع ، فهو مركب من أمرين : دفع الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه ، فمن لا يحس لا يسمّى صابرا ، وإنما هو فاقد الإحساس ، يسمّى بليدا ، وفرق بين الصبر والبلادة ، فالصبر وسط بين الجزع والبلادة ، وما أحسن قرن التقوى بالصبر في هذه الموعظة ، وهي أن يمتثل ما هدى الله اليه فعلا وتركا ، عن باعث القلب ، وذلك من عزم الأمور ، أي التي يجب أن تُعْقَد عليها العزيمة ، وتصح فيها النية وجوباً محتماً لا ضعف فيه » .

ومن هنا نفهم أن من شأن الصبر أن يكون في مواطن الشدة والتعب التي يحتاج احتمالُها الى عزيمة وإرادة وتصميم ، ولذلك قرن كتاب الله تعالى بين ذكر الجهاد وذكر الصبر ، لأن في الجهاد مشقة تستلزم العزيمة ، فجاء في سورة البقرة قوله : « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . وجاء في سورة آل عمران : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » . وجاء في سورة الأنفال : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين

كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » . وجاء في سورة النحل : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم » . وجاء في سورة محمد : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ».

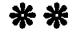


كما قرن الله تعالى الصبر في مواطن كثيرة بالأذى الذي يحتاج تحمله الى عزيمة وإرادة ، فقال في سورة إبراهيم : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتموناوعلى الله فليتوكل المتوكلون » . وقال في سورة البقرة : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون » . وقال في سورة البقرة أيضاً : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . وقال في سورة الحج : « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

وقد جاء الحديث النبوي مؤكداً هذا المعنى فقال : « الصبر عندالصدمة الأولى » وقال : « في الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » . وقال « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراءُ شكر . فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاءُ صبر ، فكان خيرا له » .

وكأن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه قد استمد من هذا الهدي حينما أشار إلى أن الصبر من شأنه أن يكون في الشدائد

والمتاعب ، فقـــال « أفضلُ الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » .



ولمــا كان الصبر بهـذه المنزلة جعـل الله تعـــالى جزاءه عظيما جليلا ، فالقرآن الكريم يخبرنا أولا بأن أهـــل الصبر يستحقون البشرى ، فقال : « وبشر الصابرين » . كما أخبرنا بأن الصبر هـو طريق الخـــير ، فقال في سورة النحل : « ولئن صبرتم لهو خـير للصابرين » . وقال في سورة النساء : « وأن تصبروا خـــير لكم والله غفور رحيم » . كما أخبرنا بأن الله جـل جـلاله يحب أهـــلَ الصبر ، فقـال في سورة آل عمران : « والله يحب الصابرين » . كما أخبرنا بأنـه تبارك وتعـــالى مع الصابرين ، ومعية الله هنـا معيةُ محبـــة وتأييد ، ونصر وتكريم ، ومعونة ومثوبة ، فقـال في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ». وقـــال فيها أيضاً : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . وقال في سورة الأنفال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى مثل هذا حـــين قال : « واعلم أن النصر مع الصبر » . لأن الصبر يستدعي معيةَ الله تعالى ، ومعية الله تستوجب النصر لأهل الصبر .

وقد أوسع القرآن الكريـم الثوابَ للصابرين ، فبعد أن ذكـر في سورة البقرة التبشير للصـــابرين ، لأنهم يقولون إذا أصـــابتهم مصيبة : إنا لله وإنا اليه راجعون ، تحدَّثَ عـن ثوابهم الجزيـل فقـــال : « أولئك عليهـم صلوات من ربهم ورحمـــة وأولئك هم المهتدون » . ووعـــد القرآن الكريـم الصـابرين بمضـــاعفة الأجر فقال في سورة القصص :

« أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون » .

وذكر القرآن أكثرَ من مرة أن عاقبة الصابرين هي نعيم الجنة العظيم ، فقال عن عباد الرحمن : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما » . وقال في سورة الانسان : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » . وقال في سورة الرعد : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ويؤكد القرآن عِظَمَ الثواب للصابرين وضمانه لهم ، فيقول في سورة النحل : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . ويقول في سورة المؤمنون : « إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » . ويقول في سورة يوسف : « إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وينتهي بنا القرآن في تكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود ، بل هو موكول لفضل الله العظيم الذي لا حدود له ولا قيود ، فيقول : « إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

والانسان يمكنه أن يعرف طريقَه الى فضيلة الصبر باستعانته بالله في تعوده الصبر واستمساكه به ، وهذا هو ما يعبر عنه أهل التصوف بقولهم ، « الصبر بالله » ، ولعل القرآن الكريم قد أشار الى ذلك حين قال ، « واصبر وما صبرك الا بالله » . فهو سبحانه الذي يهب عبده نعمةَ الصبر إذا عاناه الانسان وحاول التزين به ولذلك قال رسول

الله صـــلى الله عليه وسلم : « من يتصبر يصبِّره الله » . ومن ازدان بالصبر حـــق الصبر ، واستكمله في نفسه عَرَفَ الطريقَ الى مكانة الإمـامة ، فقد قال ابن تيمية : « بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين » . ثم تلا قوله تعالى في سورة السجدة : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمـا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

اللهم هب لنا نعمةَ الصبر بك ولك ، واجعلنا من المتقين .

التقوى

التقوى كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتابه « إعجاز القرآن» هي الأصل الأول لأخلاق الإسلام الفردية والاجتماعية التي أمضاها وأعلنها ، ورفع شأنها ، وجعلها من العزائم المفروضة والفضائل الواجبة .

والتقوى معناها في الأصل : جعل النفس في وقاية مما تخاف ، يقال : اتّقى فلان بكذا ، إذا جعله وقايةً لنفسه ، ولذلك قيل : التقوى من الاتقاء ، وهو طلب السلامة بما يحجز عن المخافة . والتقوى في اصطلاح الشرع والعقل هي حفظ النفس عما يشينها ويعرضها للملام أو العذاب، وذلك بترك أسباب السخط والعقوبة ، وفعْل الفرائض المنجية المؤدية إلى النعيم والثواب ، وإنما يكمل ذلك ويتم بترك بعض المباحات ، وإلى هذا أشار الحديث الشريف الذي يقول : « الحلال بيِّن ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه،ومن واقع الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حِمىً ، ألا وإن حمى الله محارمُه ، ألا وإن في الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

وفي هذا الحديث ما يفيد أن تمام التقوى المشار إليه بقوله :« اتق الشبهات» مرتبطٌ بطهارة القلب ونظافته من الوساوس والهواجس ، ومن سيىء المشاعر وخبيث الخواطر ، ولا شك أن هذه الطهارة هي أمُّ مكارِم الأخلاق ، وأصل فروع الفضائل .

وكلمة « التقوى » تذكّرنا – من ناحية مادتها اللغوية ، وحروفها الأصلية وهي القاف والواو والياء ، مع ملاحظة التقدم والتأخر فيما بينها– بثلاثة معان: الأول معنى القوة مادية كانت أم معنوية ، والثـاني معنى الوقاية التي تحقق الحصانة والأمن ، والثالث معنى الاتقاء الذي هو التباعد والاجتناب . وقـد تحدث القرآن الكريم عن هذه المعاني الثلاثة ، فذكر القوة المعنوية والمادية في مثل قوله : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » أي بقوة قلب ، وقيل بجد واجتهاد في العمل به. وفي مثل قوله في سورة البقرة :« خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » .

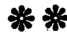
وقد تحدث القرآن الكريم عن الوقاية التي تحقّق الحصانة عـن طريق التقوى ، فقال في سورة غافر : « فوقـاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب » . وقال في سورة الطور : « إن المتقين في جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » . وقال أيضاً على لسان المؤمنين : « فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم » . وقال في سورة الانسان : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » . وقـد أكد الحديث الشريف معنى الوقاية التي تحقق الحصانة والصيانة عن طريق التقوى ، فجـاء فيه : « فوَقَى أحدكم وجهَه من النار » أي حفظه وصانه من عذابهـا بالطاعة وعمل الخير . وجاء فيه : « من عصا الله لم تَقِه من الله واقية » أي لم يكن من أهل السلامة والأمان . وفي كلام الإمام علي رضي الله عنه : « كنا إذا اشتد البأس واحمرّ الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم » . أي جعلناه حصانة لنا ووقاية .

ويرى المرحوم الرافعي أن كلمة « التقوى» لا تفسرها بالتحديد والتعيين إلا كلمة « الخلق الثابت » وأن خير الأمم هي التي توطـد دعائم مجتمعها بهـذا الخُلُق الثابت « فإن مرجع التقوى في مظاهرها الاجتماعية إلى شيئين : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما المبدأ والغاية لكل قوانين الآداب والاجتماع ، ثم مرجعها في حقيقة نفسها إلى شيء واحد ، وهو الايمـان بالله . فالأمة التي

تكون لأفرادها فضيلة التقوى تكون لها من هذه الفضيلة صفات اجتماعية مختلفة، يؤدي بمجموعها إلى صفة تاريخية واحدة، وهي أنها خير أمة، على هـــذا جاء قوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

وعلى أساس هـــذا التصور العميق لرسالة الاسلام ذكر الرافعي في تعريف التقوى أنها فضيلة أراد بها القرآن الكريم إحكام ما بـــين الانسان والناس، وإحكام ما بين الانسان والخالق، ولذلك كان المراد من حديث القرآن عـــن التقـــوى في أكثر الآيات أن يتقي الانسان كلّ ما فيـــه ضرر لنفسه، أو مضارّة لغيره.

ولو رجعنا بعـــد هذا التمهيد إلى القرآن المجيد لوجدناه يدعو إلى التقوى ويحث عليها ويأمر بها، ولقد ورد قوله تعالى: «اتقوا الله» عشرات المرات في كتابه العزيز، وقال في سورة البقرة «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوا يا أولي الألباب». وقال في سورة الاعراف: «ولباس التقوى ذلك خير». وقال عن المؤمنين في سورة الفتح: «وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بهـا وأهلها». وقال في سورة الأنفال: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عن سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم». ويحدثنا القرآن بأن دعوة الأنبياء كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب والياس لأقوامهم كانت قولهم «ألا تتقون»؟. وقد تكرر هذا التعبير القرآني ستّ مرات.



والقرآن الكريم يعطينا ملامح عن صفات أهل التقوى، فيذكر لنا ان سماتهم التذكر الذي تتبعه التوبة والعودة إلى سواء السبيل، فيقول في سورة الأعراف: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطـان تذكروا فإذا هم مبصرون». ويذكر أن من سماتهم الاحسان في الطاعة، والاتقان في العمل،

فيقول في ختام سورة النحل : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . ويذكر أيضاً ان من شأن التقوى ان يكون صاحبها يقظاً فطناً ، فيقول في سورة الأحزاب مخاطباً نساءَ النبي صلى الله عليه وسلم «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا » . ثم يذكر في سورة آل عمران مجموعة من علامات التقوى ، فيورد ستّ علامات أو صفات ، وهي الانفاق في حالتي الغنى والضيق ، وكظم الغيظ وهو أشد حالات الغضب ، أي إمساك ما في النفس بالصبر ، ولذلك يُروى أن خادما للسيدة عائشة غاظتها يوما فقالت عائشة : « لله دَرُّ التقوى ، ما تركت لذي غيظ شفاءً » . والعلامة الثالثة للمتقين العفو عن الناس ، وترك مؤاخذتهم على هفواتهم ، والعلامة الرابعة الإحسان ، والخامسة المسارعة إلى الاستغفار من الذنب ، والسادسة عدم الإصرار على المعصية ولو صغرت ، يقول الله تعالى في ذلك:

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

وحينما تعرض السيد رشيد رضا لهذه الآيات في تفسيره ذكر أن هناك مرتبة دنيا لعامة المؤمنين المتقين المستحقين للجنة ، وهي أن يتذكروا عند الذنب : النَّهْيَ والعقوبة ، فيسارعوا إلى التوبة ، ثم يشير إلى أن هناك مرتبة أسمى من المرتبة السابقة فيقول : « ومرتبة عليا لخواصّ المتقين ، وهي ان يذكروا إذا فرط منهم ذنب ذلك المقام الإلهي الأعلى المنزّه عن النقص الذي هو مصدر كل كمال ، وما يجب من طلب قُربه بالمعرفة والتخلق الذي هو منتهى الآمال ، فإذا هم تذكروا انصرف عنهم طائف الشيطان ، ووجدوا نَفَسَ الرحمن ، فرجعوا إليه طالبين مغفرته : راجين رحمته ، ملتزمين سنته ، واردين شِرعته ، عالمين

انه لا يغفر الذنوب سواه ، وانه يَضِلّ من يدعون عند الحاجة إلا إياه ، لأن الكل منه وإليه ، وهو المتصرف بسننه فيه والحاكم بسلطانه عليه » .



وبتدبرنا في آيات القرآن المجيد نفهم أن التقوى هي التي تحقق جمال الصداقة وبقاءها وحسن ثمرتها ، فالقرآن يقول في سورة الزخرف : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » أي ان كل صداقة او صحبة لغير الله تعالى فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة ، واما الصداقة المخلصة فإنها باقية دائمة في الدنيا والآخرة . وقد يتضح هذا في عقولنا اكثر إذا تذكّرنا أن التقوى تستلزم صيانةَ الإنسان حرمات سواه ، فكيف بصيانة الإنسان لحرمات صديقه ، وهذا أبو العباس الطوسي يقول : « تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى ، وبه يصل العبد إلى مجمل حقيقة التقوى » .

وبهذا التدبر نفهم أيضاً أن انعدام التقوى من الإنسان يؤدّي إلى فساده في ذاته ، وإلى إفساده لغيره ، فالمحروم من التقوى يستبيح لنفسه الادعاءَ والكذب والنفاق ، ويستبيح لنفسه التوسعَ في الإفساد وعمل الشر ، وإذا نصحه مذكّر بأن يتقي الله تعالى تكبر وتجبر . فلننظر إلى القرآن الكريم وهو يقول في سورة البقرة : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام : وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزةُ بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ، ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد » .

ولله دَرُّ الصوفي المشهور « شاه الكرماني » حيث يقول : « علامة التقوى الورع ، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات » . ولا شك أن الوقوف عند الشبهات نتيجة لصدق خوفِ الإنسان من الله جل جلاله ، والذي يخاف ربه

يمنع نفسه أن تـهـضم حقا ، أو تظلم إنساناً ، أو تأتي فساداً ، ومن هنا قد يسمى الخوف تقوى ، كما قد تسمى التقوى خوفاً ، لما بينهما من ارتباط ، فمن أراد التقوى خاف مقارفة الإثم وبعد عنه ، ومن خاف الشيء اتقاه وتجنبه .

ومما يتصل بأثر التقوى في العلاقات بين الناس أنها باب لتوطيد المساواة الحقيقية القوية بين الناس ، ولذلك يرى المرحوم الرافعي أن التقوى هي مصدر النية في المؤمنين بالله ، فإذا اعتدوا أو ظلموا أو انحرفوا بأهوائهم وشهواتهم ، كان ذلك انصرافاً منهم عن الله تعالى ، وإهمالا لتقواه ، واستخفافا بزجره ووعيده ، وكأن ضمير أحدهم - إذا لم يحفل بتقوى الله - لا يحفل بالله جل جلاله وعز شأنه وعلا سلطانه ، ومتى بلغ الإنسان هذا الدركَ الوبيءَ الدنيءَ ، فقد تكبر وتجبر وتعجرف ، وكان عدوا للمساواة بين الناس ، وكأننا بالقرآن المجيد يشير إلى ذلك حين يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباًوقبائللتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» . فالآية الكريمة تقرر المساواة الطبيعية حين تذكر أن الجميع مخلوقون من ذكر وانثى،وأشارت إلى أن الغاية الاجتماعية للناس بشعوبهم وقبائلهم هي التعارف، والتعارف السليم مجمع للفضائل ، وهو يؤكد المساواة والأخوة الإنسانية ، وأساس التفضيل هو التقوى ، فأكرم الناس الذين تساووا في الحالتين الفردية والاجتماعية هو أتقاهم ، أي أحسنهم أخلاقاً ، لا أوفرهم مالاً ، ولا أحسنهم حالا ، ولا أكثرهم رجالا ، ولا أثقبهم فهما ، ولا أوسعهم علما ، ولا أشدهم قوة .



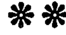
والتقوى تستلزم الإيمان بالله ، وفهم كتاب الله ، ومعرفة هدي رسول الله ، ودراسة سير الصالحين من عباد الله ، والاهتداء بهذا كله لوجه الله . ولذلك يقول الإمام محمد عبده : « التقوى أن تقي نفسَك من الله : أي من غضبه وسخطه

وعقوبته ، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ، ومعرفة ما يُرضيه وما يسخطه ، ولا يعرف هذا إلا مَنْ فهم كتاب الله تعالى ، وعرف سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وسيرة سلف الأمة الصالح ، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله ، فمَنْ صبر وصابر ورابط ، لأجل حماية الحق وأهله ، ونشر دعوته ، واتقى ربه في سائر شؤونه ، فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى » .

وهناك صلة بين التقوى والبر الذي هو جماع الفضائل ومجموعة أعمال الخير ، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة البقرة : « ولكن البر من اتقى » . وكذلك أشار القرآن إلى الصلة الوثيقة بين التقوى والإيمان ، حتى قال بعض المفسرين إنه لا اعتداد بالإيمان في الآخرة إلا إذا صحبته التقوى ، وكانت أثراً له في النفس والعمل الصالح ، وهناك آيات كثيرة تشير إلى ارتباط الإيمان بالتقوى ، فالله تعالى يقول في سورة البقرة : « ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير » . ويقول في سورة المائدة : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم » . ويقول في سورة الأعراف : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » . ويقول في سورة آل عمران : « وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » . ويقول في سورة يونس : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » . ويقول في سورة يوسف : « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . ويقول في سورة النمل : « وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ويصل القرآن بين التقوى والأمانة ، فيقول في سورة البقرة : « فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه » ويصل بينها وبين الوفاء فيقول في سورة آل عمران : « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » . ويصل بينها وبين الصبر ، فيقول في سورة يوسف : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . ويقول في سورة آل عمران : « وإن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من

فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين [1] » . ويقول فيها أيضاً : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .



وإذا كان معنى قول الله تعالى : « اتقوا الله » هو اتقوا عذابه وعقابه، وإنما تضاف التقوى إلى الله تعظيما لأمر عذابه وعقابه ، إذ لا يمكن لأحد أن يتقي ذات الله ، أو يتأبى على مشيئته ، فقد ينبغي لنا أن نتدبر فيما جاء في « تفسير المنار » وهو : « إن العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه قسمان : دنيوي وأخروي ، وكل منهما يُتّقى باتقاء أسبابه ، وهي نوعان : مخالفة دين الله وشرعه ، ومخالفة سننه في نظام خلقه فأما عقاب الآخرة فيُتّقى بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص والعمل الصالح ، واجتناب ما ينافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والرذائل ، وذلك مبيَّن في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل ما يستعان به على فهمها واتباعها سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء الأمصار

وأما عقاب الدنيا فيجب أن يُستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى في هذا العالم ، ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان ، وأمثلتها ظاهرة ، وسنن الاجتماع البشري ، فاتقاء الفشل والخذلان في القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها ، وإتقان آلاتها وأسلحتها التي ارتقت في هذا العصر ارتقاء عجيباً .

والواجب على الأمة المؤمنة في مجال هذا الاتقاء أن تبذل غاية وسعها ،

---

(١) مسومين : معلمين بعلامات ، من التسويم وهو إظهار سيما الشيء ، ويروى أن الرسول قال لأصحابه : « تسوموا فان الملائكة قد تسومت » . أو مرسلين من التسويم بمعنى الاسامة ، وهو الإرسال .

وتستوعب طاقتها وجهدها ، لأن ربها تبارك وتعالى يقول لها : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » . وقد قيل إن التقوى حق التقوى هي أن يطاع الله فلا يُعْصى ويُذْكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر ، وقيل هي أن يجاهدوا في الله حقّ جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم ، وقيل هي أن يؤدوا واجبات التقوى حتى لا يتركوا أيّ جزء يحق فيها ويوضّح هذا القول ويؤكده قول الله تعالى ، « فاتقوا الله ما استطعتم » أي بالغوا في التقوى ، حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً .

وإذا تحققت التقوى من عباد الله المؤمنين حققت لهم ثمراتها العظيمة المتمثلة في الثواب الجزيل والأجر العظيم ، وقد تحدث القرآن عن ذلك بتوسع وتأكيد فقال في سورة الأعراف :«فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وقال في سورة هود : « فاصبر إن العاقبة للمتقين » وقال في سورة آل عمران : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » . وقال في سورة الزمر : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد » . وقال فيها أيضاً : « وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » . ولعل أوسع الآيات وعداً للمتقين قول القرآن في سورة الطلاق : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدرا » .



وينبغي أن نشير إلى أن كثيراً من الناس يظنون أن التقوى معناها مقصور على الانكسار والذل والمسكنة والانطواء ، وقد فهمنا من سابق القول أن هذا الوهم لا نصيب له من الصحة ، فالتقوى حصانةٌ وصيانة ، والتقوى رعاية

وورقاية ، والتقوى قوة وفتوة ، والتقوى بر وخير ، والتقوى إحسان وإتقان ، والتقوى وفاء وصبر .

وكيف يظن ظان بالتقوى ذلك والقرآن يعلّمنا أن التقوى إنما تكون لله وحده ، لأن الله تعـالى يقول : « وإياي فاتقون » اي اتقوني وحدي دون غيري ، فالخوف إذن لا يكون إلا لله وحده ، وهذا خُلُق يورث العزة ، فما دمت لا تخاف إلا الله ، ولا تتقي سواه ، فأنت اذن لن تخاف مَنْ عداه ، وهذا كمال العزة ، ولذلك قال القرآن : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وكذلك ينبغي أن نفهم أن التقوى لا تعارض التمتع بزينة الله تعـالى التي اباحها لعباده ، وقد كان خيار السلف يتمتعون بها ويضربون مـع ذلك أمثلة للتقوى ، وحسبك بالإمام مالك بن أنس قدوةً في ذلك ، فقد كتب إليه يحيى ابن يزيد النوفلي يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، مِنْ يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالـك بن أنس : أما بعد ، فقد بلغني أنك تلبس الدّقـاق ، وتأكل الرّقـاق ، وتجلس على الوطيء ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلست مجلس العلم وقد ضُربت إليك المطيّ ، وارتحل إليك النـاس ، واتخذوك إماما ، ورضوا بقولك ، فاتق الله تعـالى يا مالك ، وعليك بالتواضع . كتبتُ إليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى ، والسلام » .

فرد عليـه الامام مالك يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. من مالك بن انس إلى يحيى بن يزيد . سلام الله عليك. اما بعد ، فقد وصل إليّ كتابك ، فوقع مني موضع النصيحة والشفقة والأدب، امتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، واسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اما ما ذكرتَ لي اني آكل الرّقاق، والبس الدّقاق ، واحتجب ، وألبس الوطيء ، فنحن نفعل ذلك ، ونستغفر الله تعالى، قد قال الله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعبـاده والطيبات من

الرزق » . وإني لأعلم أن تركـ ذلك خير من الدخول فيـه ، ولا تَدَعْنا من كتابك ، فلسنا ندعك من كتابنا ، والسلام » .



نسأل الله جل جلاله أن يزيننا بفضيلة التقوى ، وأن يبعث بها في نفوسنا روح المراقبة له سبحانه ، حتى تصير نفوسنا بذلك تقيـــة راضية مرضية : « والعاقبة للتقوى » .

الحمـــد

« الحمد » فضيلة من الفضائل تـدل على الشكر والرضا ، والتقـدير للجميل والفضل ، وتظهر في الثناء الكامل والذكر الحسن ، ولذلك قالوا إن حقيقة الحمد هي الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلة وأعماله الجميلة ، وقـالوا « إن الحمد لله تعالى هو الثناء عليه بالفضيلة ، وجميع المحامد مستحقة لله جل جـلاله ، فأي حمد يتوجه إلى محمود ما فهو لله تعالى ، سواء لاحظه الحامد أم لم يلاحظه ، لأن مستحق الحمد هو الله سبحانه .

وقد فرق بعضُ العلماء بين معـــاني الحمد والشكر والمدح ، ولكن آخرين قالوا إن المعاني هنا متقاربة ، وهذا هو الطبرسي يقول : « الحمد والمدح والشكر متقاربة المعنى ، والفرق بين الحمد والشكر أن الحمد نقيض الذم ، كما أن المدح نقيض الهجاء ، والشكر نقيض الكفران ، والحمد قد يكون من غير نعمـــة ، والشكر يختص بالنعمة ، إلا أن الحمد يوضع موضع الشكر » .

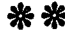
ويفرق ابن القيم بين الحمد والشكر بقوله : « والفرق بينهما أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته ، والحمد أعم من جهـــة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب . ومعنى هـذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناءً واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقيـــاداً ، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال « شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه ، وهو المحمود عليها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الإحسان والنعم .

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد ، من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر ، من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد يقع باللسان » .

وسواء أكان هناك بين الحمد والشكر هذا الفرق أو ذاك ، نجد الحمد عماد الشكر ، لأن الحديث يقول : « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبدٌ لا يحمده » وفي رواية أخرى : « الحمد رأس الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره » . ويقول عبد الله بن عباس : « الحمد كلمة كل شاكر » .

وقد يخيل إلى بعض الناس في فهمهم لمعنى الحمد أنه مقصور على ترديد كلمة « الحمد » وما تصرف من مادتها باللسان فقط ، ولكن الحمد عند فقهاء الأخلاق ، وفي مجال الحديث عن أخلاق القرآن هو أن يدرك الإنسان مكانة النعمة ، فيستريح إليها ، ويعرف لها حقها ، فيقدرها قدرها ، ويشعر في قلبه وعقله بالفضل فيها ، ويترجم عن هذا بلسانه مثنياً ، وبأعماله عابداً طائعاً ، ولذلك يقول الرازي : « الحمد عبارة عن صفة القلب ، وهي اعتقاد كون ذلك المحمود متفضلاً منعماً ، مستحقاً للتعظيم والإجلال ؛ فإذا تلفظ الإنسان بقوله : أحمد الله ، مع أنه كان قلبه غافلاً عن معنى التعظيم اللائق بجلال الله كان كاذباً ، لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامداً ، مع أنه ليس كذلك » . بل كأن الرازي يرى أن الإنسان إذا لم يحقق الشعور بالحمد في نفسه كان كالحيوان غير المكلّف ، فيقول فيما يقول : « وما لم يحصل شعور الإنسان بوصول النعمة إليه امتنع تكليفه بالحمد والشكر » . ويضيف : « حمد المنعم عبارة عن كل فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعماً ، وذلك الفعل إما أن يكون فعل القلب ، أو فعل اللسان ، أو فعل الجوارح . أما فعل القلب فهو أن يعتقد فيه كونه موصوفاً بصفات الكمال والإجلال ، وأما فعل اللسان فهو أن يذكر ألفاظاً دالة على كونه موصوفاً بصفات الكمال ، وأما فعل الجوارح فهو أن يأتي بأفعال دالة على كون

ذلك المنعم موصوفاً بصفات الكمال والإجلال » .



ومن السهل علينا بعد ذلك أن ندرك أن فضيلة الحمد صفة نفسية قلبية عقلية ، تظهر آثارها على اللسان أو الجوارح بالأقوال والأعمال ، وإذا كان من طبيعة الفضيلة الأخلاقية أن تستقر وتستمر وتدوم ، فإن فضيلة الحمد إذا تحققت في الإنسان كان لها هذا الاستمرار والاستقرار . لأن نعم الله تعالى كثيرة موصولة ، لا يستطيع عقل الإنسان أن يحيط بها : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » والإنسان منا إذا حمد ربه جل جلاله ، فإنما يحمده بتوفيق من الله وإعانة ، وهذا التوفيق والإعانة نعمتان من الله تستحقان أيضاً الحمد ، فكأن الإنسان لا يستطيع القيام بشكر ربه إلا عن طريق نعمة أخرى ، وهذه النعمة الأخرى تستحق الحمد ، وهكذا تتوالى النعم فيستمر الحمد .

والإنسان المتحلي بفضيلة الحمد لا يحمد ربَّه على النعم التي تصله فقط ، بل هو يحمد الله تعالى لأنه المنعم ، سواء أكان إنعامهُ عليه أم على سواه ، فالحمد فيه معنى التقدير للنعمة ، سواء أكانت هذه النعمة قد وصلت الحامد نفسه أو وصلت غيره ، ونعم الله موصولة عامة شاملة لهذا وذاك وذلك ، وهي من قديم كانت ، وفي الحاضر تكون ، وفي المستقبل ستكون ، ولذلك عاد الرازي يقول : « الحمد لله له تعلق بالماضي ، وتعلق بالمستقبل ، أما تعلقه بالماضي فهو أنه يقع شكراً على النعم المتقدمة ، وأما تعلقه بالمستقبل فهو أنه يوجب تجدد النعم في الزمان المستقبل ، لقوله تعالى : لئن شكرتم لأزيدنكم . والعقل أيضاً يدل عليه ، وهو أن النعم السابقة توجب الإقدام على الخدمة والقيام بالطاعة ، ثم إذا اشتغل بالشكر انفتحت على العقل والقلب أبواب نعم الله تعالى وأبواب معرفته ومحبته ، وذلك من أعظم النعم ، فلهذا كان الحمد بسبب تعلقه بالماضي يغلق عنك أبواب النيران ، وبسبب تعلقه بالمستقبل يفتح لك أبواب الجنان ؛

فتأثيره في الماضي سدُّ أبواب الحجاب عن الله تعالى ، وتأثيره في المستقبل فتحُ أبواب معرفة الله تعالى .

ولما كان لا نهاية لدرجات جلال الله، فكذلك لا نهاية للعبد في معارج معرفة الله ، ولا مفتاح لها إلا قولنا : الحمد لله » .

وقد يزكي هذا ما رُوي من أن أول كلمة نطق بها آدم أبو البشر هي : « الحمد لله رب العالمين » وأن هذه الكلمة هي آخر كلمة يذكرها أهل الجنة بدليل قول الله تعالى عنهم : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .



ومما يدل على مكانة الحمد في حديث القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى افتتح به أول سورة من سور القرآن ، فقال تعالى في بداية سورة الفاتحة : « الحمد لله رب العالمين » ، وافتتح به سورة الأنعام فقال : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ». وافتتح به كذلك سورة الكهف فقال : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً» وافتتح به سورة سبأ فقال: «الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير». وافتتح به سورة فاطر فقال : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » .

وهذا الافتتاح المتكرر بالحمد في هذه السور الكريمة يذكرنا بما رواه أبو داود وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع » . وفي رواية : « كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » . والأقطع هو الناقص قليل البركة ، والأجذم مثله .

وقد وصف الله تعالى ذاته القدسية بصفة الحمد ، فجاء في القرآن قوله : « واعلموا أن الله غني حميد » . وقوله : « إنه حميد مجيد » . وقوله : « فإن

الله لغني حميد » ، وقوله : « ان الله لهو الغني الحميد » ، وقوله : « وهو الولي الحميد » ، وقوله : « وكان الله غنياً حميداً » ... إلخ . والحميد هو المحمود أو الحامد ، أي المحمود على كل حال ، والحامد لعباده أي الشاكر لهم ما يعملون من حسنات ، بإثابتهم عليه .

وقد سُمّيَ خاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه بعدة أسماء تدل على معنى الحمد ، فهو : محمد وأحمد ومحمود وحامد .

وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحرص على حمد ربه ليكون قدوة لقومه ، فقال تعالى : « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » . أي سبِّح حامداً ربَّك مثنياً عليه بتمجيده وتعظيمه . وقال تعالى للنبي في سورة الإسراء : « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبِّره تكبيراً » .

كما أمر الله تعالى نبيه نوحاً عليه السلام بأن يحمد ربه فقال: « فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين » .

والقرآن الكريم يخبرنا بأن الحمد كان من شأن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، فالقرآن يقول على لسانه :« الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء » . وكذلك كان الحمد من شأن داود وسليمان ، فالقرآن يقول : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

والحمد من صفات الملائكة الذين هم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فالقرآن يقول في سورة غافر : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به » . ويقول في سورة الشورى : « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم » .

والقرآن يجعل « الحمد » إحدى خصال المؤمنين الذين باعوا لله أنفسهم

وأموالهم بالجنة ، فيقول عنهم في سورة التوبة : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » .

ويشير كتاب الله تعالى إلى تعدد مواطن الحمد ، وتوالي الإتيان به ، فيقول في سورة طه : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » . ويقول في في سورة غافر : « فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » أي دائماً أو في طرفي النهار .

والموفقون من عباد الله تبارك وتعالى يحرصون على فضيلة الحمد ، فطائفة يحمدونه على ما أولاهم من إنعامه وإكرامه ، وطائفة يحمدونه على ما أذهب عنهم من الحزن والهم ،وطائفة يحمدونه على ما لاح لقلوبهم وعقولهم من عجائب لطائفه ، وطائفة يحمدونه لانكشاف صفات الجلال والجمال والكمال لذاته القدسية ؛ وهكذا ...

ومن فضل الله تعالى على عباده الحامدين أن دعاهم إلى شكر الناس وحمدهم على ما يصنعون من خير أو معروف ، وجعل هذا الحمد للناس المستحقين إياه كجزء تابع لحمد الله سبحانه ، ولذلك جاء في الحديث : « من لم يحمد الناس لم يحمد الله » .

والحمد لله فضيلة تسمو بصاحبها الحقيقي فوق الأثرة والأنوية وحب الذات ، فالمتحلي بصفة الحمد يذكرها في موطن النعمة على غيره كما يذكرها في موطن النعمة عليه ، ومما يذكرونه في هذا المجال للعبرة أن السري السقطي قال : أنا منذ ثلاثين سنة أستغفر الله من قولي مرة واحدة : الحمد لله ، فقيل له : وكيف ذلك ؟. فقال : وقع الحريق في بغداد ، واحترقت الدكاكين والدور ، فأخبروني أن دكاني لم يحترق ، فقلت : الحمد لله ، وكان معناه أني فرحت ببقاء دكاني حال احتراق دكاكين الناس ، وكان حق الدين والمروءة ألا أفرح بذلك ، فأنا في الاستغفار من ثلاثين سنة عن قولي : الحمد لله !.

والمتحلي بفضيلة الحمد ينبغي له أن يتذكر دائماً أن الله وهبه خيراً كثيراً حينما زانه بهذا الخُلُق الجليل النبيل ، وها هوذا الحسن يقول : « ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها » .

اللهم لا تحرمنا نعمة الحمد لك ، والرضى بك ، والإنابـــة إليك ، إنك رؤوف رحيم .

التـدبر

التدبر هو النظر في أدبار الأمور ، أي أواخرها ونتائجها وعواقبها ؛ وتدبر الكلام هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها ، وعاقبة العامل به والمخالف له ، وقد استعملت كلمة « التدبر » في كل تأمل ، سواء أكان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه ، أم في سوابقه وأسبابه ، أم في لواحقه وأعقابه . وتدبر فلان الأمر ودبَّره تدبيراً : نظر في عواقبه وأدباره ليقع على الوجه المحمود ، ولذلك يقال : التدبير هو النظر في عواقب الأمور ، أو التفكير في دبر الأمور .

وقد وردت مادة « التدبير » في طائفة من آيات القرآن الكريم ، فجاء في سورة يونس : « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » . وقوله : « يدبر الأمر » أي يقضي ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والكمال . وجاء في « تفسير المنار » عن هذه الآية قوله : التدبير في أصل اللغة التوفيق بين أوائل الأمور ومباديها ، وأدبارها وعواقبها ، بحيث تكون المبادي مؤدية إلى ما يريد من غاياتها ، كما أن تدبر الأمر أو القول هو التفكر في دبره ، وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي إليه .

وجاء في سورة الرعد : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . وجاء في سورة السجدة : « يدبر

الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون » .
وجاء في سورة النازعات : « فالمدبرات أمرا » والمراد بالمدبرات أمراً هنا الملائكة الموكلة بتدبير الأمور، او الملائكة المدبرات أمر الدنيا بإذن الله تعالى.

ويرى الإمام محمد عبده أنها الكواكب التي انفردت بتدبير بعض الأمور الكونية في عالمنا الأرضي ، وليس التدبير هنا إلا ظهور الأثر ، ونسبة التدبير إليها لأنها اسباب ما نستفيده منها ، والمدبر الحكيم هو الله جل شأنه.

وقد وردت مادة « التدبر » في آيات من القرآن المجيد ، ففي سورة النساء :
« أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ».
أي : ألا يتأملون معانيه ويتبصرون ما فيه ؟ أفلا يتدبرون كتاب الله تعالى ، فيعلموا انه كلام الله ، لاتّساق معانيه ، وائتلاف أحكامه ، وتأييد بعضه بعضا بالتصديق ، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق ، لأن القرآن لا يكذّب بعضه بعضا ولا ينقض بعضه بعضا ، وما يجهله بعض الناس من أمره هو من قلة علمهم وتقصير عقولهم .

ويتعرض السيد رشيد رضا لتفسير هذه الآية الكريمة بما يكشف عن مكانة فضيلة التدبر بين الفضائل الاسلامية القرآنية فيقول : « والمعنى : جهل هؤلاء حقيقة الرسالة وكنه هذه الهداية . أفلا يتدبرون القرآن الذي يدل على حقيقتها ، وعاقبة المؤمنين بها ، والجاحدين لها ، فيعرفوا انه الحق من ربهم ، وان ما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع بهم ،لأنه كاصدق فيما أخبر به عما يبيّتون في أنفسهم ، وما يثنون عليه صدورهم ، ويطوون عليه سرائرهم، يصدق كذلك فيما يخبر به من سوء مصيرهم ، وكون العاقبة للمتقين الصادقين ، والخزي والسوء على الكافرين والمنافقين ، بل لو تدبروه حق التدبر لعلموا أنه يهدي إلى الحق ، ويأمر بالخير والرشد ، وأن عاقبة ذلك لا تكون إلا بالفوز والفلاح ، والصلاح والإصلاح . فإذا كانوا لاستحواذ الباطل والغي* عليهم – لا يدركون كنه هداية هذا القرآن في ذاتها ، أفلم يأن لهم أن يدركوا من خصائصه ومزاياه ، أنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ؟. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا

كثيرا . اي لو كان من عند محمد بن عبد الله القرشي، لا من عند الله الذي أرسله به ، لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ، لعدم استطاعته واستطاعة أي مخلوق أن يأتي بمثل هذا القرآن في تصوير الحق بصورته كما هي ، لا يختلف ولا يتفاوت في شيء منها ، لا في حكايته عن الماضي ، الذي لم يشاهده محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقف على تاريخه ، ولا في إخباره عن الآتي في مسائل كثيرة وقعت كما أنبأ بها ، ولا في بيانه لخفايا الحاضر ، حتى حديث الأنفس ومخبآت الضمائر » .

وجاء في سورة محمد : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . أي : أفلا يلاحظون معاني القرآن ودقائقه ورقائقه، وما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ، أم ان قلوبهم قد قست أو استغلقت، فهي لا يصل إليها الذكر ، ولا ينكشف لها الأمر ، فكأنها مقفلة ، لا تقبل التدبر ولا الاعتبار ؟ . ويصوّر ابن جرير الطبري معنى الآية بما خلاصته : أفلا يتدبر هؤلاء الضالون مواعظ الله تعالى التي يعظهم بها في آيات القرآن الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويتفكرون في حججه التي بيّنها لهم في تنزيله ، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم أقفل الله على قلوبهم ، فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر، إنهم لو فعلوا لوجدوا في القرآن الكريم زاجراً عن معصية الله ، وداعياً إلى طاعته .

وهذا معناه أن التدبر إذا صار للإنسان خُلُقا يتحلى به ، وفضيلة يتزين بجمالها ، فإن هذا التدبر يعصم صاحبه من السوء ، ويقرنه بالخير ؛ وهذا التدبر إنما يثيره في الإنسان قلب حي يقظ ، وعقل متفتح مستجيب ، وإحساس دقيق مرهف ، وبهذا الاستعداد يتمكن الإنسان أن يحسن التدبر الدنيوي والتدبر الديني ، وهما اللذان يشير إليهما خالد بن معدان في قوله : « مامن آدمي إلا وله أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ،وما يصلحه من معيشته ، وعينان في قلبه لدينه ، وما وعد الله من الغيب ، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه ، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما » .

ويروى عن خالد بن معدان ايضاً عبارة اخرى قريبة من العبارة السابقة مع زيادة ، يقول فيها : « ما من الناس احد إلا وله اربع أعين ، عينان في وجهه لمعيشته ، وعينان في قلبه ، وما من أحد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره ، عاطف عنقه على عنقه ، فاغر فاه إلى ثمرة قلبه ،فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه ما وعد الله من الغيب ، فعمل به وهما غيب فعمل بالغيب ، وإذا أراد الله بعبد شراً تركه » .

ويشير « تفسير المنار » إلى ان التدبر للقرآن الكريم هو طريق الهداية السليم وصراط الحق المستقيم ، وان تدبر القرآن فرضٌ على كل مُكلَّف بحسب قدرته وطاقته ، وهذا التدبر هو الذي يحقق للإنسان الاستقلال في الفهم والإدراك ، ويصونه من فساد التقليد والمتابعة العمياء . ثم يقول : « يجب على كل مسلم أن يتدبر القرآن ، ويهتدي به بحسب طاقته ، وانه لا يجوز لمسلم قط أن يهجره ويُعرض عنه ، ولا ان يؤثر على ما يفهمه من هدايته كلام أحد من الناس لا مجتهدين ولا مقلدين ، فإنه لا حياة للمسلم في دينه إلا بالقرآن ، ولا يوجد كتاب لإمام مجتهد ، ولا لمصنف مقلد ، يغني عن تدبر كتاب الله في إشعار القلوب عظمة الله تعالى وخشيته وحبه ، والرجاء في رحمته والخوف من عقابه ، ولا في تهذيب الأخلاق وتزكية الأنفس،وتنزيهها عن الشرور والمفاسد،وتشويقها إلى الخيرات والمصالح ، ورفعها عن سفساف الأمور إلى معاليها، ولا في الاعتبار بآيات الله في الآفاق ، وسننه في سير الاجتماع البشري وطبائع المخلوقات ، ولا في غير ذلك من ضروب الهداية التي امتاز بها على سائر الكتب الإلهية ، فكيف تغني عنه فيها المصنفات البشرية .

أما وسِّر القرآن لو ان المسلمين استقاموا على تدبر القرآن والاهتداء به في كل زمان ، لما فسدت اخلاقهم وآدابهم ، ولما ظلم أو استبد حكامهم ؛ ولما زال ملكهم وسلطانهم ، ولما صاروا عالة في معايشهم واسبابها على سواهم .

هذا التدبر والتذكر الذي نطالب به المسلمين آناً بعد آن ، كما هي سنة

القرآن ، لا يمنع ان يختص اولو الأمر منهم باستنباط الأحكام العامة في السياسة والقضاء والادارة العامة ، وأن يتبعهم سائر الأمة فيها » .



وجاء في سورة المؤمنون قوله تعالى : « أفلم يدّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » . وكلمة « يدبروا » في الآية أصلها « يتدبروا » أي : أفلم يتأمل هؤلاء المشركون كلام الله تعالى وتنزيله ، فيعلموا ما فيـــه من العبر ، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها عليهم ،فيكون ذلك داعياً إلى التوبة والاهتداء.

ويقول القرآن في سورة ص : « كتاب انزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » اي ليتدبر اصحاب العقول آيات هـذا الكتاب الالهي المجيد ، وما شرعه الله فيه من شرائـع ، فيعملوا به فيهتدوا ويسعدوا .

ولقد كان السلف الصالح يعد « التدبر » فضيلةً تزين أحرار الرجال وخيار الأبطال ، لما في التدبر من عمق النظر في عواقب الأمور ، ولذلك قال الامام علي في عبدالله بن عباس : « إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق » . وكثر قول حكماء العرب في مدح الذين يتدبرون وينفذون بأبصارهم وبصائرهم في طيات الأمور ونتائج الاحداث، فهذا احدهم يمدح ذكياً متدبرا ، فيقول فيه :

عليمٌ بأعقاب الأمور برأيـــه كأن له في اليوم عيناً على الغد

وهذا ثان يقول :

بصيرٌ بأعقاب الأمور ، كأنما تخاطبه من كلّ أمر عواقبـــهُ

وهذا ثالث يقول :

بصير بأعقـــاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما هو واقع

وكان أسلافنا يحثون على المبادرة إلى التدبر في الوقت المناسب ، قبل فوات الأوان ، ولذلك يقول أكثم بن صيفي : « لا تتدبروا أعجاز امور قـــد ولت صدورها » . والمتـــدبر الذكي الألمعي هو الذي يتطلع اولا إلى الماضي يدرسه

ويستخلص منه العبرة ، ثم يدرس الحاضر بماله وما عليه، ثم يتطلع ببصيرته إلى الغد ليستدل بالحاضر على المقبل ، كما انتفع بعبرة الماضي في الحاضر ، ولذلـك قال حكماؤنا : « كفى بالدهر مخبراً بما مضى عما بقي » .

إن المؤمن إذا صدق في تدبره يصير يقظاً في تفكـيره وتعبيره ، وفي قوله وعمله ، وفي صلاته الفردية والعامة ، فهو يضيء صدره بنور الفكرة ، ويعمر قلبه بوازع العبرة ، ويقدّر لرجله قبل الخطو موضعها ، ويجعل لسانه وراء عقله ، فلا يلفظ اللفظة إلا بعد أن يزنها بميزان هذا العقل ، لأن الحكيم يقول: « الكلمة أسيرة في وثاق الرجل ، فإذا تكلم بها عاد أسيراً في وثاقهـا » . وخير الناس من كان التدبر له خُلـُقا في اقواله واعماله ، متخذاً له شعاراً مثل قول القائل الحكيم :

إذ شئتَ أن تحيا عزيزاً مسلـَّما　　　فدبّر وميّز ما تقول وتفعـل

اللهم هبنا صواب الفكرة وصدق العبرة ، واجعلنـــا من المتدبرين أولي الألباب .

التفكر

« التفكر » كلمة فيها معنى النظر والتفهم ، وقد عرّف الراغب الأصفهاني التفكر بأنه جولان قوة الفكر بحسب نظر العقل ، ويستعمل الفكر في المعاني ، وهو فحص الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها ، ولذلك تقول اللغة إن الفكر هو إعمال النظر في الشيء ولكن التفكر بالمعنى الأخلاقي الإسلامي القرآني هو أن ينظر الانسان في الشيء على وجه العبرة والعظة ، لتقوية جوانب الخير والصلاح ، ومقاومة دواعي الشر والفساد .

ولذلك نجد المفسرين يتعرضون لمعنى قوله تعالى : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » فيقولون في معنى : « لعلكم تتفكرون » : أي لكي تتفكروا في امر الدنيا وامر الآخرة ، فتتجنبوا ما يجلب عليكم البلاء والشقاء فيها ، وتعتصموا بما هو لائق بالمؤمنين من الأخلاق والمكارم ، وتستنبطوا الأحكام ، وتفهموا المصالح والمنافع المنوطة بها ،فتأخذوا بالأصلح ، وتبعدوا عما يضركم ولا ينفعكم ، أو يضركم أكثر مما ينفعكم .

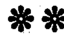
ولقد جاء ذكر التفكر في القرآن الكريم عدة مرات ، فقال الله تعالى في سورة البقرة : « أيود احدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » . وقال في سورة الأنعام : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني مَلَك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا

تتفكرون » . وقال في سورة الرعد : « وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . والجزء الأخير من هذه الآية الكريمة ورد مثله في سور الروم ، والزمر ، والجاثية ، كما ورد قوله تعالى : « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » في سورة النحل مرتين .

كما جاء في سورة النحل أيضاً قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وجاء في سورة يونس : « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » . وفي سورة الأعراف : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » . وفي سورة الحشر : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

ولو تتبعنا المواضع التي جاء فيها ذكر التفكر في القرآن الكريم ، لوجدنا أن هذا الذكر يأتي غالباً بعد الحديث عن أمر او مشهد يثير في النفس معنى من معاني الاعجاب بالخير والفضيلة والميل إليهما ، أو معنى من معاني النفور من الشر والرذيلة والضيق بهما ، او هكذا ينبغي ان يكون لدى الانسان القويم ، وهذا يؤكد لنا المعنى الأخلاقي القرآني لفضيلة التفكر ، وهو النظر على وجه الاتعاظ والاعتبار ، فالانسان يتفكر في أمر المعاصي وأمر الطاعات ، أو يتفكر في الصفات المهلكة والصفات المنجية ، فيتبين حينئذ – أو هكذا ينبغي له أن يتبين – أهو متلبس بمعصية فينتهي عنها ، أم هو سائر في طاعة فيزداد منها ؟.

وكذلك يتفكر الانسان في الفرائض والواجبات : أهو يؤديها أم يقصّر فيها ؟ . ويتفكر في الصفات المهلكة : أهو متلطخ بشيء منها ؟ . ويتفكر في الصفات الجميلة : ما الذي يحتاج إليه منها ؛ وهكذا .



ولقد عرض الامام الغزالي في حديثه الممتع الواسع عن التفكر نموذجاً للتفكر

في الطاعات فقال عن الانسان المتفكر : « فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها ، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير ، او كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ، ثم يرجع إلى عضوٍ عضو ، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى ، فيقول مثلاً : إن العين خُلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرةً ، ولتُستعمل في طاعة الله تعالى، وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على ان اشغل العين بمطالعة القرآن والسنة ، فلم لا أفعله ؟ وأنا قادر على ان انظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه ، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته ، فلم لا أفعله ؟

وكذلك يقول في سمعه : إني قادر على استماع كلام ملهوف ، أو استماع حكمة وعلم ، او استماع قراءة وذكر ، فما لي أعطّله وقد أنعم الله عليّ به ، وأودعنيه لأشكره ، فما لي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله ؟ .

وكذلك يتفكر في اللسان ، ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب اهل الصلاح ، وبالسؤال عن احوال الفقراء، وإدخال السرور على زيد الصالح ، وعمرو العالم ، بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة ؟

وكذلك يتفكر في ماله ، فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني ، فإني مستغنٍ عنه . ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الايثار أحوج مني إلى ذلك المال .

وهكذا يفتش عن جميع اعضائه وجملة بدنه وامواله ، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده ، فإن كل ذلك ادواته واسبابه ، ويقدر على ان يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات ، ويتفكر في إخلاص النية فيها ، ويطلب لها مظانّ الاستحقاق حتى يزكو بها عمله ، وقس على هذا سائر الطاعات » .

والتفكر ليس خبط عشواء ، ولا اضطراب عمياء ، ولا شرود عجماء ،

وإنما للتفكر حدوده وقيوده ، ولعل مما يشير إلى ذلك الحديث القائل : « تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في الله ، فإنكم لن تقدروا قدره » . وكذلك رُوي : « تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله » . وقد جاء في السنة ايضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون ، فقال لهم : ما لكم لا تتكلمون ؟ فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل . فقال : « كذلك فافعلوا وتفكروا في خلقه ، ولا تتفكروا فيه » .

وكذلك ليس من التفكر الاخلاقي الاسلامي أن يتفكر الانسان في طرق الوصول إلى الشهوات والملذات، ولا في وسائل العدوان على الأنفس أو الأعراض أو الأموال أو غير ذلك من حرمات الناس، وليس من التفكر الاسلامي القرآني أن يستجيب الانسان لدواعي الحسد ونزعات الحقد والبغضاء ، أو غير ذلك مما يجعله فريسة لخبيث المشاعر وسيء النوايا .



ولقد أشاد السابقون من علماء الأمة وبصرائها بمنزلة التفكر السليم القويم ، فذكر حجة الاسلام الغزالي أن الفكر هو مصباح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار، وشبكة العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم ، وقال خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز: « الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة » . وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وثمرة التفكر ثمرة يانعة ممتعة ، نامية سامية ، فمن وراء التفكر يكون التعقل والارتداع عن كل ما يقبح ويسوء، والاقبال على كل ما هو جميل ومقبول، ومن وراء التفكر يكون الادراك الواعي البصير لجلال الله وعظمته ، وكثرة نعمه وآلائه ، ومن وراء التفكر يكون الاعتزاز بالله وحده والذل لوجهه سبحانه والترفع عن الهوان مع غيره، ومن وراء التفكر تكون الطاعة والاجتهاد في العبادة والازدياد من القربات ، ومن وراء التفكر يكون إحياء الجوانب

الفاضلة المشرقة في ذات الانسان ، ويكون إزهاق النـوازع الخبيثة الرديئة ، ولذلك يقول بشر : « لو تفكر الناس في عظمة الله تعـالى ما عَصَوْا الله عز وجل » .

ويرى الامام الغزالي ان من ثمرات التفكر تكثير العلم وتوسيع المعرفة ، والمعارف إذا اجتمعت لدى الانسان وترتبت أثمرت معرفةً اخرى ، لأن المعرفة انتاج المعرفة ، فإذا حصلت معرفة جديدة أدت الى معرفة اخرى ، وهكذا يمتد النتاج ، ويمضي الفكر الى غاية بعيدة . وما اجمل الشافعي في تصويره لثمرة التفكر بقوله : « صحة النظر في الأمور نجـاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم ، والروية والفكر يكشفان عـن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثباتٌ في النفس وقوة في البصيرة ففكـّر قبل ان تعزم ، وتدبـّرْ قبل ان تهجم ، وشاور قبل تـُقْدم » .

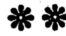
وإذا كان التفكر بهذه المنزلة ، وثمرته بتلك المكانة فالمصيبة كبيرة حـين يحرم الانسان فضيلة التفكر ، ولقد رُوي أن الحسن قرأ قوله تعالى في سورة الأعراف : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغيِّ يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين». ثم ذكر الحسن ان معنى « الصَّرف » هنا هو ان الله جل جلاله يمنـع هؤلاء الأشقياء التفكر في امر الله عز وجل .



ولقد يسأل سائل عن طريق التفكر ، والجواب أن التفكر يتحقق أولا على وجهه الكامل بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة ، وقـد يتحقق التفكر بالمحاولة والتعلم والممارسة ، فيحمل الانسان نفسه على ان تتفكر وتتدبر ، ويكرر ذلك فإذا التكرار يورثه عادة ، وإذا العادة تعمّق جذورها فكأنها طبيعة .

ويعاون على التفكر الصمت والسكون، حتى يسبح الفكر في آفاق التذكر والتدبر، ولذلك جاء في حديث منسوب إلى رسول الله صلى عليه وسلم: « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها »، وفي آخر الحديث قال: « وأن يكون نطقي ذكرا وصمتي فكرا، ونظري عبرا » . وقيل لعيسى عليه السلام : يا روح الله ، هل على الأرض اليوم مثلك ؟ . أجاب : نعم ، من كان منطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة ، فإنه مثلي . وقال الشافعي : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكر .

ولكن ليس كل صمت يؤدي إلى فضيلة التفكر ، فقد يصمت الانسان عن غفلة ، وقد يسكت عن بلادة ، وقد يسكت عن شرود ، ولذلك قال الحسن : من لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو .



ومن الخير لنا في مقامنا ان نتذكر أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كان إذا قام للتهجد والتعبد بالليل ، تطهر واستاك ، ونظر إلى السماء ، ثم تلا قول ربه تبارك وتعالى في سورة آل عمران : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . ثم يأخذ في صلاته وتعبده .

وكذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتلو هذه الآيات ويقول : « ويلٌ لمن لاكهابين فكيه ولم يتأمل ما فيها » . والتفكر في خلق السموات والأرض هو أن يتدبروا ذلك الخَلْق ، ليستدلوا به على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وعلمه وحكمته ، فيكون ذلك داعياً إلى قوة الإيمان فيهم وعمق اليقين عندهم ، ويكون ذلك داعياً إلى مضاعفة الجهد في العبادة والطاعة لله عز وجل .

ولقد رُوي أن بلالاً رضي الله عنه جاء الرسول يؤذنه بصلاة الفجر، فوجده

يبكي ، فقال : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ . فقال النبي : ويحك يا بلال ، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » . ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .

وقد قيل للامام الأوزاعي : ما غاية التفكر في هذه الآيات؟فأجاب يقرأهن ويعقلهن . ولا بد من أن يكون الأوزاعي قد أراد بعقل هذه الآيات فهمهن فهما صحيحاً ، والتأثر بهذا الفهم ، والاستجابة لمقتضى هذا التأثر وهو شكر الله وطاعته وعبادته . ومن هنا كان سفيان بن عيينة يتمثل كثيراً بقول القائل : « إذا المرء كانت له فكرة ، ففي كل شيء له عبرة » ! .



وما أوسع المجال للتفكر عند تلاوة آيات القرآن ، فإن وراء كل آية من الأسرار والإشارات والنفحات الشيء الكثير ، واللائق بالمؤمن المتفكر أن يردد الآية التي يريد التفكر فيها – كما ينصح الغزالي – ويعيدها مرات ومرات. بتمعن وتدبر ، فإن تحت كل كلمة أسراراً واسعة ، وقراءة آية بتدبر وتفكر وفهم خيرٌ من كثير القراءة بلا وعي .

وليت كل واحد منا يستمع إلى حجة الاسلام ويستجيب حين يراه يحث على التفكر الواسع النطاق بذلك الاسلوب البليغ : « فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ، ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه ، فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها ، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر ؛ فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله : (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض) لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر

فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الابصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وجبار الملك والملكوت ، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول .

فأجِلْ أيها العاقل فكرك في الملكوت ، فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الاقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى ، وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الارض التي هي مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الارض ، ثم عجائب الجوّ وهو ما بين السماء والارض ، ثم السموات السبع بكواكبها ... » الخ .

إن الانسان المتفكر يكون متعلقا بأسباب الله عز وجل ، يذكره ويراقبه ويخشاه ، وكأن التفكر معه رائد يهديه إلى طريق ربه ، ويحول بينه وبين الانصراف عنه ، وثمرة ذلك هو الاستقامة على الصراط المستقيم .

البِرُّ

هناك كلمات إسلامية مظلومةُ القدر مهضومة الحق ، لأننا حرّفناها عن جليل معناها ، أو بعدنا بها عن نبيل مغزاها ، أو جعلنا نكررها بألسنتنا دون تمعن فيها أو تدبر لمراميها . ومن هذه الكلمات كلمة « البر » ، فغاية ما يفهمه كثير من عامة الناس عن كلمة « البر » هو المعنى المادي الحسي المحدود ، وهو معاونة المحتاجين بشيء من المال أو الصدقة . ونحن – مثلا – نقول في كثير من الأحيان إن رمضان هو شهر الاحسان ، ثم نحسب أن البر في رمضان هو أن نتصدق – فقط – على هذا الفقير ببضعة قروش ، أو أن نقدّم لذاك المسكين قدراً من الطعام ، مع أن البر في منطق الاسلام اسم لفضيلة جامعة لأنواع الخير والتوسع فيه ، فهو كما يقول بصراء العلماء : البرُّ فعلُ الواجبات ، والبعد عن المحرمات ، والبشاشة مع الناس ، والعطف عليهم ، والاحسان اليهم ، وتحمل الأذى منهم .

وإذا رجعنا إلى اللغة وجدنا أن مادة « البر » تدل على السعة والصدق والطاعة وقد قالوا إن كلمة : « البر » – بكسر البــاء – مأخوذة من كلمة البر بفتح الباء – وهو خلاف البحر ، وقد تصوروا فيه التوسع ، فاشتقوا منه كلمة « البر » بمعنى التوسع في فعل الخير .

والبر في تعبير القرآن الكريم يفيد معنى الايمان وما يتبعه من أعمال ، فهو يشمل صحةَ الاعتقاد واستقامة التطبيق ، ولذلك يقول الحق جل جلاله في في سورة البقرة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن

البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المـــال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عـــاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

ولقد رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن البر ، فتلا هـــذه الآية الكريمة .

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً : « البر حسن الخُلُـق ، والإثم مـــا حاك في صدرك (أي تردد) وكرهت أن يطلع عليه الناس » . ويقول في حديث آخر : « البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

وهذا هـو القرآن الكريم يعطـّر ذكر البر في مواطـن منه ، ونحن نرى من جلال مكانة « البر » أن الله تبارك وتعالى قد جعل لذاته القدسية اسماً مشتقاً من مادته ، وهو اسم « البَرُّ » ، فقال القرآن في سورة الطور : « إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البَرُّ الرحيم » أي العطوف على عباده ، الشامل لهم ببره ولطفه ورعايته .

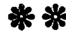
وجعل القرآن المجيد فضيلة البر صفةً من صفات الأنبياء والمرسلين ، فقال في سورة مريم عن زكريا عليه السلام: « وَبرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا». وقال في السورة نفسها على لسان عيسى عليه السلام : « وَبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا » .

ووصفت السنة المطهرةُ ملائكة الرحمن — وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون — بأنهم بررة ، فقال عليه الصلاة والسلام: « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » يعني الملائكة .



ومن دقائق التعبير في القرآن الكريم أنه بعد أن عدّد أعمال البر الكثيرة

الكبيرة في آية البر: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ..» الخ. ختم هـــذه الآية بقوله عن أولئك الأبرار الأخيار : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ، ولو رجعنا الى الآية الكريمة التي فرض الله فيهـــا فريضة الصوم على عباده لوجدناها تقول : « يا أيهـــا الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . فهناك في آية البر قال: « وأولئك هم المتقون » ، وهناك في آية الصيام : « لعلكم تتقون » فكأن الصيـــام طريق يؤدي الى تحقيق البر ، لأن البر كما قالت الآية صفة المتقين ، وكذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة : « ولكن البر من اتقى » . والتقوى معنى كبير واسع ، فالتقوى وقاية وصيانة من جهـــة ، بالابتعاد عن كل سوء ورذيلة ، والتقوى قوة وحصانة من جهـــة أخرى ، بإتيان كل عمل طيب وسعي حميد .



والبر يتفرع إلى ألوان وأنواع ، فهناك البر بالإنفاق لوجه الله تعالى ، وفيـه يقول رب العزة : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » . ولقد ضرب أسلافنا أروع الأمثال في برهم بانفاق أموالهم في سبيل الله عز وجل ، حتى استحقوا أن يقال فيهم : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » . وأن يقال فيهم : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وكان منهم أبو بكر الذي بذل ماله كلّه في سبيل الله ، وكان منهم عثمان مجهز الجيوش ، وكان منهم عبد الرحمـــن بن عوف صاحب الباع الطويل في الانفاق ، وعلى قمة الأبرار الأجواد يأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كان أجود الناس ، وكان أجود مـــا يكون في رمضان ، فهو في جوده حينئذ كالريح المرسلة ، ولذلك استحق عن جدارة أن يوصف بأنه نبي أكبر ، وأن يخاطبه أمير الشعراء شوقي فيقول له :

وإذا سخوتَ بلغت بالجود المَدَى   وفعلتَ ما لا تفعل الأنواءُ
وإذا ملكت النفسَ قمت ببرهـا   ولو أنّ ما ملكت يداك الشاء

ويقول عنه :

نبي البر ، بيّنه سبيلا   وسنّ خلاله ، وهدى الشعابا

وهناك بر الوالدين ، بعدم عقوقهما أو الإساءة اليهمـا ، وبالاحسان اليهما كل الاحسان ، ولذلك يقول الرحمن : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهمـا وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

ولقد قال أحد الصحابة كمـا روى أبو داود والترمذي : يا رسول الله ، من أبرُّ ؟ . فأجاب : أمك ثم أمك ثم أمـك ، ثم أبوك ، ثم الأقرب فالأقرب . وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أبرّ البر صلة الولد أهل ودّ أبيه » .

وهناك بر الأقارب وذوي الأرحام ، والقرآن يقول : وأولو الأرحـام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » . وجاء في الحديث القدسي أن الرحم قالت لربّها : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال لهـا : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ . قالت : بلى يا رب ، قال : فذاك لك ! . وفي الحديث النبوي : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر » .

وهناك البر في الكلام والحديث ، فإن الكلمة الطيبة نوع من البر ، والله تعالى يقول في سورة المجادلة : « يا أيهـا الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتنـاجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذي اليه تحشرون » . وقـد حبب القرآن المجيد أقوى تحبيب في البر بالكلام . فقال : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي

أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ويقول: « وهُدُوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » .

* * *

وإذا كان القرآن المجيد قد طالب المسلم بأن يكون بارا بالمسلمين ، فانه وجهه الى البر مع غير المسلمين ما داموا عادلين ، فقال : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » . وجاء في الحديث : «تصدقوا على أهل الأديان كلها ».

ثم يعمم القرآن الدعوة الى المشاركة في إشاعة البر بين أرجاء المجتمع ، فيقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

وقد قرر كتاب الله ثوابَ أهل البر وسمو مكانتهم في أكثر من آية ، ففي سورة آل عمران جاء : « وما عند الله خير للأبرار » . وفي سورة الانسان : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » .وفي سورة المطففين : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين » . وفي سورة الانفطار : « إن الأبرار لفي نعيم » .

* * *

ومن لطائف البر في منطق الاسلام أن الانسان لا يكون بارا إلا إذا كان صادقاً ، ولذلك فسروا البر بالصدق ، وتقول لغة العرب : برّ فلانٌ في يمينه ، أي صدق فيها ، وبرّ فلانٌ بوعده إذا وفاه ، وبرّ فلان بكلامه ، إذا صدّقه بالعمل ، ويقال : حجة مبرورة ، أي مقبولة قبولَ العمل الصادق .

والقرآن يقول مبكتاً الكذبة من بني إسرائيل : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » . ويقول الرسول صلوات

الله وسلامه عليه : « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صدّيقاً ».

وتقص علينا قصة الإسراء والمعراج أن الرسول صلى الله عليه وسلم مرّ في طريقه على قوم تقطع شفاههم بمقاريض من نار ، فسأل النبي ، من هؤلاء يا جبريل ؟ . فأجاب : هؤلاء خطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون .

فالواجب على المسلم أن يحقق البر في نفسه قبل أن يطالب غيره بأن يكون بارا ، وإلا قيل له :

يا أيها الرجل المعلّم غيره — هلا لنفسك كان ذا التَعليم ؟
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا — كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا — أبداً ، وأنت من الرشاد عديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله — عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها — فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظتَ ويقتدى — بالقول منك وينفع التعليم

أو قيل له :

ما أقبح التزهيدَ من واعظ — يزهّد الناسَ ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقا — أضحى وأمسى بيته المسجد
والرزق مقسوم على من ترى — يسعى له الأبيض والأسود

ولقد تحدث الامام الرازي في تفسير قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » فكان مما قاله هذه العبارة :

« أما قوله : أفلا تعقلون ، فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم ، ونظيره قوله تعالى : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) .

وسبب التعجب وجوه : الأول أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر إرشاد الغير الى تحصيل المصلحة ، وتحذيره عما يوقعه في المفسدة ، والاحسان الى النفس أولى من الاحسان الى الغير ، وذلك معلوم بشواهد العقل والنقل ، فمن وعظ ولم يتعظ فكأنه أتى بفعل مناقض لا يقبله العقل ، فلهذا قال : أفلا تعقلون .

الثاني : أن من وعظ الناس ، وأظهر علمه للخلق ، ثم لم يتعظ ، صار ذلك الوعظ سبباً لرغبة الناس في المعصية ، لأن الناس يقولون : إنه مع هذا العلم ، لولا أنه مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات ،وإلا لما أقدم على المعصية فيصير هذا داعياً لهم الى التهاون بالدين ، والجراءة على المعصية ، فاذا كان غرض الواعظ الزجر عن المعصية ، ثم أتى بفعل يوجب الجراءة على المعصية فكأنه جمع بين المتناقضين ، وذلك لا يليق بأفعال العقلاء ، فلهذا قال : أفلا تعقلون.

الثالث : أن من وعظ فلا بد وأن يجتهد في أن يصير وعظه نافذاً في القلوب والإقدام على المعصية مما ينفر القلوب عن القبول ، فمن وعظ كان غرضه أن يصير وعظه مؤثرا في القلوب ، فالجمع بينهما متناقض غير لائق بالعقلاء ، ولذلك قال علي : قضم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك » .

نسأل الله جل جلاله أن يجعلنا من أهل البر في القول والعمل .

المسارعة الى الخير

« المسارعة » من « السرعة » ، ومادة « سرع » لها أصل يدل على خلاف البطء ، فالسريع ضد البطيء ، وسَرْعان الناس : هم أوائلهم الذين يتقدمون سراعا ، والمساريع في الحرب : جمع مسراع ، وهو الشديد الإسراع في الامور مثل مطعان ومطاعين ، فهو من أبنية المبالغة ، والمسارعة هي المبادرة ، والفرق بين السرعة والعجلة أن السرعة هي التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه ، وهي صفة محمودة وفضيلة مشكورة ، وضدها الابطاء وهو مذموم ، والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه ، وضدها الأناة وهي محمودة .

وقد جاء في القرآن الكريم نسبة السرعة إلى الله عز وجل ، فقال عنه تعالى : « سريع الحساب » ثماني مرات ، وقال : « سريع العقاب » مرتين ، وقال : « أسرع الحاسبين » مرة ، وقال : « أسرع مكرا » مرة . ونسبة السرعة إلى الله في الحساب أو العقاب تنبيه على ما قال : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون » .

والمراد بالمسارعة إلى الخير هو الارتياح لعمل الخير ، وسرعة التفتح النفسي له والاقبال الروحي والعملي عليه ، والفرح بالدعوة إليه والتذكير به ، وهذه فضيلة من أكرم الفضائل الانسانية التي تدل على المعدن الاصيل الطيب عند الانسان ، والاستعداد القوي النبيل للاستجابة في كل موطن من مواطن الخير والبر ، وكأن صاحب هذه الفضيلة يجد متعته النفسية ولذته الروحية في السبق إلى الطيب من القول والعمل بلا تردد أو إبطاء .

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الخُـلُـق الحميد في أكثر من موضع ، فقال في سورة آل عمران : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل، وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين » .

وقد روى المفسرون أن هذه الكلمات نزلت في جماعة آمنوا من أهـــل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره ، وقوله : « ويسارعون في الخيرات » معناه: يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات ، خوف الفوات بالموت . وقيــل : معناه أنهم يعملون الاعمال الصالحة ، غير متثاقلين أو متوانين فيها ، بـــل يجتهدون وينشطون لعلمهم بجلالة موقعها وحسن عاقبتها، وهذه المسارعة صفة من صفات المدح ، لأن المسارعة في الخير دليل على فرط الرغبة فيه والحب له ، والحرص على ألا يفوت لعارض من العوارض أو حائل من الحوائل ، ومن فعـل تلك المنزلة صار من خيار المتحلين بمكارم الأخلاق .

وشأن المؤمن المخلص أنه لا يتباطأ عن مواطن الخير ، وفي طليعتها مواطن العبادة ، لأن التباطؤ في الخير هو شأن الذين في قلوبهم مرض ، كما قـــال الله تعالى في شأن المنـــافقين في سورة النساء : « إن المنـافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » .

ولأن المؤمنين الصادقين من شأنهم أن يسارعوا إلى الطـاعات والقربات ، قالت الآية بعد وصفهم بهذه المسارعة : « وأولئـك من الصالحين » أي الذين صلحت نفوسهم ، فاستقامت أحوالهم ، وحسنت أعمالهم .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » . والمسارعة إلى المغفرة والجنة هي المبادرة إلى أسبابها ، وما يُمـــد الانسانَ لنيلها والفوز بها ، أي سارعوا إلى ما يوجب لكم مغفرة ربكم ونعيم جنته .

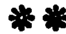
ولقد ورد في إيضاح ما يسارع إليـــه هؤلاء أقوال ، فقيل : سارعوا إلى اجتناب معاصي الله ، وقيل : سارعوا إلى الاسلام ، وقيل : سارعوا إلى أداء الفرائض ، وقيل : سارعوا إلى الهجرة ، وقيل : سارعوا إلى التكبيرة الأولى، وقيل : سارعوا إلى أداء الطاعات ، وقيل : سارعوا إلى الصلوات ، وقيـل : سارعوا إلى الجهاد ، وقيل : سارعوا إلى التوبة ... هذه أقوال تقارب العشرة، وقد يكون هناك غيرها في تضاعيف التفاسير العديـدة ، وأكاد أفهم — والله أعلم بمراده — أن هذه الاقوال قد ذكرت ألواناً من مواطن المسارعة، والمفهوم العام للمسارعة يضمها ويشملها ، ولذلـــك أميل إلى ما رواه النيسابوري في « غرائب القرآن » ونسبه الى عكرمة ، وهـو قوله : « ليس ذلك إلا المغفرة الحاصلة بسبب الاسلام ، والإتيان بجميع الطاعات، والاجتناب لكل المنهيات» فكأن الأمر بالمسارعة في الآية الكريمة هو دعوة الى التحلي بفضيلة المسارعة الى الخير ، على الدوام وفي كل الأحوال .

ويقول القرآن الكريم في سورة الأنبياء : « وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبـا ، وكانوا لنا خاشعين » . ومعنى المسارعة هنا — كما ذكر المفسرون — أنهـم كانوا يبادرون الى الخيرات طاعةً لله ، ويعملون ما يقرّبهم الى الله ، والمسارعة في طاعة الله — كما يذكر الرازي — من أكبر مـا يُمدح به المرء ، لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة ، ولذلك أكرم الله جل جلاله هؤلاء المسارعين في الخيرات ، فاستجاب لهم ، وحقق ما أرادوه ورغبوا فيه ، ووهب لزكريا الولدَ بعد طـول سنين ، وأصلح له أمر زوجته ، وهـذا فضل عميم من صاحب الفضل العظيم ، يذكّر كلّ مؤمن بأنـــه إذا أخلص في المسارعة الى الخير لوجـــه الله أوسع له العطاء والجزاء .

ومما يؤكد هـــذا الفهم ويزكيه أننا نجـــد القرآن الكريم يقول في سورة

المؤمنون : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ».

وكأن المسارعة إلى الخيرات تكون ثمرة طيبة وتاجا رفيعا لهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الجيدة ، فهم يخشون الله حق خشيته ، وهم يصدقون بآياته وكلماته ، وهم لا يشركون به أحدا ، وهم يقدمون ما يستطيعون من طاعة وجهد ، دون اغترار بما قدموا ، بل يظل الوجل مسيطراً عليهم خوفا من تقصير أو تغرير ، وهم يخشون يوما يرجعون فيه إلى الله، فتكون الثمرة الطيبة العظيمة لهذه الصفات أن تتوج رؤوسهم فضيلة سامية نبيلة ، هي الانطباع على الإسراع إلى كل خير وكل بر ، فيكونون دائما أهل السبق ، وهم الجديرون أيضاً بأن يخصهم ربهم بالنعيم المقيم .



وإذا كان الحق جل جلاله قد مجّد في كتابه المجيد ذكر المسارعين الى الخيرات ، ووعدهم أجمل الوعد وأصدقه ، فانه قد حمل حملته الصارمة على أولئك الذين فسدت طبائعهم ، وانحرفت أخلاقهم ، وانقلبت أوضاعهم ، فهم يسارعون الى المآثم والمقابح ، وبذلك يخسرون الخسران المبين ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون هذا هو كتاب الله الحكيم يقول في سورة آل عمران : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم ، إن الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم » . والمسارعة في الكفر هي الوقوع في ظلماته بسرعة ، والمبادرة إلى مناصرة أهله مع ضلالهم وخبالهم .

ويقول القرآن المجيد في سورة المائدة : « فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو

أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » أي يسارعون الى موالاة غير المسلمين ومعاونتهم ، وهذه جريمة تقابلها فضيلة هي موالاة المؤمنين، ولقد اتفق رواة التفسير بالمأثور — كما جاء في تفسير المنار — على نزول هذه الآية في المنافقين، فهم الذين في قلوبهم مرض ،أي ان إيمانهم عليل غير صحيح، إذ لم يبلغوا فيه مستقر اليقين ، وكان عبدالله بن أُبَيّ زعيم المنافقين ذا ضلع مع يهود بني قينقاع ، وكان غيره من المنافقين يمتُّون الى اليهود بالولاء والعهود ، ويسارعون في هذه السبيل التي سلكوها ، كلما سنحت لهم فرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ، فهم يسارعون في أعمال موالاتهم مسارعة الداخل في الشيء الثابت عليه ، الراغب فيما يزيده تمكناً وثباتاً ،ولذلك قالت الآية : « يسارعون فيهم » ولم تقل : يسارعون اليهم .

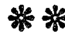
ويقول القرآن أيضاً في سورة المائدة : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم » . والمسارعة في الكفر فيها — كما سبق — معنى الجد والاجتهاد في أعمال الكافرين ، فهؤلاء الذين نزلت فيهم الآية لم يكونوا مؤمنين ، حتى يكون ما عملوا من أعمال الكفر انتقالاً من الايمان الى الكفر ، بل كانوا داخلين في حمأة الكفران ، بل انتقلوا سراعاً من حيِّز الإخفاء للكفر وكتمانه إلى حيز التصريح به وإعلانه .

ويقول القرآن كذلك في سورة المائدة : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبةً عند الله ، من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوتَ ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ، وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون ، وترى

كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السُّحتَ لبئس ما كانوا يعملون » .

فالآية تخبرنا بأن شر الناس جزاءً وعقوبةً ، وأسوأهم مكانا ، وأبعدهم عن الطريق المستقيم وهو الإسلام ، هم أولئك اليهود المذبذبون والمخادعون الذين يسارعون الى الآثام ، ويتسابقون الى أكل الحرام وارتكاب المظالم .

ومن هذا البيان القرآني عن المسارعين الى الشر نفهم أن هؤلاء إما أن يكونوا من الكافرين ، وإما أن يكونوا من المنافقين ، وإما أن يكونوا من اليهود ، وكل صنف من الأصناف الثلاثة مذؤوم مذموم أشد الذم في بيان القرآن الكريم .



وإذا كان كتاب الله تعالى قد عُنِيَ بفضيلة المسارعة الى الخير كل هذه العناية ، فقد جاءت السنة المطهرة من وراء القرآن تتابعه وتشايعه ، فإذا هي تزكّي أقوى التزكية المسارعة الى الخير ، والمبادرة إلى الطاعات ، فهذا هو عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل وعُدَّ نفسَك من أهل القبور » .

والمعنى : كن كشخص اغترب لحاجة ، فإذا قضاها سارع بالعودة الى وطنه أو كن في الدنيا كالمار في الطريق لا يتلبث ولا يتوقف ، واعدد نفسك ضمن الذين ماتوا ورحلوا ، والمراد من الحديث هو الحث على المسارعة بالأعمال الصالحة فالمستقبل مجهول : « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير » .

ولذلك كان ابن عمر يروي هذا الحديث ثم يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ،

ومن حياتك لموتك » .

وروى مسلم والترمذي أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ، ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا » . ولقد تكررت عبارة : « بادروا بالأعمال » ثلاث مرات فيما قرأنا من الحديث النبوي الشريف .

وفي الحديث أيضا : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل » . والإدلاج هنا يفيد معنى السير أول الليل ، وفي هذا معنى المسارعة ، لأن المراد من الحديث توجيه الإنسان الى المبادرة بعمل الطاعات قبل فوات الأوان . وكذلك يقول الحديث : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » . وفي الاغتنام معنى المسارعة والمبادرة .

وكرام الناس يوصون أنفسهم وغيرهم بأن يتعجلوا خطواتهم نحو عمل الخير قبل أن تعوق العوائق ، فهذا الامام جعفر بن محمد رضي الله عنه يقول : «إن الحاجة تعرض للرجل قِبَلي (أي جهتي وعندي) فأبادر بقضائها، مخافة أن يستغني عنها ، أو تأتيه وقد استبطأها ، فلا يكون لها عنده وقع » .

وهذا أحد الشعراء يقول في مبادر الى معاونة الأصدقاء :

بدا حين أثرى بإخوانه ففلَّل عنهم شباةَ العدمْ
وذكَّره الحزمُ غبَّ الأمور فبادر قبل انتقال النِّعمْ

فهذا الممدوح النبيل قد بدأ حين تحقق له الثراء بمعاونة من له من الأصدقاء ، وسارع الى إزالة الفقر عنهم ، فكأنه قد حطم شدة الفقر وأذى العدم عنهم ، وذلك لأن الحزم قد ألهمه بأن يتذكر أن العواقب غير مضمونة ، ولذلك بادر بإكرام إخوانه قبل ان تزول من يديه النعم .

وللصوفية حديثهم حين تعرض فضيلة المسارعة الى الخير ، فهذا هو القشيري

في تفسيره « لطائف الاشارات » يتحدث عن قوله تعـالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ... » فيقول : « الناس في المسارعة على أقسام : فالعـابدون يسارعون بقدمهم في الطاعات ، والعـارفون يسارعون بهممهم في القُربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرع الحسرات ، فمن سارع بقدمه وجد مثوبته ، ومن سارع بهممه وجد قربته ، ومن سارع بندمه وجد رحمته » .

وحينما يتعرض القشيري للتعليق على قوله تعـالى : « أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » يقول : « مسارع بقدمه من حيث الطاعات ، ومسارع بهممه من حيث المواصلات ، ومسارع بندمه من حيث تجرع الحسرات ، والكلُّ مصيب ، وللكل من إقباله — على ما يليق بحاله — نصيب » .

هذا وينبغي أن نتذكر أن المسارعة إلى الخير فيها سَبْق ، وقد تحدث القرآن الكريم عن السبق في الخيرات ، وعن السابقين الى الطاعات ، فقال عز من قائل في سورة البقرة : « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » . وقـال في سورة التوبة : « والسابقون الأولون من المهـاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهـار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » . وقال في سورة الواقعة : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » . وقال في سورة الحديد : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

نسأل الله عزت قدرته أن يجعلنا من المسارعين الى الخير ، السابقين الى البر ، إنه الرؤوف الرحيم .

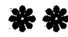
« الإنابة » كلمة تفيد معنى الرجوع والاقبال ، يقال : أناب يُنيب إنابة فهو مُنيب ، إذا أقبل ورجع ، والإنابة الى الله جل جلاله هي الرجوع اليه بالاستغفار والمتاب ، وإخلاصِ العمل لوجهه ، والتزام بابه ، وفي الإنابة أيضاً معنى المسارعة بالعودة الى الله ، والثبات على كلمته كلما هَمّ الشيطانُ أن يوسوس للانسان ، بالإعراض عنه أو النسيان له ، ولذلك قال السلف : المُنيب هو الذي يعود سريعاً الى ربه . وكأن معنى الإنابة سيتجدد ويتأكد ويتكرر ،لأن الوسوسة مستمرة ، فلا بد من استمرار الاعتصام بباب الله واللجوء الى الانابة في كل وقت ، وبهذا تكسب الانابة صفةَ الفضيلة الأصيلة والخُلُق الكريم ،فالمنيب هو الذي يسارع إلى طاعة الله ومواطن مرضاته ، ويرجع اليه في كلّ وقت ، ويبذل طاقتَه ليلتزم طاعته .

وها هوذا أحد أعلام الصوفية ، وهو الهروي ، يقول في كتابه « منازل السائرين » حين حديثه عن فضيلة الانابة عند أهل التصوف : « الانابة في اللغة الرجوع ، وهي ها هنا الرجوعُ الى الحق . وهي ثلاثة أشياء : الرجوع الى الحق إصلاحا ، كما رجع اليه اعتذاراً والرجوع اليه وفاءً ، كما رجع اليه عهدا والرجوع اليه حالا ، كما رجع اليه إنابة » . أي أن الإنابة تقتضي اعتذارا عن الهفوة إن وقعت ، وإصلاحا لها بالحسنة ، ومَحْواً لها بالطاعة . وتقتضي الوفاءَ

التطبيقي للعهد الذي أخذه المنيب على نفسه بأن يستقيم ويلتزم ، وتقتضي أن تكون أحوال الانسان وتصرفاته وسلوكه عنوانا عمليا لخُلُق الانابة .

ومن هنا حسن للامام ابن القيم أن يقول : « فما أناب إلى الله مَنْ خان عهدَه وغدر به ، كما أنه لم يُنب اليه من لم يدخل تحت عهده ، فالانابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به » .

وفضيلة الانابة تنبثق من خلال المعرفة ، فاذا عرف الانسانُ ربَّه ، واستحضر جلالَه في صدره ، وتدبر آياته ، دخل بابَ الانابة ، ولذلك قال الحارث المحاسبي : « المعرفة تُورِثُ الإنابة » . وقد يؤكد لنا هذا ما روته السنة بشأن حارثة بن سراقة الانصاري ، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي حارثةَ هذا ، فقال له : كيف أصبحتَ يا حارثة ؟ فأجابه : أصبحتُ مؤمنا بالله حقا . فقال الرسول : انظر ماذا تقول ، فان لكلٍّ قول حقيقة . فقال حارثة : يا رسول الله ، عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني بعرش ربي عزَّ وجل بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاوَرُون فيها ، وكأني أنظر الى أهل النار يتعاوَوْنَ فيها . فقال عليه الصلاة والسلام : يا حارثة ، عرفتَ فالزمْ . ثم قال النبي معجباً به : « عبد نوَّر الله الايمانَ في قلبه » .



ولقد جاء ذكرُ الانابة في خمسة عشر موضعا من القرآن الكريم ، والله تبارك وتعالى يدعو اليها عبادَه وفي طليعتهم الأنبياء والمرسلون ، فيقول لرسوله صلواتُ الله وسلامه عليه ومن ورائه أتباعه في سورة الروم : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخَلْق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، مُنيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » . ويقول في سورة الزمر : « وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذابُ ثم لا تنصرون » . وفي سورة لقمان :

« واتبع سبيل مَنْ أناب اليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » فالله جل جلاله يأمر عبده المستجيب بأن يسلك طريق مَنْ رجع إلى الله بالتوحيد والاخلاص في الطاعة ، ومن سلك طريق المنيب فقد صار مثله منيباً ، فكأنه قال له اسلك طريق الانابة وكن منيبا . ومن سمو فضيلة الانابة جعلها الله عزّ شأنه صفة لأنبيائه ورسله ، فقال عن خليل الرحمن إبراهيم في سورة هود : « إن ابراهيم لحليم أواه منيب » . والحليم هو غير العَجُول على الانتقام من المسيء ، والأواه هو كثير التأوه من الذنوب ، والتأسف على الناس ، والتضرع الى الله ، وكان إبراهيم عليه السلام منيباً ، أي كثير الرجوع الى الله ، يرجع إليه في كل أمر .

وكذلك قال الله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام في سورة هود : « قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا ، وما اريد أن أخالفكم إلى ما انهاكم عنه ، إن اريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه انيب » اي أُقبل عليه بكل حسي ونفسي ، واليه وحده أرجع في كل ما نابني من الأمور في الدنيا ، ومنه وحده اطلب ثوابي على اعمالي ، فأنا لا ارجو منكم اجرا ، ولا اخاف منكم ضُراً وعلى ربي أقبل بطاعتي ، كما أرجع اليه بتوبتي .

ويقول القرآن الكريم عن سليمان في سورة ص : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب» . ويأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يبلّغ عباده قوله في سورة الشورى : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب » . أي عليه توكلت واعتمدت في مجامع الأمور ، وإليه أرجع في كل الشؤون .

وقد جعل القرآن الكريم فضيلة الانابة علامة الاهتداء وعنوان الاستقامة على الطريق وشارة الذين يتفكرون ويتدبرون فيعرفون ، فيستجيبون لنداء الحق ودعوة الصدق ، فيقول في سورة الرعد :« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب، الذين آمنوا

وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، الذين آمنـوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » . وأكّد كتابُ الله هذا المعنى حين قـال في سورة الشورى : « شرع لـــكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه يشاء ويهدي من ينيب » . أي من يتقبل الحقَّ ويرفض العناد ، ولهذا كانت الانابة من فضائل الانسان المتدبر المتذكر المعتبر ، فقال القرآن المجيد في سورة غافر : « هو الذي يريكم آياتـــه وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب » . ويقـول في سورة ق : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج،والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب [1]».فكأن الانابة معوان على استجلاء الدلائل المثبوتة في آيات الله الكونية الدالة على جلاله وسلطانه .

* * *

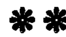
والإنابة تقارن الخشية لله تعالى، وهذا هو القرآن يتحدث عن ثواب المتقين الذين خشوا ربهم بالغيب، وكانت قلوبهم قلوباً رجّاعة إلى الله موصولة الأسباب على الدوام بجماه ، فيقول في سورة ق : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ،من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب[2]». وإذا عَمَرَتْ الإنابة قلب صاحبها وكانت نتيجةً لما تقدّمها من تذكر ، فإنهـا تقيم الانسان على صراط العدل ، وتغرس فيه نزعة الرجوع السريـع إلى الحق ، ولقد أعطانا القرآن المجيد في هذا مثلا كريما يتعلق بنبيّ الله داود عليه السلام ، حيث يقول القرآن في سورة ص : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ،

---

(١) فروج : فتوق وشقوق . ورواسي : جبالا ثوابت . وزوج بهيج : صنف حسن نضر .
(٢) أزلفت : أدنيت وقربت. وأواب : رجاع الى الله. وبقلب منيب : مقبل عل طاعة الله.

إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بَغَى بعضُنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة . ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب : فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب [1] » .

والله جل جلاله يبشر عباده المنيبين أحسنَ البشرى فيقول في سورة الزمر : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبـــدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ، فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئـك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .



وقد يظن البعض ان الإنابة والتوبة شيء واحد ، ولكن الانابة منزلة تأتي بعد منزلة التوبة ، فالتوبة هي مفتاح الانابة ، وفي هـذا يقول ابن القيم : « من نزل في منزل التوبة وقام في مقامها نزل في جميع منازل الاسلام ، فإن التوبة الكاملة متضمنةٌ لها ، وهي مندرجة فيها .. فإذا استقرت قدمُه في منزل التوبة نزل بعده منزل الانابة » .

ويرى ابن القيم أن الانابة إنابتان ، ويوضح ذلك بقوله : « الانابة إنابتان : إنابة لربوبيته ، وهي إنابة المخلوقات كلها : يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبَرّ والفاجر ، قال الله تعالى : (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه) فهذا عام في حق كلّ داع أصابه ضر ، كما هو الواقـع ، وهـــذه الانابة لا تستلزم

---

(١) تسوروا المحراب : علوا سوره ونزلوا إليه. ولا تشطط : لا تكن جائرا في حكمك. وسواء الصراط : وسط الطريـق المستقيم . وأكفلنيها : انزل لي عنها . وعزني : غلبني . والخلطاء : الشركاء . وفتناه : امتحناه .

الاسلام ، بل تجامِعُ الشركَ والكفر ، كما قال تعالى في حق هؤلاء : (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم) فهذه حالهم بعد إنابتهم .

الانابة الثانية إنابة أوليائه ، وهي إنابةٌ لالهيته إنابة عبودية ومحبة ، وهي تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والاقبال عليه ، والاعراض عما سواه ، فلا يستحق اسم المنيب إلا مَنْ اجتمعت فيه هذه الاربعة ، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك .

ويمكن أن نقول بتعبير آخر إن هناك إنابة حقيقية صادقة ، يستجيب صاحبها ويلتزم ويستقيم ، وهناك إنابة ظاهرية قائمة على الكذب والغدر ، وهي الانابة الشكلية التي يلتزم بها لئيمُ الطبع ، فإذا وجد نفسه في ضيق أو شدة لجأ إلى ربه ، لعلمه بالفطرة أنه الخالق الرازق المعين ، فإذا بلغ اللئيم مأربه ونال مطلبه ، انقلب على وجهه فكان من الخاسرين ، وقد أشار القرآن إلى هذا أيضاً في سورة الزمر فقال : « وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار [1] » وهذا الصنف اللئيم يذكرنا بمن قيل فيه :

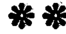
صلّى وصام لأمر كان يطلبه ... فلما انقضى الأمر لا صلّى ولا صاما

وكأن القرآن الكريم قد أشار إلى أهل الانابتين : الصادقة والكاذبة بقوله في سورة لقمان : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » . والختار هو الغدار الجحود .

ويقول مشيراً إلى أهل الانابة الكاذبة في سورة يونس : « هو الذي يسيركم

(١) خوله نعمة : أعطاه نعمة . وأنداداً : أمثالا يعبدها من دون الله تعالى .

في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » .



ويرى الصوفية أن الانابة تستلزم ثلاثةَ أشياء : أولها: الخروج من التبعات» ، وذلك يكون بالتوبة من الذنوب التي تكون بين العبد وربه ، وبأداء الحقوق التي تكون عليه للخَلْق ، وثانيها « التوجع للعثرات » ومعناه أن يتوجع قلبه ويتصدع إذا أذنب أو هَفَا ، لأن هذا الألم هو برهان الانابة والرجوع ، وأما جامد القلب الذي لا يتألم من ذنبه فإنه فاسد الطبع ميت القلب ، وكذلك يتوجع ويتألم إذا رأى أخاه المؤمن قد وقع في إثم ، حتى كأن الشخص المنيب هو الذي ارتكب الإثم ، وثالثها « استدراك الفائتات » أي تدارك ما فاته من قُربات وطاعات ، بأن يجتهد في أداء الأعمال الصالحة ، وبذلك الاجتهاد يستدرك ما فات ، ويُحْيي ما أمات .

ويقول هنا ابن القيم : « ومن علامات الانابة ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم ، مع عدم فتح باب الرجاء لنفسك ، فترجو لنفسك الرحمةَ ، وتخشى على أهل الغفلة النقمة ، ولكن ارْجُ لهم الرحمةَ ، واخش على نفسك النقمة ، وإن كنت لا بد مستهينا بهم ماقتاً لهم ، لانكشاف أحوالهم لك ، ورؤية ما هم عليه ، فكن لنفسك أشدّ مقتاً منك ، وكن أرجَى لهم لرحمة الله منك لنفسك » .

قال بعض السلف : « لن تفقه كلّ الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشدّ مقتا . وهذا الكلام لا يفقه معناه إلاّ الفقيه في دين الله ، فإن مَنْ شهد حقيقة الخَلْق وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم ، بل

تفريطهم وإضاعتهم لحق الله ، وإقبالهم على غيره ، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني ، لم يجد بدا من مقتهم ، ولا يمكنه غير ذلك البتة ، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره وكان على بصيرة من ذلــك ، كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة ، فهذا هو الفقيه » .

نسأل الله جل جلاله أن ييسر لنا أسبابه ، وأن يجعلنا من أهل الانابة .

أما بعد

فيا أخي القارىء

إن القرآن الكريم كنز نعرف أولـه، ولكننا لا نبلغ بجهدنا القليل غايتـه ، فهو واسع فسيح ، وما سبق من حديث عن « أخلاق القرآن » لم يستوعب كلَّ ما تحدث عنه كتابُ الله من فضـــائل ومكارم ، والرجاء في عون الله كبير ، والأمل في عودة إلى مواصلة الحديث عن «أخلاق القرآن» قريب غير بعيد،فالى لقاء بمشيئة الله ...

الفهرست

الموضوع	الصفحة

صدر عن دار الرائد العربي

بيروت – لبنان – ص.ب : ٦٥٨٥ –
هاتف : ٢٤٥٧٧٨

– يسألونك في الدين والحياة — للدكتور أحمد الشرباصي
٦٧٢ صفحة ١٥ ل.ل. مجلد فاخر ١٧ ل.ل.

– فدائيون في تاريخ الاسلام — للدكتور أحمد الشرباصي
٣٦٨ صفحة ٧ ل.ل. مجلد فاخر ٩ ل.ل.

– صراع — للدكتور أحمد الشرباصي
١٦٠ صفحة ٣ ل.ل.

– العقوبة في الفقه الاسلامي — للدكتور أحمد فتحي بهنسي
٢٥٦ صفحة ٦ ل.ل.

الولاية على النفس والمشاكل الاجتماعية المعاصرة — للشيخ محمد أبو زهرة
١٨٤ صفحة ٤ ل.ل.

– الميراث عند الجعفرية — للشيخ محمد أبو زهرة
١٥٢ صفحة ٤ ل.ل.

– نفح الازهار في مولد المختار — للأستاذ علي الجندي
٢٤٠ صفحة ٦ ل.ل.

هداية الباري الى ترتيب صحيح البخاري — للسيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوي
جزء أول : ٤٢٤ صفحة ٨ ل.ل.
جزء ثاني : ٣٧٠ صفحة ٧ ل.ل.
مجلد فاخر الجزئين : ١٧ ل.ل.

زاد المسافر وغرة محيا الادب السافر — لأبي بحر صفوان التجيبي المرسي
١٩٢ صفحة ٤ ل.ل.

– طبقات الفقهاء — لأبي اسحاق الشيرازي الشافعي
تحقيق وتقديم : الدكتور احسان عباس
٢٣٢ صفحة ٥ ل.ل.

– للنبي وآله — للاستاذ ابراهيم بري
٢٣٨ صفحة ٥ ل.ل.

– صفحات من معارك العقاد السياسية — للاستاذ عامر العقاد
٣٣٦ صفحه ٦ ل.ل.

– الطلاب وإنسان المستقبل — للدكتور اسعد علي
٢٨٠ صفحة ٥ ل.ل.